





808

نصار، حسين •

• مهارة الكتابة الفنية في الأدب العربي •

808

تجليد صالح الدقر  
تلفون ٢٢٩٧٧



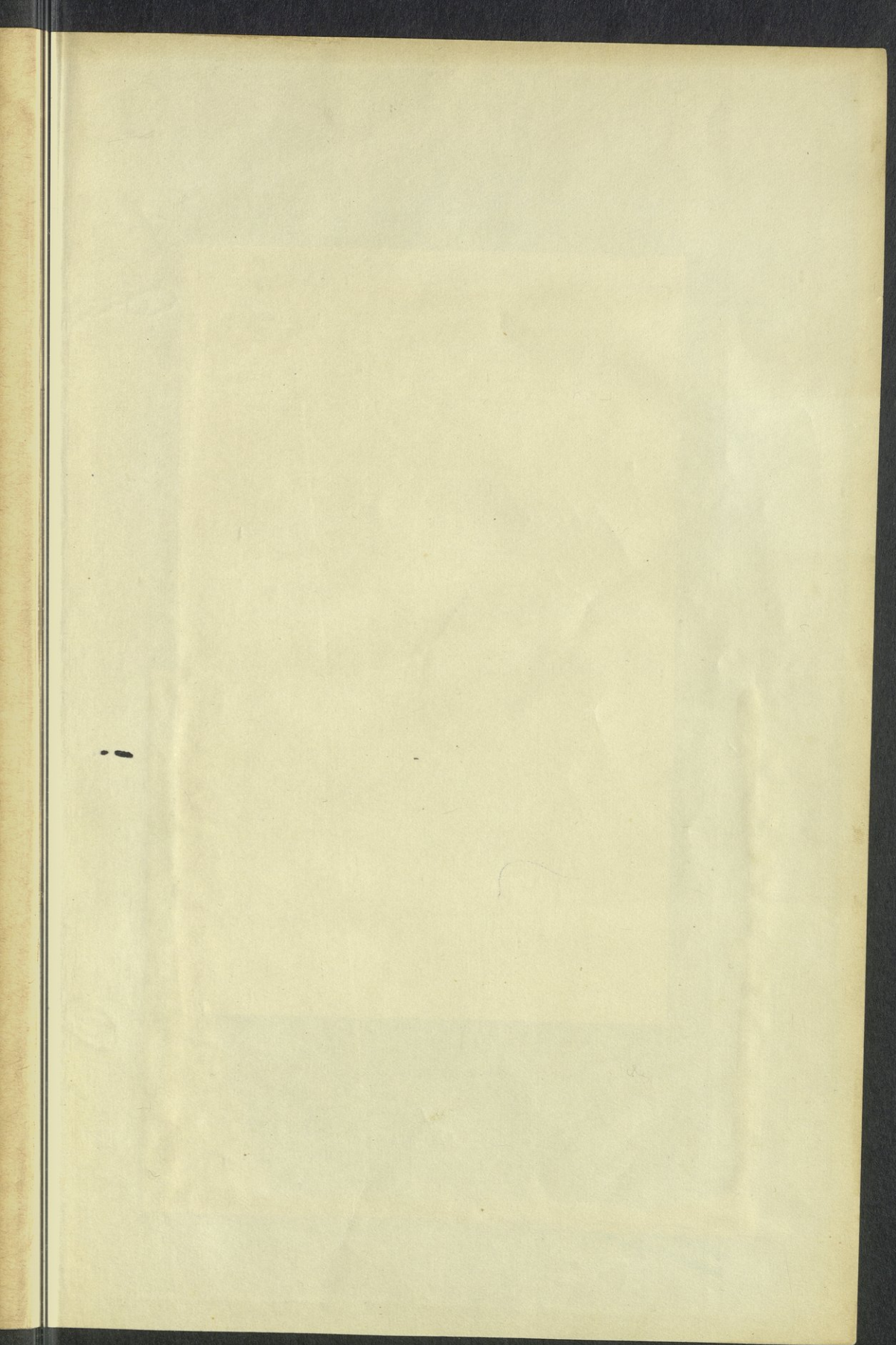
## A circular library stamp in purple ink. The outer ring contains the text "JAFET LIB." at the top and "Ct. 1.5" at the bottom. The center of the stamp features the date "25 JAN 1996" flanked by two small star-like symbols. The stamp is partially obscured by the binding of the book.



**Y. Tib.**

1864







808  
N26n2A

# نشأة الكتابة الفنية في الأدب العربي

تأليف

دكتور حسين نصار

كلية الآداب بجامعة القاهرة

الطبعة الأولى

١٩٥٤

ملزمة الطبع والنشر

مكتبة النهضة المصرية

٩ شارع ميل بناة، القاهرة

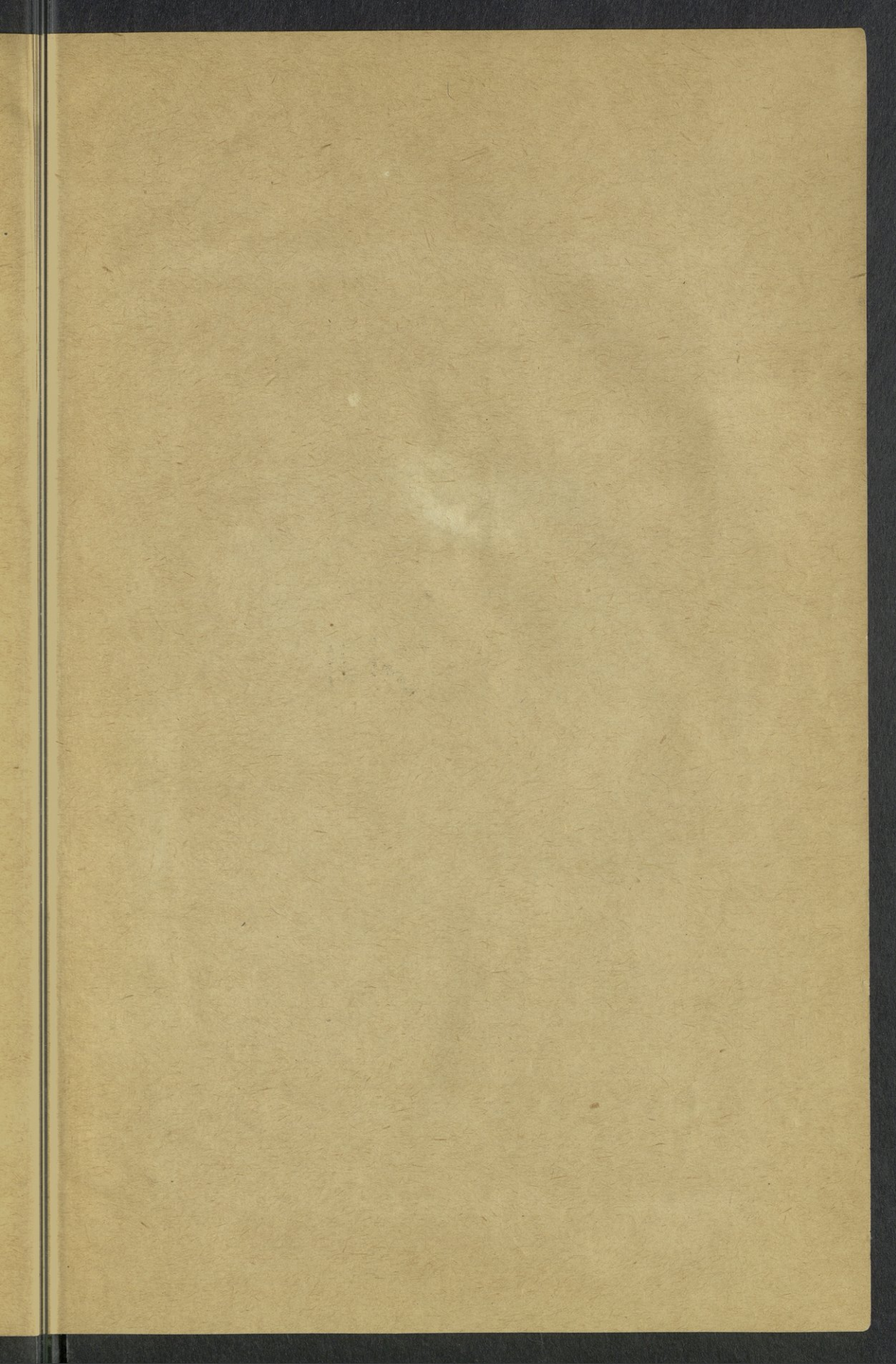






إلى أمي







## بسم الله الرحمن الرحيم

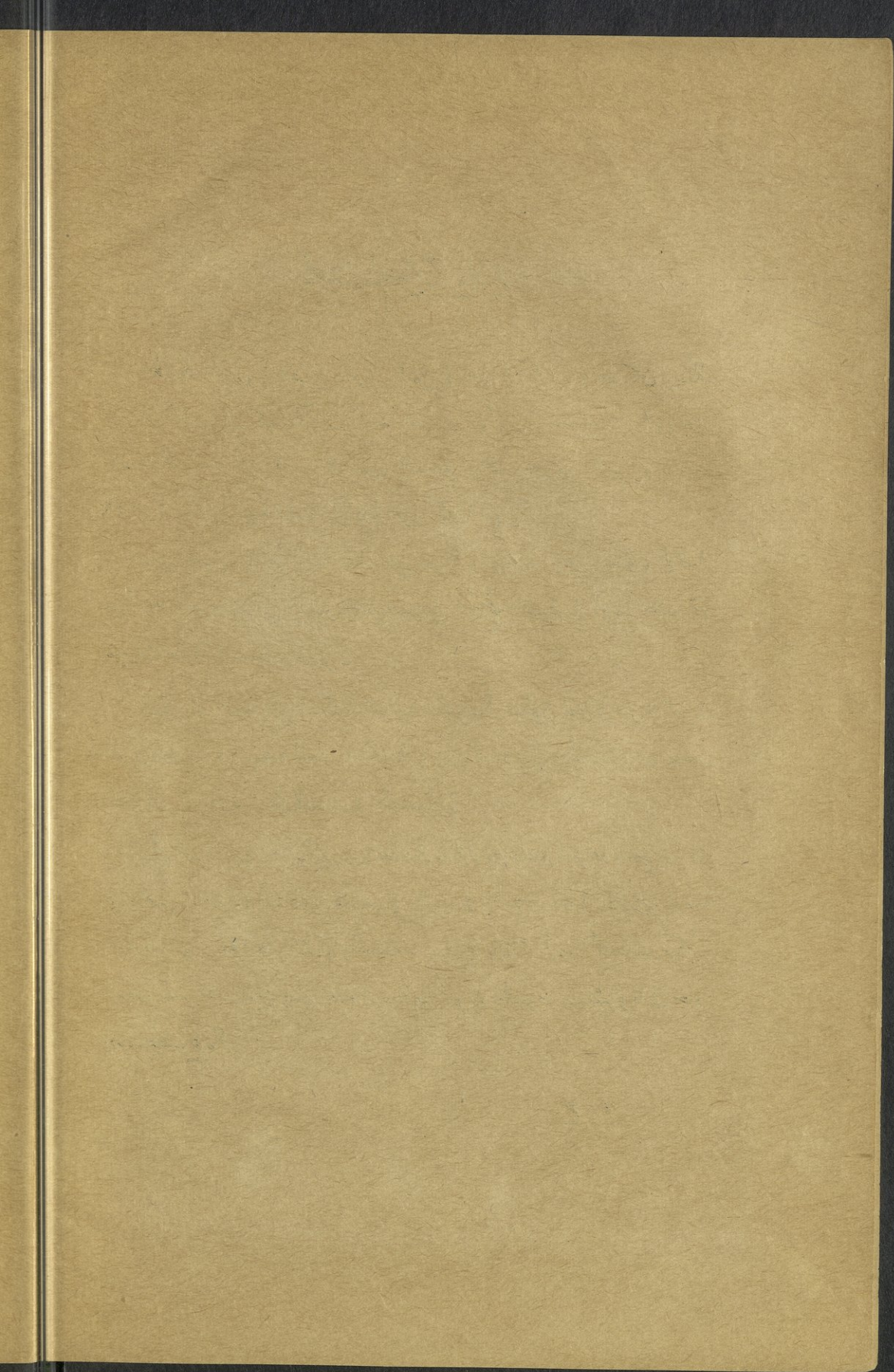
الحمد لله المعطى الوهاب ، يَسِّرْ لى العمل فى هذا الكتاب ، حين كان رسالة ،  
أريد أن أقدمها إلى كلية الآداب بجامعة القاهرة ، لأنال درجة الماجستير ؛ ووهبى  
أطيب الثمر بعد أن نوقشت فى اليوم السادس والعشرين من شهر يونيو عام  
١٩٤٩ ؛ ووهبها اليوم الحياة فى عالم النور كتابا سويا .

وهى بصورتها الحالية لا تختلف عن صورتها الماضية ، وهى رسالة ، إلا قليلا  
جداً . فقد حرصت على الصورة القديمة ، وعلى النتائج الماضية ، فلم أدخل عليها غير  
تغييرات طفيفة لاتسكاد تذكر .

وإنى إذ أقدمها إلى المكتبة العربية ، أرجو أن تكون لبنة فى صرح البعث  
العربى الجديد ، والنهضة المصرية الحديثة ، وأن تمد دارسى الأدب العربى ببعض  
النقط التى تصلح مرا كز للبحث فى المستقبل .

وقد أشرف على « تكوين » هذه الرسالة ، ورعاها فى صفرها ، حتى صارت  
إلى ما صارت عليه ، أستاذى « مصطفى السقا » الأستاذ بكلية الآداب بجامعة  
القاهرة ، فله أوجه أجل الشكر وأخلصه : وجدير بالشكر أيضاً أصحاب مكتبة  
النهضة المصرية ، الذين بعثوا هذه الرسالة من موتها المخطوط ، ونشروها فى خلق  
جديد مطبوع م



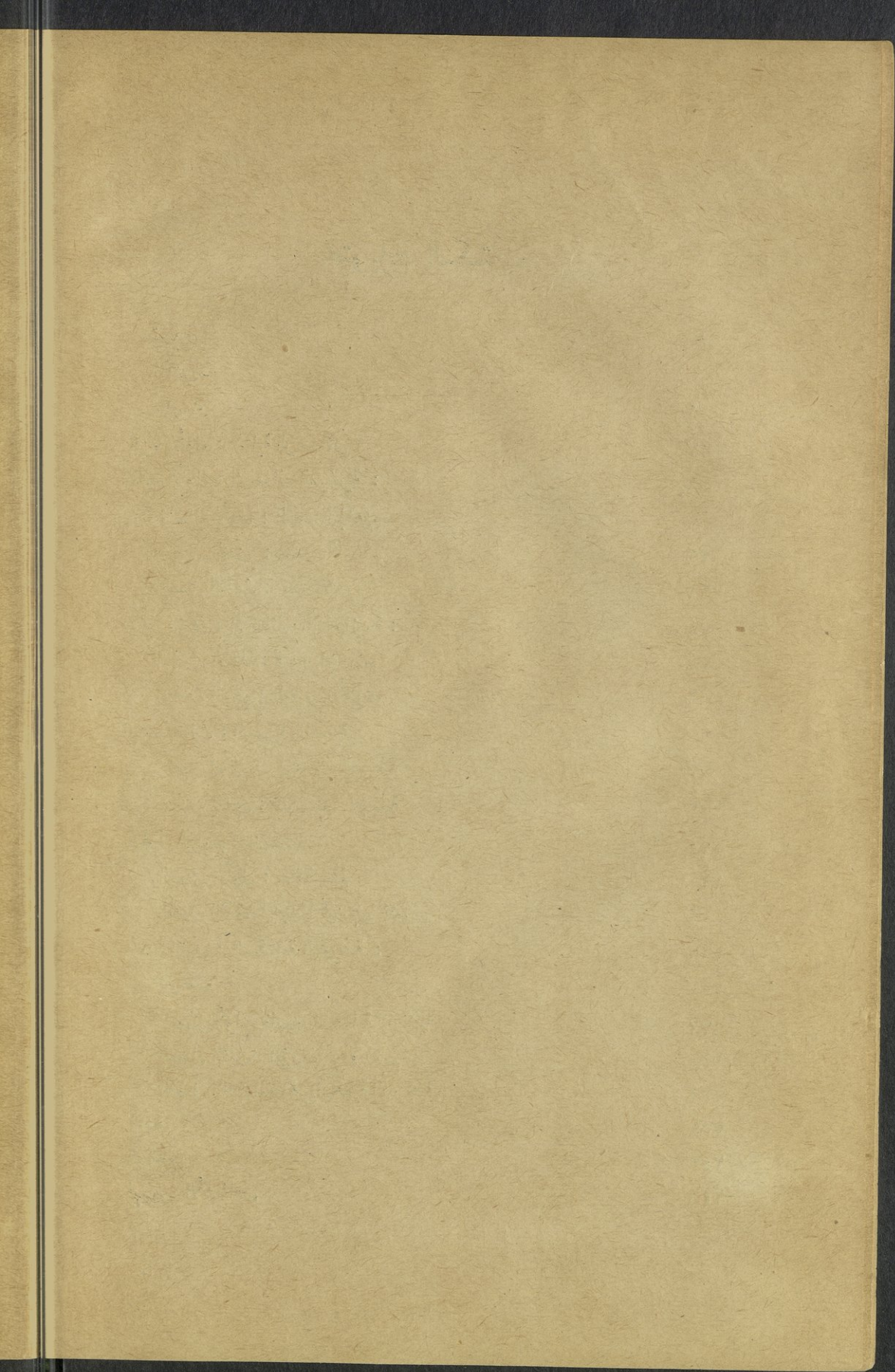




## محتويات الكتاب

|     |                                        |
|-----|----------------------------------------|
| هـ  | تصدير                                  |
| ز   | المحتويات                              |
| ١   | تمهيد                                  |
| ٧   | الجزء الأول : كتابة الرسائل :          |
| ٩   | الباب الأول : الرسائل السياسية :       |
| ٩   | الفصل الأول : العصر الجاهلي            |
| ٢٩  | الفصل الثاني : صدر الإسلام             |
| ٦١  | الفصل الثالث : عهد الأمويين            |
| ٧٨  | الباب الثاني : الرسائل الإخوانية :     |
| ٧٨  | الفصل الأول : صدر الإسلام              |
| ٨٦  | الفصل الثاني : العصر الأموي            |
| ٩٧  | الباب الثالث : الرسائل الدينية :       |
| ٩٧  | الفصل الأول : الرسائل الوعظية          |
| ١١٢ | الفصل الثاني : الرسائل الجدلية         |
| ١٢٠ | الباب الرابع : الكتاب :                |
| ١٢٠ | الفصل الأول : حلقة سالم                |
| ١٢٦ | الفصل الثاني : عبد الحميد بن يحيى      |
| ١٦٩ | الجزء الثاني : الكتابة التاريخية :     |
| ١٧٠ | تعريف                                  |
| ١٧٢ | الفصل الأول : ظهور الكتابة التاريخية   |
| ١٧٨ | الفصل الثاني : المؤرخون وكتبهم         |
| ٢٣٢ | الفصل الثالث : مظاهر الكتابة التاريخية |
| ٢٣٩ | خاتمة                                  |
| ٢٤٣ | المراجع                                |
| ٢٤٦ | فهرس الأشخاص                           |







## مهربر

ظلّ النقاد والأدباء العرب منذ أقدم العصور حتى اليوم يوجهون جُلَّ عنايتهم ، إن لم يكن كلها ، إلى الشعر وحده ، مما جعل النثر غريبا على الكثير منا ، لا يستطيع أن يتصوره التصور الصحيح ، أو المقارب للصحة . وكان من جرّاء ذلك ضياع كثير من النثر الذي لعله كان يفيدنا ويفيدهم ، لافي تصور الحركة النثرية وخذّها ، بل الحركة الشعرية أيضا ، حتى إننا لا نجد لدينا من كثير من كبار الكتاب الذين كانت لهم المجلدات من الرسائل غير الرسالة أو الرسائل أو أكثر من ذلك قليلا ، مثل سالم وعبد الحميد وابن العميد وغيرهم .

كان هذا الصنيع منهم ، مما شجّعني على اختيار هذا الموضوع والتمسك به ، ومحاولة التغلب على العقبات التي تعترض الطريق أمام الباحث في أمور تركها القدماء ، ولم يرندها إلا قليل من المحدثين .

ولما وقع العزم على اختيار النثر مادة للبحث ، كرهت أن أتعرض لموضوع طويل عريض ، لا يحتاج من الباحث إلا لمجرد العرض ، دون تعمق ، أو نفاذ إلى بواطن الأمور . ولذلك أردت أن أضع نُصْبَ عينيّ مشكلة من مشاكل ذلك النثر العربي الكثيرة ، فأحاول إلقاء بعض الأضواء عليها ، ليقترّب الباحثون من حلّها ، إن لم أوفق في الوصول إلى ذلك الحل بنفسى . ومن الطبيعيّ أنه ظهر لي أن أولى المشكلات في تاريخ النثر هي نشأة النثر الفني جملة . وليكني أردت أن أجعل المسألة أكثر تحديداً أمامى ، فقصرت بحثى على « نشأة الكتابة الفنية » . وساعد هذا التحديد على توضيق ميدان البحث ، مما يعاون على سعيته ، والدقة فيه ، والإمعان .



وليس العنوان بغريب على الباحثين ، ولكنى أحب أن أُلقي عليه بعض  
الأضواء ، لتظهر الوجهة التى أنظر إليه منها . أما نشأة الكتابة ، فقد عُنيت بها  
ظهور الآثار الثَّغْرِية المدونة وتدرُّجها حتى استكمال خصائصها فى الصدر الأول  
من تاريخها . فوصلت بها إلى عبد الحميد الكاتب ، معتبرا العصر الإسلامى  
والأموى عصر نشأة الكتابة الفنِّية . ولا يدخل فى رسالتى هذه أنواع من النثر  
العربى ، وجدت فى هذا العصر ، وقبله ، مثل الخطب والأمثال والحوار  
وما إليها ، لأنها ليست من الآثار الكتابية . ويجب ألا يغيب عن ذهن أى  
أتكلم عن عصر نشأة الكتابة ، ولذلك لا تعينى فروع الكتابة الفنية التى  
ظهرت بعد هذا العصر ، مثل كتابة الكتب الأدبية والمقامات والمقالات الصحفية  
وما مائلها ، كقولنا ظهور الإنسان على وجه الأرض ، فإن ذلك لا يعنى أن نتناول  
ظهور جميع الأجناس البشرية ، وإنما ظهور الخليقة بصفة عامة . كذلك لا تعينى  
الكتابة الفنية التى نشأت فى الولايات الإسلامية المختلفة بعد هذا العصر ، عند  
نضج الآداب الإقليمية ، وتخصصها بمزاياها وظواهرها . وإنما يعينى ما نشأ من  
الكتابة الفنية فى هذا العصر الذى تعالجه رسالتى ؛ سواء أكانت هذه الكتابة  
فى الجزيرة العربية ، أم فى العراق ، أم فى فارس ، أم فى مصر ، أم فى الشام ،  
أم فى المغرب . ولم أخصص لكل إقليم من هذه الأقاليم دراسته الخاصة ، لأن  
الأقاليم - مع إيماننا بنظرية البيئة - لم تكن قد تميزت بعد فى أدبها العربى ،  
أو بالأحرى لم تكن وجوه الاختلاف بينها قد ظهرت بشكل واضح ، فكتابتها  
نازحون إليها مع ولانها من عاصمة الخلافة ، والأحداث مشتركة بين جميع  
الإمارات والعاصمة أو متجاوبة الآثار فى غالب الأحيان .

وأما اللفظ الثانى ، وهو « الفن » ، فأصعبها فى التحديد . فقد اختلف



النقاد والأدباء والفلاسفة منذ قديم الزمن إلى اليوم ، في تحديد هذا اللفظ ، وما استراحوا إلى تعريف بعينه . ولكنى لن ألقى بالا إلى كل هذا الخلاف ، وأقصد تَوْءَ إلى ما أردته منه . فأما ما أردته أنا بعبارة « الكتابة الفنية » فهي الكتابة التي لا تصدر عن السليقة ، لا يقصد فيها صاحبها إلا مجرد الإفهام ، وإنما أردت الكتابة التي تَرَوَّى صاحبها في تجويد المعنى ، وتأنى في اختيار اللفظ قبل إرازها ، لتخرج مُخَبَّرَةً مُجَوَّدَةً ، لأنه لا يَقْصِدُ منها الإفهام وَحْدَهُ ، وإنما يقصد أيضا إثارة اللذة عند القارئ ، والإحساس بالجمال . ولذلك نَعَتُ كتابات العرب الجاهليين ، وكتابات الرسول والصحابة ، بأنها غير فَنِيَّةٍ ، على الرغم من فصاحتها وجمالها . فأنا لا أقصد بالفن الجمال وحده ، وإنما أقصد الجمال الذى استحدثه صانعُ فنان ، يعرف ما يعمل ، ويريده ويبحث عنه . وإذن فأنا أقصد من هذه الرسالة نشأة الكتابة التي كان يريد كتابها إحداث اللذة الفنية في القارئ ، بما يسبقون عليها من خصائص ، ثمرة لتروِّيهم وتحبيرهم ، ولم أقصد الكتابة البسيطة الصريحة ، التي تبغى مجرد نقل ما تحوى من أفكار ، ولو بلغت هذه الكتابة درجة الجمال والأناقة . وأحب أن أقول إن الأنفة في الكتابة لا تستلزم الصنعة ، وإنما قد يخرج القول المرتجل التلقائى جميلا أنيقا دون تروٍّ أو تعمل ، مثله في ذلك مثل الحسنة ، يغنيها جمالها عن الحلى والزينة . أما الكتابة الفنية التي أقصدها فهي مثل الحسناء التي تشعر بهذا الحسن ، وتحب أن تلفت إليه الأنظار ، فتبرز أجمل مواطنه ، وتعالج نقائصه .

وقد تكلم قبلى بعض الأدباء عن الكتابة أو النشر الفنى ، وما يحوى من فروع ، ولكنى تناولت في هذه الرسالة كتابة الرسائل ، وكتابة التاريخ . أما كتابة الرسائل فلا يعارض أحد في أنها من الكتابة الفنية ؛ ولكن قد يعترض بعض



الناس على كتابة التاريخ . وإلى المعارضين أشير بالرجوع إلى كتاب « علم التاريخ » ترجمة الدكتور العبادى بك ، وإلى المقال الأول ، فى العدد الأول ، من مجلة تاريخ العالم ، التى تصدرها مكتبة النهضة المصرية فى هذه الأيام <sup>(١)</sup> . فهناك نقاش طويل عن الكتابة التاريخية ومكانها بين العلم والفن ، وقد افترق فيها المفكرون من الناس شيعتين ، ذهب الأولى منهما إلى أن التاريخ علم ، ويمثلها قول لدكتور « بيورى J. B. Bury » : « التاريخ علم لا أكثر ولا أقل » . ويستند هذا الفريق إلى تعريف العلم بأنه « المعرفة المنظمة ، المبوبة ، المقننة » ؛ فيدخلون التاريخ فيها . وذهب الفريق الثانى إلى أن التاريخ فن . فالعلم بالغاما بلغ ، لا يعطينا من التاريخ إلا العظام المعروقة اليابسة ، ولا مندوحة عن خيال الشاعر إذا أريد نشر تلك العظام ، وبعث الحياة فيها . فإذا ما أحيها الخيال ، فهى بحاجة إلى منتهى براعة الكاتب النحرير ، حتى تبرز فى الثوب اللائق بها ، وتعرض بحيث تصبح قوة فعالة فى عالمنا هذا . أما ما يتصف به رجل العلم من حياد جافة ، فلا محل له ، ولا يمكن أن يطاق فى مقام المؤرخ الذى يعنى بشئون النفوس الحساسة ، ويبلغ الأمر بالاستأاذ « ترفليان » إلى أن يقول : « من كان فاقد الانفعال والحاسة ، فقلما يؤمن بانفعالات غيره ، ثم هو لا يمكنه أن يدرك هذه الانفعالات أبدا » . وربما كان التعريف القائل بأن « التاريخ هو التدوين القصصى لجرى شئون العالم كله أو بعضه » خيرا ما يغير لنا الطريق إلى تصور التاريخ . فهو تعريف صحيح ، ويشير صراحة إلى أن التاريخ من الفن القصصى ، أحد فروع الكتابة الفنية . أضف إلى ذلك أن التاريخ و نشأته لم يكن علما خالصا فى أية أمة من الأمم ، وإنما كان قصصا تحوطها المبالغة والخرافات ، فهو أقرب إلى الأدب منه إلى أى شىء آخر .

(١) أى عام ١٩٤٩ ، حين قدمت هذه الرسالة للمناقشة .



وقد حاولت أن أَلِمَ إلمامة موجزة شاملة بنشأة هذا النوع من الكتابة عند العرب . وليكنى مع ذلك لم أرني محتاجا إلى تتبع جميع التأليف التي ظهرت فيه ، إذ هناك بعض المؤلفات التي وجدت ولكن لم نعتز إلا على أسمائها ، مثل كتاب « المثالب » لزياد بن أبيه ، وكتاب « نسب الأنصار » لعبد الله بن محمد ابن عمارة الأنصارى ، وهناك - في غالب الظن - كتب وجدت وضاعت ولم تصل إلينا أسماؤها . ورأيت أنه يكفي التعرض للنصوص الموجودة ، وبحنها ، ومحاولة تعرف خصائصها ، لبيان حركة التطور عامة . أما تلك الكتابات الضائعة فلا حيلة لنا فيها ، ولا نحب الوقوف للتأسف عليها .

\*\*\*

وأحببت في رسالتي هذه أن أوثر الحياد المطلق ، وأن أصل إلى الحقيقة العارية والحقيقة وحدها . ولذلك أخليت ذهني - قبل الشروع في البحث - من جميع معارف السابقة عن الكتابة العربية ، وحاولت جهدي ألا أتخيز لفكرة سابقة ، أو رأى لسكاتب آخر . ثم واجهت النصوص الكتابية مباشرة دون التجاء إلى الذين كتبوا عنها شارحين أو محللين أو ناقدين ، كي أجعل هذه النصوص نفسها هي التي توحى إلي بما أكتبه ، ولا أجعل أحدا واسطة بيني وبينها ، أو بالأحرى متاراً بيني وبينها ، قد يحجب فيما يحجب الحقائق الناصعة ، أو يلونها بما يجب من أطياف . وليكنى كنت بعد أن أستوحىها كل ما يمكنني استيعاؤه منها ، أرجع إلى أكبر قدر ممكن من هؤلاء الشراح والمحللين ، والنقاد والمؤرخين ، لأستعين بهم على إيضاح بعض النقط ، أو معرفة ما لعله غاب عني . وهكذا أظنني على حق حين أقول إن هذه الرسالة ثمرة جهدي الخاص ، وأنها حاولت جهدها ألا تتأثر بأحد من الأدباء ، وأن تصور الكتابة العربية الفنية في نشأتها صورة صادقة كل الصدق ، واضحة تمام الوضوح .



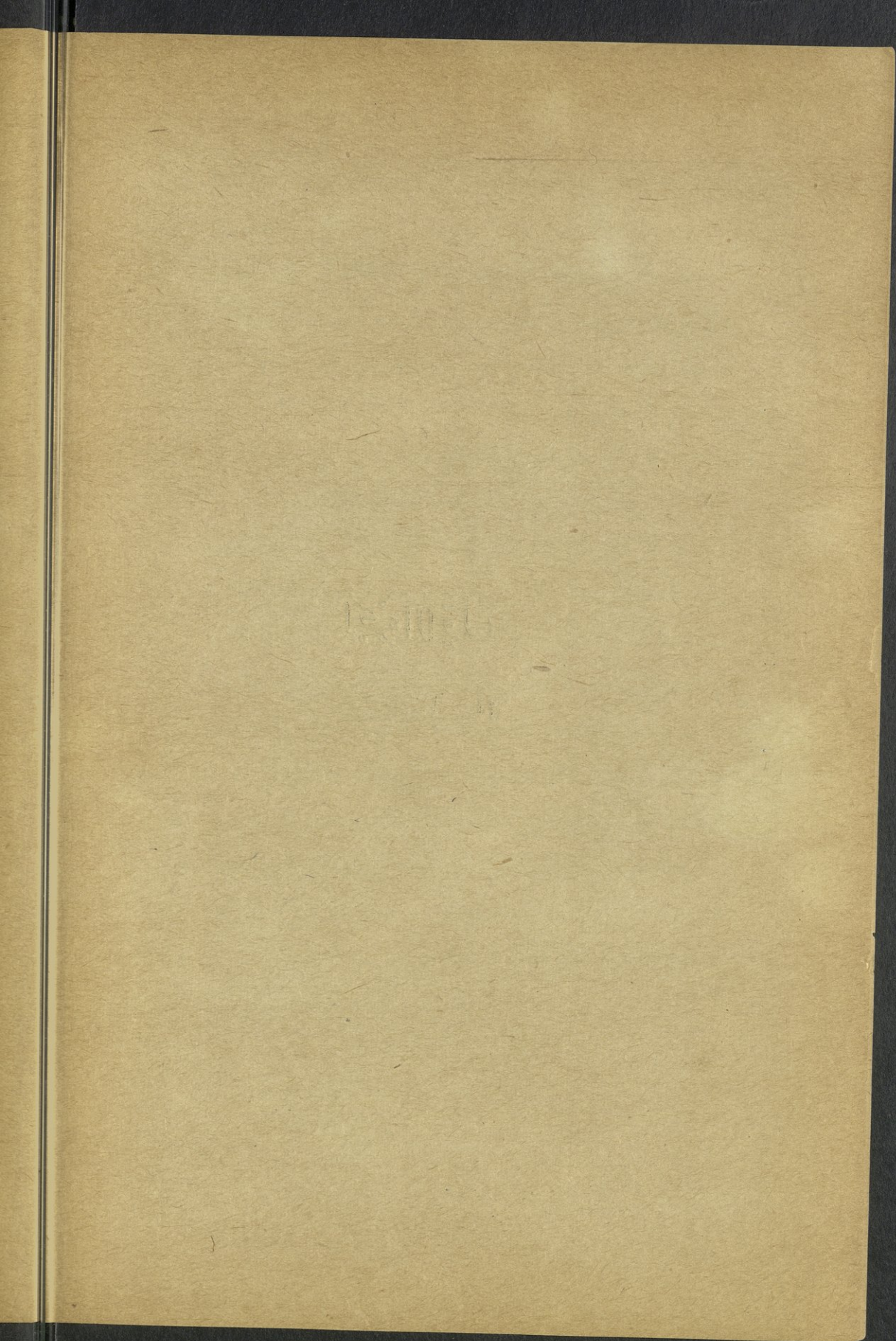
ورأيت أن الصورة تبرز وتتضح إذا ما قسمت الرسالة حسب الموضوعات لا حسب الأزمان . ولذلك خصصت أبواباً مستقلة للرسائل السياسية والدينية والإخوانية ، وراعى التقسيم الزمني في داخل هذه الأبواب ، حتى يجتمع المنهجان ، وتسلسل الموضوعات دون أن تفصل بينها الفواصل الغريبة عنها ، وإن اتصلت بها بعض الاتصال . وإن يضر ذلك التقسيم بالتطور التاريخي للكتابة الفنية عامة . فإننا عند ما نراعى هذا التطور التاريخي لكل فرع على حدة ، يتيسر لنا معرفة نشأة كل فرع من فروع الكتابة الفنية معرفة دقيقة تتبع الظواهر المختلفة التي تشيع في كل فترة من عصر النشأة تتبعاً دقيقاً شاملاً ، ويتيسر لنا معرفة أسبابها وثمراتها معرفة واضحة ماثلة . فإذا اجتمعت لدينا هذه الظواهر الخاصة ، أمكن معرفة ماساد منها جميع فروع الكتابة الفنية وبحسبها ، فنستنبط التطور التاريخي للكتابة الفنية عامة ، ونصوّر الخواص التي تعاقبت عليها تصوراً بارزاً صحيحاً . أضف إلى ذلك أنى اعتبرت العصور الثلاثة الجاهلي والإسلامي والأموي حقبة واحدة ، هي حقبة النشأة ، ولذلك لا يحمل تقسيمها إلى أقسام صغيرة يعنى فيها بجميع أنواع الكتابة فتزدهم بالخصائص ، ويضيع علينا تسلسل التطور في كل فرع منها . هذه هي المشكلة التي رأيت أن أتخذها موضوعاً لرسالتى ؛ وهذا هو المنهج الذى اتبعته في بحثها ، راجياً أن أصل ، بتوفيق من الله ، إلى تقديم الصورة الصادقة الواضحة لنشأة الكتابة الفنية عند العرب .



الجزء الأول

كتابة الرسائل







# الباب الأول

## الرسائل السياسية

### الفصل الأول

#### العصر الجاهلي

وصف بلاد العرب الطبيعي :

عندما تلقى نظرة شاملة على مُصَوَّر بلاد العرب نرى شبه جزيرة يتسع جنوبا ويضيق شمالا ، ويغلب عليه اللون الأصفر الذي يحكي رمال الصحراء ، وقد نرى اللون الأحمر الداكن الذي يمثل التلال والجبال ، على أننا لانكاد نرى أثرا للون الأخضر الذي اعتاد الجغرافيون أن يمثلوا به الأراضي الخصبة . فبلاد العرب في جملتها إذن صحراء واسعة تتخللها جبال متفرقة كثيرة ، أو سلاسل جبال متصلة أحيانا من الشمال إلى الجنوب . وأفصى ارتفاع في سطح شبه الجزيرة في ناحية اليمن ، ثم تأخذ في الانخفاض شمالا وشرقا حتى تصل إلى سواحل الخليج الفارسي وسواد العراق وبادية الشام ، فلا تظهر غير كثبان من الرمل ، أو مجموعة من الصخور الصلبة في عمان على الخليج الفارسي . وليس في بلاد العرب أنهار دائمة الجريان ، وإنما تمتلئ أوديتها بالمياه في مواسم المطر ، ثم لاتلبث أن تجف بعد ذلك .

هذه نظرة الطائر لشبه الجزيرة عامة ، دون نظر إلى أقسامها السياسية أو الطبيعية المختلفة ، قد تغرينا أن نقول إنها بلاد صحراوية رملية يسكنها بدو رحل لا يعرفون



للاستقرار معنى . ولسكننا إذا ما تأملنا قليلا ، وجدنا ما يخالف ذلك . فبلاد العرب بها أراض غاية فى الخصب تزرع منذ آلاف السنين ، وفيها المدن والقرى الآهلة بالسكان .

ويمتد الخصب عامة على سواحل شبه الجزيرة . وكانوا يزرعون بنجد واليمامة مقادير وفيرة من القمح تسد حاجة العرب ، بل كانتا لا تقلان فى القرنين السادس والسابع الميلاديين عن أرض أوربا المزروعة اليوم ، وربما بذاتها خصبا فى كثير من البقاع <sup>(١)</sup> . وكانت المراعى الغنية تنتشر على الساحل الغربى ، وفى أواسط بلاد العرب فى أرض نجد المشهورة بمراعيها التى تربى فيها الخيول الكريمة . ومن أشهر المناطق الخصبة فى بلاد العرب الأحساء <sup>(٢)</sup> ، مثل حمى ضريبة ، وحمى الرابذة ، وحمى فيند ، وحمى النهر ، تلك المناطق التى بلغ من خصبها ما دفع بعض القبائل القوية إلى التحكم فيها وقصرها على أنفسهم ، ومنع غيرهم منها ، ومن تمت سُميت الأحساء . ويشبه هذه الأحساء فى خصبها أراضى الدهناء ، والمناطق التى تسمى الدارات ، وهى كثيرة منتشرة فى أنحاء الجزيرة ، وقد ذكر منها البكرى وياقوت عدداً كبيراً . وكان الحجاز نفسه تتخلله الأودية الخصبة والآكام التى تسكنها القبائل وتقيم حولها القرى والضياع . وكان ينبت بسفوحه بعض الحبوب والثمار حيث توجد العيون والآبار . ولعل ذكر الطائف يغنيننا عن كل كلام ، فهى بستان مكة المشهور بقواكه المتنوعة الجيدة ، ومصيف أثريائها . وكان ينتشر فى المدينة وحولها الأراضى الخصبة التى استغلها اليهود <sup>(٣)</sup> أحسن استغلال حتى أدخلوا فيها وفى

(١) هل : ثقافة العرب ، ص ٢ .

(٢) انظر البكرى : معجم ما استعجم ، مادة ضريبة ، وياقوتا : معجم البلدان ، مادة حمى لمعرفة مقدار خصب هذه المواضع .

(٣) ولفنسون : تاريخ اليهود فى بلاد العرب ، ١٧ .



مستعمراتهم الزراعية في شمال بلاد العرب ؛ خيبر وفدك وتيماء ووادي القرى ، أدخلوا فيها أنواعاً جديدة من الأشجار وطرقاً حديثة للحراثة والزراعة بالآلات <sup>(١)</sup> .  
هذه بلاد العرب ليست صحراء مجربة شاملة كما كنا نحسب دائماً ، وإنما هي صحراء تنتشر فيها المناطق الخصبة الزراعية والمراعى ، حيثما توجد الآبار والأمطار ، أو حيثما يتيسر الحصول على الماء .

#### الاستقرار :

وكما يخطئ من يظن أن بلاد العرب صحراء جرداء ، لا نبات فيها ولا ماء ، يخطئ الذين يظنون أن أهلها بدو رحل ، لا يقرون في مكان ، ولا يتصلون بالأرض التي يسكنونها اتصالاً وثيقاً كأهل البلاد الزراعية ، وإنما يتربصون مواسم الغيث فيخرجون بكل ما لهم من نساء وإبل يتطلبون المرعى <sup>(٢)</sup> .  
ونحن لا نستطيع أن نساير هؤلاء الذين يطلقون القول إطلاقاً ، وخاصة بعد أن رأينا بلاد العرب ليست محرومة الماء والخصب ، بل توجد فيها أراض واسعة تشمل واحات ومستعمرات زراعية ومراعى غنية تقرّب عليها ماشيتهم التي هي أعظم ثروتهم . فهل كانت الحياة في تلك المناطق الخصبة حياة رحلة وانتقال أو حياة مكث واستقرار ؟

ما أظن أنى في حاجة إلى الكلام عن حياة إمارتى الحيرة وغسان ، وأن أقول إن الحياة فيهما لم تكن حياة بدوية ، عمادها التنقل وطلب السكّاء ،

---

(١) يذكرنا هذا بمعاملة الرسول الخاصة لليهود وادى القرى وخيبر وما جاورها في غزواته لهم بسبب مهارتهم في الزراعة .  
(٢) أحمد أمين : فجر الإسلام ، ص ٤ .



فما يستطيع أن يقول بهذا أحد ، وما أظنني بحاجة إلى الكلام على قرى الحجاز وشمال بلاد العرب ؛ تلك القرى والمدن التي غلبت عليها الزراعة ، بل أدخلت فيها الآلات الزراعية الحديثة - في ذلك الوقت - من الأقطار الأخرى . وما أظنني بحاجة إلى الكلام على مكة ؛ تلك المدينة التي انتقلت إليها ثروات اليمنيين والرومان والهنود والتي انهمرت عليها الأموال ، فما كانت الحياة فيها حياة رحلة وانتقال ، إلا إذا اعتبرنا الرحلات التجارية رحلات بالمعنى الذي يقصده الباحثون حين يطلقون هذا اللفظ على العرب إطلاقاً .

ولكن ما شأن الحياة في غير هذه المناطق الزراعية والتجارية ؟

كانت المناطق الأخرى تسكنها القبائل الراعية التي تطلب الغيث والكلاء . ولسكنها لم تكن تطلبهما أنى كانا : في شمال شبه الجزيرة ، أو جنوبه ، أو شرقه ، أو غربه ، وإنما كان لكل قبيلة موطن خاص ، أو مجال خاص لا تتعداه هي ، ولا تتعدى عليه القبائل الأخرى إلا نشبت الحروب ، كما يحدث بين الدول حين تعتدى إحداها على الأخرى . والقبيلة في موطنها هذا حرة الحركة والتنقل ، تتبع مساقط المطر ، ومنابت الكلاء في المراع والمصايف ، فهو موطن دائري ، أو موطن أكبر تدور فيه رحلات موسمية ، كأن تقضى القبيلة صيفها في موضع ، وريبعها في موضع . ولسكن هذه المواضع لا تتعدى حدود إقليمها الأكبر . ويظهر هذا في أشعارهم ، وفي قول العلماء أنفسهم إن قبيلة كذا كانت تسكن كذا ، وقبيلة كذا كانت تسكن كذا<sup>(١)</sup> . وقد سجل الشاعر الجاهلي الأخنَس بن شهاب التغلبي مواضع القبائل في قصيدة ، يقول فيها<sup>(٢)</sup> :

(١) أحمد أمين : فجر الإسلام ، ٨ .

(٢) المفضليات ٢ : ٣ . والأعلام المذكورة في القصيدة أسماء قبائل ومواقع .



لِكُلِّ أَنَسٍ مِنْ مَعَدِّ عِمَارَةٍ      عَرُوضٌ إِلَيْهَا يَلْجَأُونَ وَجَانِبُ  
لَكَيْزٍ لَهَا الْبَحْرَانِ وَالسَّيْفُ كُلُّهُ      وَإِنْ يَأْتِيهَا بَأْسٌ مِنَ الْهِنْدِ كَارِبُ  
تَطَايَرُ عَنْ أَعْجَازِ خُوشٍ كَأَنَّهَا      جَهَامٌ أَرَاقَ مَاءُهُ فَهُوَ آتِبُ  
وَبَكَرٌ لَهَا ظَهْرُ الْعِرَاقِ وَإِنْ تَشَأْ      يَحُلْ دُوسَهَا مِنَ الْيَمَامَةِ حَاجِبُ  
وَصَارَتْ تَمِيمٌ بَيْنَ قُفٍّ وَرَمْلَةٍ      لَهَا مِنْ جِبَالٍ مُنْتَأَى وَمَذَاهِبُ  
وَكَلْبٌ لَهَا خَبَتْ فَرْمَلَةٌ عَالِجٌ      إِلَى الْخُرَّةِ الرَّجْلَاءِ حَيْثُ تَحَارِبُ

... القصيدة .

إذن هذه حياة قد نصيب إذا سمينها شبه مستقرة ، وقد نخطىء إذا وصفناها بعدم الاستقرار .

أما الهجرات الكبرى وإغارة القبائل بعضها على بعض فهذا أمر مشاهد ملموس حتى في البلاد المتحضرة اليوم . فإنه عندما تشتد السفن بالقبيلة أو يشتد عليها الضغط السياسي أو الاقتصادي من قبائل أو دول أخرى تضطر إلى ترك موطنها الأصلي ، آسفة غير قالية . ولا يناقض ذلك الاستقرار ، وإنما يجعلنا ننظر إليه مخففا . ولا أدل على ذلك من اضطراب القبائل اليمنية المتحضرة المترفة لترك ديارها والهجرة إلى الصحراء شمالا بعد انهيار سد مأرب ، وسقوط الدول اليمنية المزدهرة ، ومن اضطراب القبائل العراقية إلى ترك موطنها الخصيب الغني والهجرة إلى صحراء العرب ، وإلى اليمن عندما اشتد عليهم ضغط القبائل الآتية من الشمال . ولعل الشعر العربي كان من العوامل الدافعة إلى رمى العرب بعدم الاستقرار . فهذه القصائد العربية تبدأ بالأطلال ، والديار المهجورة ، وذكر الأيام السالفة بها ، وفراقها طلبا للمرعى والسكلا ، وما إلى ذلك ، مما جعلنا ننظر إلى العرب كأنهم



قوم رُحْل لا يقر لهم قرار . ولكن الشعراء ما أرادوا ذلك ، وإنما أرادوا رحلاتهم القصيرة الصغيرة في موطنهم الكبير ، وانتقالهم بين المصايف والمرايع .

واعلمنا لا نبعد عن الصواب إذا قلنا آخرنا إن العرب عرفوا الاستقرار في المدن والقرى الزراعية والتجارية ، وعرفوا شبه الاستقرار في المراعى المتناثرة ، وعرفوا عدم الاستقرار في صحاريهم الساحلة .

### العزلة :

وخذعت بلاد العرب الدارسين خدعة أخرى ، بقبولهم أنها صحراء . إذ الصحارى أراض فقيرة ، لا يتيسر للمتحضرين العيش فيها ، ولانطمع الدول القوية في استعمارها ، لفقرها وتمنعها على الجيوش الجارة . وفرعوا على ذلك أن سكانها معزولون عزلة نامة عن أم الأرض ، فهم منطوون على أنفسهم في جزيرتهم ، لا يكاد يحس بهم أحد ، ولا يكادون يعرفون من شئون الدنيا الصاخبة بالحياة حولهم شيئاً .

ولكن الحقيقة أن العرب كانوا بعيدين عن العزلة والسكون ، إذ اتصلوا بالحضارات التي قامت حولهم منذ قديم الزمن ، على اختلاف أنواعها ومصادرها . وكانت الطرق الرئيسة التي تسربت الثقافات من خلالها إلى بلاد العرب ، هى :

(١) الاستعمار : فقد أنشأت الأمم المحيطة بالعرب مستعمرات عسكرية على التخموم بين الجزيرة العربية وبينهم لحراسة الأراضى الزراعية أو المناجم المعدنية . وعلى ذلك قامت الصلة بين العرب والمصريين منذ قديم الزمن في أيام الفراعنة الأولين . إذ سار الفراعنة في أيام الأسرات الأولى باحثين عن النحاس في شبه جزيرة سيناء ، وتوغلوا في السير حتى وصلوا إلى شمال الحجاز وجنوبى سورية ، واستعمروا تلك الجهات ، وأقاموا المخافر التي كان من بينها مستعمرة في موضع



المدينة اليوم . وعرفت الأمم تلك السيطرة المصرية على بلاد العرب حتى كان الآشوريون - البابليون يطلقون لفظ « مُصْرُ أو مِصْر » على القطر المصرى وشمال بلاد العرب وجنوبى سورية أيضا . واستعمل هذا الطريق فى التجارة أيضا ، كما استعمل طريق البحر الأحمر . ويظهر تأثير المصريين فى مشروعات الرى فى الجنوب ، وفى التماثيل والآلهة واللغة فى الشمال .

وحاول العراقيون أيضا استعمار المناطق المجاورة لهم ، فتتابعت حملاتهم منذ عهد سرجون الآشورى عام ٧١٥ « ق م » وربما من قبل وتمسكوا فعلا من إخضاع بعض القبائل فى الجاهلية البعيدة والقريبة . ولم يكن اتصال العراقيين بالعرب حريياً على الدوام ، بل كان سلبياً أيضا عن طريق التجارة والرحلات والهجرات الفردية والجماعية أحيانا ، من الطرفين على السواء . ففسدت الثقافة العراقية إلى العرب ، ويظهر ذلك فى مشروعات الرى والحضارة اليمنية فى الجنوب وفى الديانات واللغات فى الشمال . وكانت هذه الصلة غاية فى الوضوح والشدة قبيل الإسلام .

ومن أبرز الأمثلة على هذا الاستعمار إمارتا أخيرة وغسان ، اللتان لا نحتاج إلى السكلام عنهما ، وعن الدور الذى أدته فى حمل الثقافات الهلينية والفارسية إلى العرب ، إذ كل من له اتصال بالأدب العربى يعرف ذلك .

(٢) ومن الروابط بين العرب وغيرهم ، التجارة : وقد كانت بلاد العرب من أهم المراكز التجارية فى العالم القديم ، إذ تجمعت فيها تجارة اليمن وحضرموت والبحرين والهند والصين والحبشة ومصر والشام . وكانت توزع هذه الواردات على العالم القديم أجمع ، وخاصة مصر والرومان وفارس . وعرفت بلاد العرب عدة طرق تجارية ، أهمها الطريق المار باليمن والحجاز



إلى الشام . وكان هذا الطريق في أول أمره بيد اليمنيين وحدهم ، ثم اليمنيين والأنباط ، ثم الحجازيين وحدهم بعد تدهور الفريقيين الأولين . وكان الحجازيون يخرجون في قوافل كبيرة قد تبلغ خمس مئة وألف بعير . فتشبه الجيش ، كما يقول سترابو . فيتقدمها الرواد لتعرف مافي الطريق ، والهداة يهدون السبيل ، والحراس يخفونها .<sup>(١)</sup> وكان لهم رحلتان : صيفية إلى الشام ، وشتوية إلى اليمن .<sup>(٢)</sup>

وكان لمسكة مركز خاص في التجارة ، إذ كانت على مفترق عدة طرق تجارية تسير إلى أنحاء شبه الجزيرة المختلفة ، ومنها إلى أقطار العالم القديم . وكان بنو عبد مناف من قریش يتوجهون إلى البلاد المختلفة للتجارة ، فكان هاشم يتوجه إلى الشام ، وعبد شمس إلى الحبشة ، والمطلب إلى اليمن ، ونوفل إلى فارس . وكان تجار قریش يختلفون إلى هذه البلاد في ذمة هؤلاء الإخوة الأربعة لا يتعرض لهم بسوء .<sup>(٣)</sup> وكان كل أخ منهم يأخذ من ملك البلد الذي يقصده أماناً لهم ، فكان هذا أشبه بالروابط والعلاقات بين أمراء مكة وغيرهم من الملوك .<sup>(٤)</sup>

وتحضر المسكيون حتى قال عنهم أوليري<sup>(٥)</sup> : « من الصعب أن تتخيل شيئاً أبعد عن صورة الحياة العربية المساثورة من هذه المدينة التجارية الغنية التي فقد رجالها كل ميل للحرب ورضوا باستخدام جنود مأجورين (يقصد الأحيش) ، وجعلوا مدينتهم موطناً مستتب الأمن ومركزاً للبيوت التجارية في آسيا الغربية » . ونحن نصدق كل ما ذهب إليه أوليري إلا أن لفظ الأحيش خدعه فظنهم جنوداً مأجورين من بلاد الحبشة . والحقيقة أنهم عرب خلص من بني الهون من خزيمة وبني الحارث من كنفانة ، وبني المصطلق من خزاعة ، حالفوا قریشاً وكانوا من الغلاة

(١) أحمد أمين : جغرافيا الإسلام ، ص ١٦ . (٢) القرآن ، السورة ، ١٩٦ .

(٣) القالي : النوادر ، ص ١٩٩ . (٤) الدكتور حسن إبراهيم حسن :

تاريخ الإسلام السياسي ١ : ٦٤ (٥) أوليري : بلاد العرب قبل الإسلام ، ١٨٤ .



في دينهم . وأطلق عليهم هذا الاسم من تجمعهم وتحالفهم ( التحبش : التجمع )  
أو من عقدم هذا الحلف على جبل حُبَشَى بجوار مكة ، أو في سوق تهامة القديم  
المسمى حُبَاكْشَة<sup>(١)</sup> ، وفي ختام كلامنا عن التجارة نذكر قول أوليري<sup>(٢)</sup> : « وقد  
تقول - ونحن آمنون تماما - إن كل مواطن مكى في القرن السابع الميلادى قام  
برحلة على الأقل إلى بصرى أو الحيرة ».

(٣) ومن الأمور التي كانت تربط العرب بالعالم الخارجى ، البعوث الدينية :  
فقد هاجر اليهود إلى بلاد العرب منذ قديم الزمان كلما اشتد عليهم ضغط الأعداء  
أو قست عليهم المجاعات . وانتشرت اليهودية في شمال الحجاز وفي نجران من  
اليمن . وكان اليهود واسطة انتقال الثقافة الهلينية لبلاد العرب ، كما عرفوا العرب  
بالزراعة والتجارة وصناعة السيوف والدروع والآلات والصياغة وغير ذلك .

وأخذت المسيحية تنسرب إلى بلاد العرب منذ القرن الرابع الميلادى ، وكان  
أباطرة الرومان يشجعون هذا الانتشار لأن فيه بسطا لنفوذهم السائر وراء المسيحية .  
وعلى الرغم من عدم ملائمة التساهل واللين المسيحيين للخلق العربى ، وعموض  
للبادى المسيحية على عقله ، فإن المسيحية انتشرت في الحيرة وغان ووادى القرى  
ونجران ، التي كانت مذابحها السبب في امتعمار الحبشة للبلاد اليمنية ، وهكذا  
يمكننا القول بأن المسيحية نشرت الثقافة الهلينية والحشية في البلاد .

أظننا الآن نستطيع أن ننكر العزلة المدعاة إنكارا شديدا دون أن نخاف  
لوم أحد ، فهذه بلاد العرب حركة دائبة من داخل إليها وخارج منها ، داخل آت

(١) انظر تاج العروس ، مادة « حبش » ، وابن الأثير : السكامل ١ : ٤٣٨ ،  
٤٤٢ - ٢ : ١٢ ، ١٥٤ ، والأزرقي : أخبار مكة ١ : ٦٦ .  
(٢) بلاد العرب قبل الإسلام ١٨٨



بثقافات مختلفة ، وخارج يرجع بثقافات مختلفة ، حتى قيل <sup>(١)</sup> : « لم يصل إلى أحد خبر من أخبار العرب والعجم إلا من العرب ، وذلك لأن من سكن مكة أحاط بعلم العرب العاربة وأخبار أهل الكتاب ، وكانوا يدخلون البلاد للتجارات فيعرفون أخبار الناس ، وكذلك من سكن الشام خبر بأخبار الروم وبنى إسرائيل واليونان ، ومن وقع بالبحرين وعمان فعنهم أتت أخبار السند وفارس ، ومن سكن اليمن علم بأخبار الأمم جميعا ، لأنها كانت في ظل الملوك السيادة » . ولكن يجب أن نذكر أن معارفهم لم تكن دقيقة صحيحة ، وإنما نالها بعض الاضطراب والتشويه في أثناء قطعها القفار والأقطار إليهم .

#### الكتابة الخطية :

في هذه الأحوال ، والثقافات تصطرع في بلاد العرب ، عاش العربي تتنازع هذه القوى المختلفة . فن قوى فارسية تغزوه من الشرق ، إلى قوى بيزنطية تنفذ إليه من الشمال الغربي ، إلى أخرى حبشية تحت خطها إلى من الجنوب . ومن يهودية ، إلى مجوسية ، إلى وثنية ، كلها تحيط به ، وتوغل في بلاده ، وفي عقله ، وفي قلبه ، تاركة آثاراً ، قد تعمق وقد لا تعمق ، ولكنها آثار على كل حال .

وكان من هذه الآثار الكتابة أو الخط العربي . وقد ادعى كل من أنصار هذه القوى المختلفة أنه صاحب الفضل في ظهور هذا الحادث الجديد . فالأب لويس شيخو المسيحي يدعيه للمسيحية <sup>(٢)</sup> ، والأستاذ إسرائيل ولفنسون اليهودي ينسبها

---

(١) أحمد أمين : جغرافيا الإسلام ، ٣٣ .

(٢) لويس شيخو : النصرانية وآذانها بين عرب الجاهلية ٢ : ١٥٢



لليهودية ، <sup>(١)</sup> وعلماء آخرون غيرها يدعونه للحيرة <sup>(٢)</sup> أو لليمن <sup>(٣)</sup> . ولكن هذه الأقوال جميعها تجانب الحق ، وتحيد عن الطريق السوى . فالكتابة العربية ولا ريب وليدة الكتابة النبطية ، التي كانت تعيش في شمال الحجاز وجنوبي الشام ، في القرون الأولى من الميلاد ، تلك الكتابة المتفرعة من الخط الآرامي ، في القرن الأول قبل الميلاد على وجه التقريب . وقد أخذت هذه الكتابة تتطور تطوراً سريعاً ، وتأخذ مسحتها النبطية في الزوال ، وتصطبغ بالصبغة العربية ، في القرنين الثالث والرابع الميلاديين . وفي القرنين الخامس والسادس من الميلاد امتحت الكتابة النبطية ، وزالت تماماً ، ولكنها بعثت في صورة أخرى هي الكتابة العربية .

أما أقوال الكتاب العرب الأقدمين من أمثال الصولي وابن النديم وابن خلدون فلا تستحق العناية أو الجدل إذ لا تستند إلى دعامة قوية ، أو دليل واضح .

لهذا نقول : إن الخط العربي لم يؤخذ من الحيرة أو اليمن أو غيرها ، وإنما ولد ونشأ في بلاد العرب الشمالية « الحجاز » ، لأن الكتابة من الأشياء الضرورية للتجارة ، وأهل الحجاز — كما رأينا — قوام حياتهم التجارة ، وهي مورد رزقهم الأول . وقد رأينا بوضوح تحقق الصلة التجارية بين عرب الحجاز والنبط منذ ظهور هذه الدولة على حدود الشام حتى زوالها ، بل يظن بعض الباحثين أن

(١) إسرائيل ولفنسون : تاريخ اليهود في بلاد العرب ٢٠ ، البلاذري : فتوح البلدان ٤٧٣ .

(٢) ابن النديم : الفهرست ٦ ، والصولي : أدب الكتاب ٣٠ ، والنويري : نهاية الأرب ٧ : ٣ .

(٣) الفيروز أبادي : القاموس المحيط ، مادة « جزم » .



القبط بسطوا سلطانهم حقبة من الزمان على الحجاز ، ويستدلون على ذلك بآثارهم في الكتابة واللغة والدين<sup>(١)</sup>.

وكانت التجارة العامل الأول الذي أظهر الكتابة في بلاد العرب ، ولذلك نجدها منتشرة حيث توجد التجارة ، فهي تسير في رحال الإبل ، ولعل ذلك سبب رؤيتنا الكتابة العربية ظاهرة كل الظهور في المناطق التجارية ، إذ لم يكن التجار العرب مستطيعين الاستغناء عنها في معاملاتهم الداخلية أو الخارجية ، فالتاجر كان يجمع من أفراد المدينة الواحدة ما يكون به قافلة تجارية واحدة ، ترتحل إلى البلدان المختلفة للتجارة فيها<sup>(٢)</sup> . فهو إذن يحتاج لأن يعرف حصة كل من هؤلاء في القافلة وفي أرباحها ، وما كان ذلك ليتيسر له إلا بالكتابة ، وكذلك كان هؤلاء التجار محتاجين للكتابة في العقود وكتب الأمان بينهم وبين القبائل التي تمر تجارتهم بها سواء كانت هذه العقود تجارية فحسب ، أو تجارية وسياسية معا ، فقد عرف العرب الأمرين جميعا ، ولا يقتصر الأمر على هذه المعاملات والعهود الداخلية ، بل هناك العهود الخارجية التي تعقد بينهم وبين الرومان أو الفرس أو اليمنيين أو الحبشيين أو غيرهم جلب التجارة ، والسماح بالتجارة في تلك البلاد المختلفة . يظهر لنا ذلك في هذا الخبر الذي يرويهِ القائل في تولده تحت

(١) من شاء استقصاء هذا البحث فليرجع إلى كتاب « أصل الخط العربي » للامام خليل بن يحيى نامي الأستاذ المساعد بكلية الآداب .

(٢) انظر موقعة بدر في الجزء الثاني ص ٢٥٧ من سيرة ابن هشام ، يقول ضمضم بن عمرو القرظي وهو يستنفرها لحرب النبي : اللطيمة ، اللطيمة ! أموالكم مع أبي سفيان قد عرض لها محمد في أصحابه . . . » وانظر إسلام أبي العاص بن وائل في سيرة ابن هشام ٢ : ٣١٢ . والطبري ٣ : ٢٣٠٥ .



عنوان : « مطلب خروج بنى عبدمناف إلى الشام واليمن والحبشة وبلاد فارس ،  
لأخذ العهود من ملوكها ، وتأمين السبل لتجار قريش »<sup>(١)</sup>.

### الكتابة وشؤون السياسة :

لم يحتج العرب للكتابة في التجارة وحدها ، بل في السياسة أيضا ، فقد  
ذكر الباحثون أن مكة عرفت نوعا من الحكومة الجمهورية في أيامها الجاهلية<sup>(٢)</sup> ،  
وكان لهذه الجمهورية دار تتداول فيها الرأي في مشاكلها التجارية والسياسية

(١) ص ١٩٩ . قال : « كانت قريش تجاراً ، وكانت تجارتهم لاتعدو مكة ، إنما  
تقدم عليهم الأعاجم بالسلع فيشترونها منهم ثم يبيعونها بينهم ، ويدعونها على من حولهم  
من العرب . فكانوا كذلك حتى ركب هاشم بن عبدمناف إلى الشام . فنزل بقصر...  
قال له : أيها الملك ، إن قومي تجار العرب ، فإن رأيت أن تكتب لي كتابا تؤمن تجارتهم  
فيقدموا عليك بما يستطرف من أدم الحجاز وثيابه ، فتباع عندهم فهو أرخص لكم .  
فكتب له كتاب أمان لمن يقدم منهم ، فأقبل هاشم بذلك الكتاب فجعل كلما مر بحى  
من العرب بطريق الشام أخذ من أشرفهم إيلافا - والإيلاف : أن يأمنوا عندهم في  
أرضهم بغير حاف ، إنما هو أمان الطريق - وعلى أن قرشاً نحمل إليهم بضائع فكفونهم  
حملاتها ، ويؤدون إليهم ردوس أموالهم وربحهم ، فأصبح ذلك الإيلاف بينهم وبين أهل  
الشام حتى قدم مكة ، فأتاهم بأعظم شيء أتوا به بركة... وخرج المطلب بن عبدمناف إلى  
اليمن فأخذ من ملوكهم عهداً لمن تجر إليهم من قريش ، وأخذ الإيلاف كفعل هاشم...  
وخرج عبد شمس بن عبدمناف إلى الحبشة ، فأخذ إيلافا كفعل هاشم والمطلب...  
وخرج نوفل بن عبدمناف... فأخذ عهداً من كسرى لتجار قريش ، وإيلافاً ممن مر به  
من العرب... واتسعت قريش في التجارة في الجاهلية ، وكثرت أموالها . فبنو عبدمناف  
عظم قريش على قريش منة في الجاهلية والإسلام .

(٢) انظر الفصل الذي عقده أوليري عن مكة في كتاب ، « بلاد العرب قبل الإسلام » ،



والاجتماعية ، وتعقد فيها المعاهدات السياسية ، لدفع العدوان أو تأمين السبل أو تبادل المساعدات العسكرية ، وما إلى ذلك مما يكون بين دول اليوم ، وليس هذا بقول منكر ، فإن ذكر تلك المعاهدات والتحالفات شائع في الأدب العربي<sup>(١)</sup> ، وخاصة أيام العرب ووقائعها . وإنا لنذكر دون شك حلف الفضول ، وحلف قريش ضد بني هاشم بعد ظهور النبي ، وكتابتهم الصحيفة المشهورة ، وتعليقها في جوف الكعبة توكيدا على أنفسهم<sup>(٢)</sup> .

وكان لكل نوع من هذه المعاهدات اسم خاص به : فالمهاريق : نوع من الكتب يخص كتب الدين أو كتب اليهود والمواثيق والأمان<sup>(٣)</sup> ، والإيلاف : عهد الأمان بغير حلف ، إنما هو أمان الطريق<sup>(٤)</sup> .

بل لعل العرب عرفوا أنواعا أخرى من الكتابة غير هذه العهود التجارية والسياسية . فقد نقل بعض الرواة أن العرب كتبوا المعلقات على القبايطي بماء الذهب ، وعلقوها على جدران الكعبة .

وعند ما نبحث عن المواطن التي انتشرت فيها الكتابة ، لا نطيل البحث في المناطق المسيحية واليهودية ، فن الطبيعي أن تنتشر فيها الكتابة ، وذلك أمر ظاهر لا يحتاج إلى إثبات ، حتى لقد سمي العرب الأميين<sup>(٥)</sup> ، وسمى النصاري

(١) قال الحارث بن حلزة في معلقته :

واذكروا حلف ذي الحجاز وما قد م فيه اليهود والكفلاء

حذر الجور والتعدي وهل ينقض ما في المهاريق الأهواء

(٢) سيرة ابن هشام ١ : ٣٧٩ . (٣) الجاحظ : الحيوان ١ : ٧٠ .

(٤) القالي : النوادر ١٩٩ .

(٥) آل عمران ، الآية ٢٠ ، ٧٥ ، والجمعة ، الآية ٢ .



واليهود أهل الكتاب<sup>(١)</sup> وإذن كانت الكتابة موجودة في الحيرة وغان ونجران والمدينة ، وخاصة أن الحيرة وغان متصلتان أشد اتصال بالثقافات الخارجية ، التي لا شك أنها تدعو إلى تعلم الكتابة وانتشارها ، بل بلغ الأمر في الحيرة إلى حد إنشاء كتاب يتعلم فيه الصبية الكتابة<sup>(٢)</sup> . وقصة طرفة والمتلمس مع عمرو بن هند وما كتب لهما في الصحيفتين إلى عامله بالبحرين قصة مشهورة في تاريخ هذين الشعارين . ولكن الكتابة العربية كانت شائعة أيضا في مكة الوثنية ، وذلك بسبب التجارة ، حتى يقال إن مكة كانت تفوق المدينة في عدد الكتاب ، فقد جاء الإسلام وفي مكة سبعة عشر كتابا<sup>(٣)</sup> ، وفي المدينة أحد عشر<sup>(٤)</sup> ، مع أن المدينة موطن اليهود ، وكان يُظن أن أهلها أكثر معرفة بالكتابة لاتصالهم بهم ، وهم أهل كتاب . ولكننا لا نظن هذا التحديد إلا كتحديد الصنفين القدماء أن كذا من الموازين الصرفية لم يأت فيه إلا كذا كلمة ، فهم مغرمون بالإحصاءات التي قد يرفضها الواقع الذي تشهد به المعاجم ، وإن لم يتنبهوا لذلك . فإني أظن أن مكة خاصة كان بها أكثر من ذلك العدد من الكتاب ، وإن لم أستطع أن آتي في ذلك برأى قاطع أو إحصاء دقيق لقلّة المصادر . ولم يقتصر أمر ظهور الكتابة على هذه المواطن المتحضرة ، بل تسربت إلى البادية نفسها<sup>(٥)</sup> . فعرفها أكنم بن صيفي حكيم نعيم وخطيبها<sup>(٦)</sup> ، وابن أخيه حفظة بن الربيع<sup>(٧)</sup> كاتب النبي صلى الله عليه

- 
- (١) العنكبوت ، الآية ٤٦ ، والأحزاب ، الآية ٢٦ ، والحديد ، الآية ٢٩ ،  
والحشر ، الآية ٢ .  
(٢) أبو الفرج : الأغاني ٢ : ١٠١ .  
(٣) البلاذري : فتوح البلدان ٤٧١ . (٤) نفس المرجع ٤٧٣ .  
(٥) شوقي ضيف : الفن ومذاهبه في النثر العربي ٤ .  
(٦) الميداني : مجمع الأمثال ٢ : ٨٧ . (٧) الجهمشياري : الوزراء والكتاب ١٣ .



وسلم ، والمرقش الأكبر<sup>(١)</sup> ، ولبيد بن ربيعة<sup>(٢)</sup> . ولعل كثرة تشبيه الشعراء  
الأطلال الدارسة بالكتابة يدل على انتشارها ومعرفة بها . يقول الأخنس  
ابن شهاب التغلبي ، وهو شاعر جاهلي :

لَابِنَةُ حِطَّانَ بْنِ عَوْفٍ مَنَازِلَ كَارَقَشَ الْعُنُونِ فِي الرَّقِّ كَاتِبُ  
وَيَذْكُرُ مَعَاوِيَةَ بْنَ مَالِكٍ تَجْوِيدَ الْخَطِّ فَيَقُولُ<sup>(٣)</sup> :

فَإِنَّ لَهَا مَنَازِلَ خَاوِيَاتٍ عَلَى مَعْلَى وَقَفْتُ بِهَا الرُّكَا  
مِنَ الْأَجْزَاعِ أَسْفَلَ مِنْ مُنِيلٍ كَارَجَعْتَ بِالْقَلَمِ الْكِتَابَا  
كِتَابَ مُجَبَّرٍ هَاجِرٍ بِصِيرٍ يُنَمِّقُهُ وَحَازَرَ أَنْ يُعَابَا

وينسب الحارث بن حِلْزَةَ ، الذي كان يعيش في منطقة النفوذ الفارسي ،  
الصحف للفرس فيقول<sup>(٤)</sup> :

لَمَنِ الدِّيارُ عَفْوَنَ بِالْحُبْسِ آيَاتُهَا كَهَمَارِقِ الْفُرْسِ

وكانوا يكتبون على الحجارة البيض ، والعظام ، وفي عُسْبِ الفخار ، وفي الجلد  
والأديم ، يقول المرقش الأكبر<sup>(٥)</sup> :

الدَّارُ قَفَرٌ وَالرَّسْمُ كَأَنَّ رَقَشَ فِي ظَهْرِ الْأَدِيمِ قَلَمٌ  
ويقول لبيد<sup>(٦)</sup> :

عَفَتِ الدِّيارُ مَحَلَّهَا فَمَقَامُهَا بَيْنِي تَأَبَّدَ غَوْلُهَا فَوَجَامُهَا

(١) ابن قتيبة : الشعر والشعراء . ٣٠ . (٢) أبو الفرج : الأغاني ١٤ : ٩٣ .

(٣) المفضليات ١ : ١٥٧ . (٤) المفضليات ١ : ١٣٠ .

(٥) نفس المرجع ٢ : ٣٧ .

(٦) معلقة لبيد ، الوحي : الكتابة . والسلام : الحجارة البيض ، والعظام  
والزبر : الكتف .



فمدافعُ الرِّيانِ عُرِّيَ رَسْمُها      خَلَقًا كما ضَمِنَ الوُحْيُ سِيْلَها  
وجلا السيولُ عن الطلولِ كأنها      زُبُرٌ تُجِدُّ مُتَوْنِها أَقْلَها

ولم يكثر ذكر الكتابة في الشعر الجاهلي وحده ، بل جاء في القرآن أيضا ، فالقرآن يحث على تدوين الديون والمعاملات التجارية وغيرها ، مما يدل على أن الكتابة كانت شائعة عندهم ، يقول تعالى <sup>(١)</sup> : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَعْتُمْ بَدَيْنَ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ ، وَلْيَكْتُبَ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ ، وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ ، فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ » . وكذلك يذكر القرآن أدوات الكتابة ، مثل القلم واللوح والقرطاس والصحف ، فيقول جل شأنه <sup>(٢)</sup> : « ن ، وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ » ويقول <sup>(٣)</sup> : « وَالطُّورِ ، وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ ، فِي رِيقٍ مَّنْشُورٍ » . ولعلنا نشعر بتعظيم القرآن لهذه الأدوات في قسمه بها . ومما يدل على شيوع الكتابة أيضا دوران لفظ الكتابة في القرآن في المواضع المختلفة ، والمعاني المتنوعة التي تتفرع عن لفظ الكتابة بمعنى التدوين والتثبيت ، مثل قوله تعالى <sup>(٤)</sup> : « كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كَرْهٌ لَّكُمْ » . . . وقوله عز ذكره <sup>(٥)</sup> : « كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي . . . » وغير ذلك من الآيات التي توحى بانتشار الكتابة منذ زمن غير قليل .

هذه الكتابة التي عرفها العرب في جاهليتهم . ولكن ما يزال يهيجس بنفسى خاطر وهو يعاودنى كلما حاولت دفعه ويلج على ، ذلك أن بعض العرب الحجازيين عرف غير الكتابة العربية أنواعا أخرى من الكتابات ، أعنى أنهم ربما عرفوا الحِمْيَرِيَّةَ ، أو النبطية ، أو الفارسية ، أو الرومانية ، أو الحبشية . أما الحيرية

(١) البقرة ، الآية ٢٨٢ . (٢) القلم ، الآية ١ . (٣) الطور ، الآية ١ ، ٣ ، ٣ .

(٤) البقرة الآية ٢١٦ . (٥) المجادلة ، الآية ٢١ .



فُيَرَجَّحَ أَنَّهُمْ أَخَذُوهَا بِاتِّصَالِهَا بِالْيَمَنِ ، فَإِنَّهُمْ يَقُولُونَ : إِنَّ الْمَرْقُشَ الْأَكْبَرَ كَانَ يَعْرِفُهَا <sup>(١)</sup> . وَأَمَّا النَّبْطِيَّةُ فَلَا بَدَّ أَنَّهَا عَرَفُوهَا ، لِأَنَّهَا اشْتَقَقُوا كِتَابَتَهُمْ مِنْهَا <sup>(٢)</sup> . وَأَمَّا الْفَارْسِيَّةُ فَقَدْ عُرِفَتْ فِي الْخَيْرَةِ خَاصَّةً ، وَيُقَالُ إِنَّ «عَدِيَّ بْنَ زَيْدٍ» كَانَ مِنْ تَرَاجِمَةِ أَبِرُونِز... [و] أَنَّ أَبَاهُ ... كَانَ ... شَاعِرًا خَطِيئًا وَقَارًا كِتَابَ الْعَرَبِ وَالْفَرَسِ <sup>(٣)</sup> . وَأَمَّا الرُّومَانِيَّةُ ، فُيَرَجَّحُ أَنَّهَا كَانَتْ مَعْرُوفَةً لَدَى الْعَسَاسَةِ . وَأَمَّا الْحَبَشِيَّةُ فَيُظَنُّ أَنَّهَا كَانَتْ مَعْرُوفَةً فِي الْيَمَنِ . وَلَكِنِّي أَظُنُّ أَنَّ الْحِجَازِيِّينَ عَرَفُوا هَذِهِ الْكِتَابَاتِ عَنْ طَرِيقِ الْإِتِّجَارِ مَعَ أَهْلِهَا ، وَلَوْلَا ذَلِكَ مَا اسْتَطَاعُوا عَقْدَ الْعُهُودِ وَالْحَالَاتِ الَّتِي كَانَتْ بَيْنَهُمْ ، وَالَّتِي أَلْمَعْنَا إِلَيْهَا آنَفًا . بَلْ لَقَدْ أَمَرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَاتِبَهُ زَيْدَ بْنَ ثَابِتٍ بِتَعْلُمِ الْكِتَابَةِ الْعَبْرِيَّةِ وَالسَّرْيَانِيَّةِ ، <sup>(٤)</sup> وَقَدْ فَعَلَ ، كَمَا يُقَالُ إِنَّهُ تَعَلَّمَ الْفَارْسِيَّةَ وَالْحَبَشِيَّةَ <sup>(٥)</sup> . وَنَسْتَطِيعُ أَنْ نَرَى فِي هَذَا الْحَدِثِ إِيمَاءً أَوْ إِشَارَةً بِإِحْتِمَالِ وَقُوعِ أَمْثَالِهِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ ، الْقَرِيبَةِ مِنَ الْإِسْلَامِ عَلَى الْأَقْل . وَلَعَلَّ هَؤُلَاءِ الْمُتَأَلِّهِينَ وَالْمُتَحَفِّظِينَ مِنْ أَمْثَالِ وَرَقَةِ بْنِ نُوْفَلٍ وَأُمَيَّةِ بْنِ أَبِي الصَّلْتِ عَرَفُوا هَذِهِ الْكِتَابَاتِ ، مَا دَامَ يُقَالُ عَنْهُمْ إِنَّهُمْ قَرَأُوا فِي كُتُبِ النَّصَارَى وَالْيَهُودِ <sup>(٦)</sup> ، وَإِنْ كَانَ هَذَا لَا يَصِلُ إِلَى دَرَجَةِ الْيَقِينِ ، لِأَنَّهُمْ رُبَّمَا قَرَأُوا هَذِهِ الْكُتُبَ فِي اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ ، عَلَى الرَّغْمِ مِنْ عَدَمِ سَمَاعِنَا بِمِثْلِ هَذِهِ التَّرْجُمَاتِ .

(١) ابن قتيبة : الشعر والشعراء ٢٠ .

(٢) خليل يحيى نامى : أصل الخط العربى ١٠٤ .

(٣) تاريخ ابن خلدون ٢ : ٢٦٥ .

(٤) ابن عبد البر : الاستيعاب ١ : ١٩٤ ، وعبد الحى الكتانى : التراتيب

١ : ٢٠٣ ، ٢٠٤ .

(٥) ابن عبد ربه : العقد الفريد ٣ : ٦ .

(٦) سيرة ابن هشام ١ : ١٦٥ ، ٢٠٣ ، ٢٣٨ .



### الكتابة الفنية :

اضطررنا أن نقطع كل هذه الرحلة السابقة في بيداء الصحراء الجاهلية منقبين باحثين ، بسبب قلة النقوش العربية اللغة التي نعرفها ، وعدم وصول نصوص عربية مكتوبة إلينا ، كي نستطيع أن نجيب عن السؤال التالي : هل عرف العرب الكتابة الفنية ؟ وهل كانت هذه الأحوال التي درسناها تستلزم وجود هذا النوع من الكتابة ؟ أم تستلزم عدم وجودها ؟

أما القول ببداوة العرب وفطرية حياتهم ونفقلهم وعدم تحضرهم فقد أثبتنا بطلانه ، وأثبتنا أن العرب عرفوا حياة مستقرة متحضرة ، حياة فيها من الاستقرار والتحضر ما لا ينافي وجود كتابة فنية . وأعني بذلك أن حال العرب في العصر الجاهلي القريب من ظهور الإسلام لم تستلزم عدم وجود الكتابة الفنية . ولكن هل يعني هذا أنها تستلزم وجودها ؟ ذلك ما أشك فيه . فالعرب عرفوا الاستقرار والتحضر ، ولكنهم لم يصلوا في ذلك الاستقرار إلى الدرجة التي تستلزم ظهور الفنون التي تنشأ في الحضارات العريقة . إذن فعرب الشمال لم يبعد عهدهم بالحضارة أو لم يطل أمد الحضارة عليهم حتى يتمكنوا من إيجاد فنون تعتمد على تراث غني من الحضارة ، فلا نجد عندهم الرسم ولا النحت ولا ما شابههما من الفنون إلا بدرجة بدائية نستطيع أن نقض النظر عنها . وكذلك كان حال الكتابة الفنية ، إذ تباينت فيها الآراء ، واشتجرت العقول ، فن مؤيد لوجودها ، ومن نافي لظهورها ، ولكن الجميع — على الرغم من هذا الخلاف الكبير — يتفقون على عدم وصول أية كتابة فنية جاهلية حقيقية إلينا ، وعلى الشك في الرسائل القليلة التي تبلغ العشر أو فوقها بقليل ، ووصلت إلينا في الكتب المختلفة <sup>(١)</sup> . فنحن إذن أمام آراء نظرية

(١) جمع هذه الرسائل الأستاذ أحمد صفوت في صدر الجزء الأول من



لا تسندها مواد أو وثائق تذهب بنا إلى تأييد أحد الفريقين ورفض الآخر .  
لكن نظرنا في أحوال العرب في جاهليتهم أدى بنا إلى القول بأن ظروف حياتهم  
لم تكن تستلزم عدم وجودها ، فالحالة بين بين . ولا نستطيع أن نقول بوجود الكتابة  
الفنية اعتماداً على وجود القرآن ، كما قال بعض الدارسين ، لأننا من جهة أخرى  
إذا نظرنا إلى رسائل الرسول صلى الله عليه وسلم نجدها من البساطة والسهولة بحيث  
تجعلنا لا نحكم بوجود أطوار من الكتابة قبلها . فكيف إذن ننظر إلى القرآن  
ولا ننظر إلى كتابات النبي صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين .

وهكذا تظل الحالة مائعة ، لا نحكم بوجود كتابة فنية ، لأننا لم تصل إلينا أية  
وثائق منها ، كما لا نحكم بأن حياة العرب كانت تستلزم عدم وجودها ، ولكننا  
أشد ميلاً إلى رفض وجود هذا النوع من الكتابة في ذلك العصر ، وخاصة بعد  
دراستنا لكتابات النبي البسيطة . وسواء ملنا مع هؤلاء أو هؤلاء فإننا لن نستفيد  
من هذا الميل شيئاً ، فلن نعرف خصائص هذه الكتابة الفنية ، أو شيئاً عنها ،  
ما دام لم يصل إلينا شيء منها .



## الفصل الثاني

### صدر الإسلام

انبثق نور الإسلام على يد محمد النبي الأمي الذي لا يستطيع القراءة ولا الكتابة، وكان القرآن معجزته الكبرى يتنزل عليه آيات آيات في أغلب الأحيان ، واحتاج النبي إلى حفظه من الضياع ، ومن الطبيعي أن الطريق إلى حفظه هو التدوين . فاضطر النبي صلى الله عليه وسلم إلى اتخاذ الكتاب أول ما أمكنته الفرصة . ونحن عندما ننظر إلى أوائل المؤمنين بالإسلام نجد كثيرا منهم كتابا ، مثل الخلفاء الأربعة ، وطلحة بن عبيد الله ، والزبير بن العوام ، وسعد بن أبي وقاص ، وعامر بن فهيرة ، ومُعَيْقِب بن أبي فاطمة ، وحذيفة بن اليمان وغيرهم . وذلك أمر غير غريب ، فإن الكتاب أو الذين يحسنون الكتابة هم مثقفو العرب ولا تدهش إذا آتت بالدعوة الجديدة المثقفون من العرب ، وإنما تدهش لو حدث غير ذلك . وهكذا تبسّر الرسول صلى الله عليه وسلم أن يجد حوله جماعة من الكتاب يدونون له ما يملئهم عليهم من آي . واشتهر جماعة من الصحابة بكتابة الوحي ، على رأسهم عثمان بن عفان ، وعلي بن أبي طالب ، فإن غابا كتب أنس بن كعب ، وزيد بن ثابت<sup>(١)</sup> ، كما اشتهر بها أيضا معاوية بن أبي سفيان<sup>(٢)</sup> ، وكان يكتب له

(١) الجهمياري : الوزراء والكتاب ١٢ . ويقول ابن عبد البر : الاستيعاب

١ : ٢٦ « كان زيد أنرم الصحابة لكتابة الوحي » .

(٢) شرح الزرقاني على المواهب ٣ : ٣٢٢ .



أيضا عبد الله بن سعد بن أبي مَرْح ، ثم ارتد ولحق بالمشرّكين<sup>(١)</sup> ، فإن لم يشهد أحد هؤلاء الكتاب كتب غيرهم ، من أمثال جابر بن سعيد بن العاص ، وأبان ابن سعيد ، والعلاء بن الحُفَرمي ، وحَنْظَلَة بن الربيع<sup>(٢)</sup> .

وكان الكتاب السابقون يكتبون للنبي ، ولكن كان هناك من يكتبون لأنفسهم ، وقد وثق بهم فيما بعد زيد بن ثابت عند جمعه للقرآن ، في زمن أبي بكر الصديق ، إذ يقال إنه لم يكن يأخذ الآية من أحد إلا إذا كان معه شاهدان . وكانت الكتابة معتبرة أحد الشاهدين<sup>(٣)</sup> . ويذكرون في هذا الصدد اسم أبي خزيمة ابن ثابت على أنه كان لديه آخر سورة التوبة مكتوبا<sup>(٤)</sup> .

ونشأ عن هذا ظهور المصاحف المختلفة التي تُنسب لكثير من الصحابة فهذا مصحف علي ، وهذا مصحف أبي ، وذاك مصحف ابن مسعود ، وذلك مصحف سالم مولى أبي حذيفة ؛ وُجِدَت كل هذه المصاحف إلى جانب المصحف الرسمي الذي جمعه زيد بن ثابت بأمر أبي بكر من الصحابة المختلفين والمواقع المتعددة ، وكتبه في القراطيس . وظل هذا الأمر مختلفا متدبرا ، حتى اختلف معه القراء وتدابروا ، فقام عثمان بعمله الموفق ، ووجد كتابة القرآن في مصحفه الإمام ، وحرق المصاحف الأخرى<sup>(٥)</sup> .

تلك هي قصة كتابة الوحي نرويهها لا لأنها كتابة فنية ، ولكن لأنها مظهر من مظاهرها انتشار الخط بين العرب عند ظهور الإسلام ، ولأنها ظاهرة تبين لنا

(١) الجهم شيارى : الوزراء والكتاب ١٣ .

(٢) عبد الحى الكتانى : التراشيخ الإدارية ١ : ١١٥ .

(٣) السيوطى : الإتقان ٧ : ٥٨ .

(٤) نفس المرجع .

(٥) السيوطى : الإتقان ١ : ٥٩ .



حاجة النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين بعده إلى الكتابة والحث عليها . أما الوحي ذاته أو القرآن فلا شك أنه كتابة فنية ، ولكنه نوع من الكتابة فريد لا يتصل بما قبله من كتابة ، ولا بما بعده هكذا نظر إليه القدامى والمحدثون ، فالوليد بن المغيرة ، العربي الصميم ، يقول « ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجن <sup>(١)</sup> » . ويذهب البلاقون إلى أن نظم القرآن على تصرف وجوهه ، واختلاف مذاهبه ، خارج من المعبود من نظام جميع كلامهم [ كلام العرب ] ومباين للمألوف من ترتيب خطابهم ، وله أسلوب يختص به ، ويتميز في تصرفه من أساليب الكلام المعتاد <sup>(٢)</sup> . ويرى الدكتور طه حسين أن « القرآن ليس نثراً ، كما أنه ليس شعراً ؛ إنما هو قرآن ، ولا يمكن أن يسمى بغير هذا الاسم .. لأنه مقيد بقيود خاصة به ، لا توجد في غيره <sup>(٣)</sup> » . ولا يتصل القرآن بما قبله إذ رأينا أنه لم توجد هذه الكتابة الفنية الراقية التي تقارب القرآن ، بل لم نجد أمثلة تجعلنا نوقن بوجود كتابة فنية على الإطلاق . ولا يتصل بما بعده من كتابة فنية ، لأن المسلمين آمنوا بإعجازه وباللعنة التي تلاحق من يحاول تقليده . فظلوا يعجبون به ، ولكنهم بعيدون عن تقليده أو التأثر به ، فبقى وحيداً فريداً في بابه ونوعه . أضف إلى ذلك أنه تفرد له الأبحاث الخاصة ، ولذلك لن أتعرض له في رسالتي هذه .

### كتابة الحديث

هناك نوع آخر شبيه بهذا من الكتابة ، هو كتابة الحديث الشريف . فعلى الرغم من تخرُّج النبي صلى الله عليه وسلم من كتابته ، ونهيه عن ذلك ، كي لا يختلط

(١) تفسير الطبري والزحشرى لسورة المدثر ، وسورة ابن هشام ١ : ٢٨٩ .

(٢) الباقلافي : إعجاز القرآن ٥١ (٣) طه حسين : من حديث الشعر والنثر ٣٩ .



بالقرآن ويلتبس الأمر عليهم ، خاف بعضهم أن يضع ماسمه من أحاديث فدونها لنفسه . وشاهدنا على ذلك ما روى عن اليعنى الذى طلب من النبي صلى الله عليه وسلم أن يكتب له الحديث لذى سمعه <sup>(١)</sup> ، وما روى عن صحيفة عبد الله ابن عمرو بن العاص التى استأذن النبي فى كتابتها ، فأذن له النبي ، وكان يسميها الصادقة <sup>(٢)</sup> .

### الرسائل السياسية

أدت حاجة النبي صلى الله عليه وسلم إلى الكتاب - كما رأينا - إلى العناية بالكتابة وحث المسلمين عليها . وتكفى الإشارة إلى ما حدث لأسرى بدر من إطلاق سراح المعلم منهم إذا علم عشرة من صبيان المدينة القراءة والكتابة <sup>(٣)</sup> ، كما تكفينا الإشارة إلى المواضع المتعددة التى ذكر فيها القرآن الكتابة بالتعظيم ، وحث العرب على تدوين معاملاتهم كتابة حتى لا يكثر النزاع ، ويتضح وجه الحق . اجتمع كل هذا إلى حاجة المسلمين لقراءة القرآن فى صلواتهم وخلواتهم ، وإلى ما أحدثه الدين الجديد من حركة فكرية ، فجعل الكتابة أمراً ضرورياً لكل فرد يحس فى نفسه شيئاً من أمل ومن طموح . ولكن العامل الأكبر فى إظهار الكتابة وبها فى الأرجاء ، هو بزوغ الدولة العربية ، فما يحفى على أحد ما تستلزمه الدول من علاقات وروابط داخلية وخارجية ، لا يمكن التعبير عنها والاتفاق عليها إلا بالمراسلات . وهكذا كان إنشاء النبي صلى الله عليه وسلم للدولة العربية الإسلامية داعياً إلى إنشاء نظام من المراسلات الداخلية والخارجية أيضاً .

(١) صحيح البخارى ، باب كتابة العلم . (٢) ابن سعد : الطبقات الكبيرة الجزء الرابع من القسم الثانى من ٨ . (٣) أحمد أمين : فجر الإسلام ١٧١ .



وأحب أن أقول إنى لا أعنى بذلك أن الرسائل والمعاهدات لم تظهر إلا بعد تكون الدولة ، بل ظهرت فى أثناء تكونها ، وقبل تكونها أيضاً ، حتى إنهم يروون لنا أن الرسول صلى الله عليه وسلم اتخذ شرحبيل بن حسنة كاتباً فى مكة ، بل قالوا إن الدارين أتوا للرسول وهو فى مكة ، وطلبوا منه أن يقطعهم أرضاً بالشام إن فتحها الله عليه ، فأقطعهم بيت عینون وحبرون والمرطوم وبيت إبراهيم ، وكتب لهم بذلك كتاباً من خط شرحبيل . ولكننا نشك شكاً قوياً فى صحة هذه الرواية ، ولا نصدق إلا الإقطاع الثانى الذى تم فى السنة التاسعة بعد الهجرة ، وكتبه الإمام على بن أبى طالب بأمر من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، واحتفظ به الداريون وقتاً طويلاً<sup>(١)</sup> ، إذ لم تكن الجماعة الإسلامية فى مكة دولة من الدول ، لها كيان سياسى أو نظام إدارى ، ولم يكن الرسول قد بدأ يفكر فى غزو الأمم المجاورة للعرب ، حتى يقطع أرضاً بها .

أما الأمر الذى لانشك فيه فهو ظهور فكرة الدولة منذ بيعتى العقبة ، وماتلاهما من هجرة إلى المدينة . وكان من أول أعمال الرسول صلى الله عليه وسلم بها كتابته الذى نظم به التعاون بين المهاجرين والأنصار واليهود<sup>(٢)</sup> . وهو يعتبر المعاهدة الأولى فى الإسلام . وهكذا نرى الوثائق السياسية الإسلامية تبدأ بالمعاهدات . ثم تظهر الرسائل فى الإسلام بالرسالة التى كتبها النبي صلى الله عليه وسلم لعبيد الله بن جحش فى سرية المعروفة<sup>(٣)</sup> . وتوالى بعد ذلك المعاهدات والأحلاف بين الرسول والمشركون ، كما توالى الرسائل بينه وبين قواده وأمرائه ، وبينه وبين كبراء المشركون

(١) الحيدر أبادى : مجموعة الوثائق السياسية ٤٤ والسكتانى : الترتيب

الإدارية ١ : ١٤٣ .

(٢) سيرة ابن هشام ٢ : ١٤٧ . (٣) نفس المرجع ٢ : ٢٥٢ .



وبينه وبين ملوك الدول المجاورة ، فارس والروم ومصر والحبشة ، إلى أن لحق بالرفيق الأعلى .

### وثائق الرسول السياسية

تناول المستشرق الألماني اشبيرر<sup>(١)</sup> Sperber هذه الوثائق بالبحث ، وقسمها إلى أربعة أقسام تبعاً لتاريخها : ما قبل العام الخامس الهجري ، ومن العام السادس إلى فتح مكة سنة ٨ هـ ، ومن فتح مكة إلى غزوة تبوك سنة ٩ هـ ، وما بعد غزوة تبوك . وأفرد قسماً خاصاً بنفسه - غير هذه الأربعة - لرسائله صلى الله عليه وسلم إلى عرب الجنوب . وتناول هذه الوثائق بالبحث أيضاً الأستاذ أنيس المقدسى<sup>(٢)</sup> أستاذ الأدب العربي في جامعة بيروت الأمريكية ، وجعلها في ثلاثة أقسام . ورأى الرسائل في الدور الأول الذي يمتد منذ الهجرة إلى وقعة الخندق ، خلواً من التاريخ ، وكله سياسى يصبو إلى مخالفة القبائل ، وهى على حالها من الشرك ، للاستعانة بها على إضفاف قريش ، مثل حلفه مع نعيم بن مسعود<sup>(٣)</sup> ، وبني غفار<sup>(٤)</sup> ، وبني ضمرة<sup>(٥)</sup> . أما الدور الثانى الذى يشمل الفترة ما بين السنة الخامسة وفتح مكة ، فترى النبي صلى الله عليه وسلم أقوى مركزاً ، وأنفذ كلمة ، فلا يتجلى فى كتيبه ما كان يتجلى قبل من الميل إلى مخالفة المشركين ، بل أصبح يشترط الإسلام أو الجزية مثل رسالته لبني

(١) العدد ١٩ من مجلة Mitteilungen des Seminars für Orientalische Sprachen .

. Sprachen

(٢) أنيس المقدسى : تطور الأساليب النثرية ١١ .

(٣) الحيدر أبادى : مجموعة الوثائق ١٤٥ . (٤) نفس المرجع ١٤٤ .

(٥) أحمد صفوت : جمهرة رسائل العرب ١ : ٧٠ .



الجرمز<sup>(١)</sup>، ورسالته لابنى الجلمندى<sup>(٢)</sup>. وأخيراً الدور الثالث بعد غزوة تبوك، وقد بلغ الرسول أعلى درجات القوة، وأخذ يستغل مركزه الحربى والدينى، فصار لا يكتفى بقبول الإسلام أو الجزية، بل ذهب إلى أبعد من ذلك، ففرض الزكاة على القبائل الداخلة فى الإسلام، وبعث العمال والأمرء على الصدقات، ومنها كتبه إلى ملوك حمير<sup>(٣)</sup>، وإلى همدان<sup>(٤)</sup>، وإلى بنى كلب<sup>(٥)</sup>.

ولكن هذه الأقسام لاتعطينا كثيراً لأنها تنظر إلى الناحية التاريخية أكثر مما تنظر إلى الناحية الأدبية. نعم، ينبغى ألا ننسى ما للناحية التاريخية من أثر فى الناحية الأدبية، ولكن كان أثرها الأول فى شروط المعاهدات، لافى أسلوبها وصياغتها الفنية.

ومن حسن الحظ أن كثيراً من هذه الرسائل لا يزال باقياً إلى يومنا هذا، على خلاف الحال مع خطبه صلى الله عليه وسلم، إذ ضاع أكثرها، ولم يكد يصل إلينا إلا القليل النادر. ولكن هذه الرسائل لم يصل إلينا إلا أصل اثنتين أو ثلاث منها هى كتابه إلى المقوقس الذى وجده المستشرق الفرنسى بارتلمى فى كنيسة قرب إخميم<sup>(٦)</sup>، وكتاب به إلى المنذر بن ساوى الذى نشره المستشرق فلايش<sup>(٧)</sup>، وكتاب به إلى النجاشى الذى وجده المستشرق الإنجليزى دنلوب<sup>(٨)</sup>. ولذلك قد يشور بنا الشك فيها، أو فى لغتها. ولكن يجب أن نتنبه إلى أن العناية بهذه الوثائق قديمة

(١) الحيدرابادى : مجموعة الوثائق ١٤٤ .

(٢) أحمد صفوت : الجمهرة ١ : ٤٦ .

(٣) نفس المرجع ١ : ٥٣ . (٤) نفس المرجع ١ : ٥٦ .

(٥) نفس المرجع ١ : ٥٢ . (٦) الحيدرابادى : مجموعة الوثائق ١ .

(٧) نفس المرجع ١ . (٨) نفس المرجع ١ .



جداً . إذ كانت القبائل والأسر تحفظ كتبه صلى الله عليه وسلم إليها تبركا بها ، كما يروى عن الدارين <sup>(١)</sup> . وكذلك اهتم بها المؤلفون القدامى ، فنقرأ عن عناية عروة بن الزبير المتوفى عام ٩٤ هـ ، وعناية عبد الله بن أبي بكر بن عمرو بن حزم المتوفى حوالى عام ١٣٠ هـ <sup>(٢)</sup> . وقد عني بها من بعدهم من المؤرخين عناية شديدة ، كما نرى الحال عند الزهرى وابن إسحاق ، أضف إلى ذلك عناية المحدثين بها . كل هذا يجعلنا نطمئن إلى هذه الوثائق ، وخاصة إذا ما استبعدنا الوثائق التى تذكر أشياء لم توجد فى عهد النبي صلى الله عليه وسلم ، أو التى تختلف مع الوقائع التاريخية ، أو فيها فخر قبيلة على أخرى . ومع ذلك يسلم لنا بعد كل هذا كثير من الوثائق ، نطمئن إليها كل الاطمئنان أو معظمه ، مثل كتب الأمان أو العهود العادية ، التى قد يكون فى بعضها ما لا يوافق رغبات المسلمين كصلح الحديبية .

### خصائصها

تألف كتب الرسول صلى الله عليه وسلم من معاهدات وكتب أمان ، ورسائل ، وكتب قسمة للغنائم ، وإقطاعات . وتشترك كلها فى بعض الخصائص العامة ، كما يختص كل منها بخصائص لا توجد فى غيره .

فالمعاهدات تنفرد بنوع من الإسهاب الذى يتناول كثيراً من التفاصيل ، ولكنه لا يعم جميع المعاهدات ، وإنما يخص المهمة منها ، مثل معاهدته مع ثقيف <sup>(٣)</sup> ، ومعاهدته مع أهل نجران <sup>(٤)</sup> ، بالإضافة إلى معاهدة المدينة التى

(١) الكتانى : التراتيب الإدارية ١ : ١٤٣ .

(٢) هوروفتس : كتب المغازى الأولى ومؤلفوها ، ترجمة المؤلف ، ٣٧ .

(٣) الحيدرابادى : مجموعة الوثائق ١٥٩ .

(٤) أحمد صفوت : الجمهرة ١ : ٧٩ .



ذكرناها قبل<sup>(١)</sup> . وكذلك نجدها مقسمة إلى مواد شبيهة بمواد المعاهدات في وقتنا الحاضر . وتبدأ المعاهدات في الغالب بالبسملة<sup>(٢)</sup> ، إلا معاهدة الحديدية التي تبدأ بعبارة « باسمك اللهم » إرضاء لقريش<sup>(٣)</sup> . ثم يذكر في آخر المعاهدات الشهود والكتاب ، وقد لا يذكر<sup>(٤)</sup> . وما أقل ما يقتبس فيها من القرآن .

أما كتب الأمان فقصيرة موجزة ، بل قد تبلغ في القصر حداً لا تبلغه إلا الإقطاعات ، كما قد تطول في الفادر . وتتشابه كتب الأمان جميعاً على الرغم من اختلاف كتابتها ، بل نجد فيها بعض العبارات التي تسكد تتكرر على الدوام ، كأنها طابع لا بد أن تطبع به مثل قوله صلى الله عليه وسلم : « لا يُحَاقَقه فيها أحد »<sup>(٥)</sup> و « من حاقه فلا حق له ، وحقه حق »<sup>(٦)</sup> « وما بَلَّ بحر صوفة »<sup>(٧)</sup> وغيرها . وكان يبدوها أحياناً بالبسملة<sup>(٨)</sup> ، وأحياناً أخرى يتركها<sup>(٩)</sup> ، وأحياناً يبدوها بقوله : « هذا كتاب من محمد رسول الله إلى فلان »<sup>(١٠)</sup> ، ولها عدة صور أخرى أيضاً .

ولكن الرسائل لا تتمتع بهذا التشابه ، فيختلف بعضها عن بعض ، تبعاً لوقتها والمرسل إليه . وعلى الرغم من هذه الاختلافات يغلب عليها بعض الخصائص .

- 
- (١) سيرة ابن هشام ٢ : ١٤٧ . (٢) أحمد صفوت : الجمهرة ١ : ٢٥ .
  - (٣) الحيد رأبادى : مجموعة الوثائق ١٣ .
  - (٤) يذكر الشهود والكتاب في صلح الحديدية ، ولا يذكر أحد في معاهدة المدينة الأولى . (٥) الحيد رأبادى : مجموعة الوثائق ٧٣ ، ٧٤ ، ١٤٩ . حاقه : خاصمه وادعى أنه أولى بالحق منه . (٦) نفس المرجع ١٤٣ ، ١٤٥ .
  - (٧) نفس المرجع ١٣٠ ، ١٤١ . الصوفة : هنا الإسفنجة .
  - (٨) نفس المرجع ٢٢ ، ١١٨ ، ١٢٠ .
  - (٩) نفس المرجع ٧٣ ، ٧٤ ، ٧٥ ، ٧٨ .
  - (١٠) نفس المرجع ١٢٢ .



إذ تبدأ بالبسملة ثم « من محمد رسول الله إلى فلان <sup>(١)</sup> » أولا يأتي بالبسملة ويبدأ الرسالة باسمه مباشرة <sup>(٢)</sup> ، أو يقول « هذا كتاب من محمد رسول الله إلى فلان <sup>(٣)</sup> » أو « إلى فلان <sup>(٤)</sup> » مباشرة . وكان يأتي في صدور كتبه بالسلام فيقول للمسلم : « سلام عليك <sup>(٥)</sup> » وغير المسلم « السلام على من اتبع الهدى <sup>(٦)</sup> » وربما قال « سلام على من آمن <sup>(٧)</sup> » كما كان يبدأ كتبه إلى من يدعوهم إلى الإسلام بقوله : « سلم أنت أو أنتم <sup>(٨)</sup> » ، وربما أسقط السلام <sup>(٩)</sup> . وكان يأتي أيضا بالتحميد بعد السلام فيقول : « فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو <sup>(١٠)</sup> » وربما تركه <sup>(١١)</sup> . وقد يأتي بالتشهد <sup>(١٢)</sup> ، وقد لا يأتي به <sup>(١٣)</sup> . وكان يبدأ أحيانا بعبارة « أما بعد <sup>(١٤)</sup> » .

(١) الحيدر آبادي : مجموعة الوثائق ١٨ ، ٢٢ ، ٢٤ ، ٢٥ ، ٢٦ . وتروى قصة طويلة عن البسملة ، وكيف وصل الرسول إلى معرفتها ، فيقولون إنه كان يفتتح رسائله مثل العرب بقوله : « باسمك اللهم » فلما نزلت الآية « قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن » كتب « بسم الله الرحمن » ولما نزلت الآية « إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم » كتب بالبسملة كاملة ، انظر الجهشيارى : الوزراء والكتابات ص ١٤٠ . ولكنى لم أجد في كتبه التي وصلت إلينا ما يؤيد ذلك ، إذ ليس فيها هذه الأطوار ، وإنما البسملة كاملة أو محذوفة برمتها . كاملة أو محذوفة برمتها ، بدلا من هذه الأطوار الأولى ، مادامت هي الصورة الأخيرة التي ارتضاها النبي . ولم تذكر « باسمك اللهم » إلا في كتب المشركين من العرب ،

- وفي صلح الحديبية بأمر من قريش .  
 (٢) نفس المرجع ٢٦ ، ٣٠ ، ٣٢ .  
 (٣) نفس المرجع ٢٦ ، ٣٠ ، ٣٢ .  
 (٤) نفس المرجع ٣١ ، ٦٢ .  
 (٥) ٥٨ ، ٥٦ .  
 (٦) نفس المرجع ٢٦ ، ٢٩ ، ٤١ ، ٥٠ .  
 (٧) نفس المرجع ٣٢ .  
 (٨) نفس المرجع ٢٤ ، ٣٢ ، ٥٩ .  
 (٩) نفس المرجع ٣٠ ، ٤٠ .  
 (١٠) نفس المرجع ٢٤ ، ٣٢ ، ٥٦ .  
 (١١) نفس المرجع ٢٩ ، ٣٠ ، ٣٢ .  
 (١٢) نفس المرجع ٢٦ ، ٥٤ ، ٥٦ .  
 (١٣) نفس المرجع ٢٩ ، ٣٠ ، ٤٠ .  
 (١٤) نفس المرجع ٢٩ ، ٤٠ ، ٦١ ، ٦٢ .



أما كتب أمرائه إليه فتشبهه كتبه في بداياتها وخواتيمها وأسلوبها ، غير أنها عند ما تذكر اسمه صلى الله عليه وسلم تبدأ به فتقول : « لمحمد النبي رسول الله من فلان <sup>(١)</sup> » ويبدو أن كتب المشركين من العرب كانت تبدأ بعبارة « باسمك اللهم <sup>(٢)</sup> » ، أو تركها <sup>(٣)</sup> . وهى أيضاً شبيهة برسائله صلى الله عليه وسلم فى الأسلوب . وإذا قرأنا كتب الملوك الأعاجم إلى الرسول ، وجدناها تشبه كتبه فى خصائصها ولغتها ، ولكننا لا نعتمد على ذلك كثيراً ، فإنها - فى غالب الظن - مغيرة تغييراً كبيراً على يد الأدباء والمؤرخين المسلمين ، بل لعلها موضوعة لأن كثيراً منها لا يوافق الواقع التاريخي ، وبه نزعة إسلامية ظاهرة ، مثل كتب نجاشي الحبشة <sup>(٤)</sup> .

وإذا ما تركنا صدور الرسائل ونظرنا إلى أعجازها وجدناها أكثر اختلافاً . إذ ينتهى كل منها بحسب موضوعه ، ولكن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يعتمد بعض الخواتم أحياناً كالسلام مثلاً ، وله عدة صور : السلام العادى إذا كان المكتوب له مسلماً ، أو غير مسلم أحياناً <sup>(٥)</sup> ، وربما دعا له بعد السلام ، فيقول : « والسلام ورحمة الله ، يغفر الله لك <sup>(٦)</sup> » . فإذا كان غير مسلم قال فى السلام : « والسلام على من اتبع الهدى <sup>(٧)</sup> » أو « والسلام عليكم إن أطعتم <sup>(٨)</sup> » . وكان السكايب فى بعض الأحيان يدون اسمه فى خاتمة الرسالة ، فيقول : « وكتب فلان <sup>(٩)</sup> » .

(١) نفس المرجع ٧١ . (٢) نفس المرجع ٩ .

(٣) نفس المرجع ١٦ ، ٨ .

(٤) الحيدر أبادى : مجموعة الوثائق ص ٢٧ ، ٢٨ .

(٥) نفس المرجع ٥٢ ، ٥٩ ، ٦١ ، ٦٢ . (٦) نفس المرجع ٥٨ .

(٧) نفس المرجع ٢٤ ، ٣١ ، ٦٤ . (٨) نفس المرجع ٣٢ .

(٩) نفس المرجع ٦١ ، ٦٢ ، ٦٩ ، ١١٤ .



أما أسلوب هذه الرسائل فأسمى عادة من أسلوب الأنواع الأخرى من كتب الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولكن هذا السمو لا يخرج بها إلى مرتبة الصنعة ، وإنما إلى مرتبة فصاحة لغة الخطاب العادية . ويلاحظ في بعض الرسائل أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يضع نصب عينيه المكتوب إليهم ، فيكلمهم بما يقرب من لهجاتهم . ولعل هذا سبب كثرة الألفاظ الغريبة في رسالتيه لوائل بن حُجر الحضرمي<sup>(١)</sup> ولطهفة النّهدي<sup>(٢)</sup> مثلاً ، مما جعل بعض المُحدثين يشك فيها ، ويظن أنها من وضع بعض المتكلمين ، معتمداً في ذلك على الخبر القائل بأن ابن الأثير أهل ذات مرة نقل مكتوب منسوب للنبي صلى الله عليه وسلم وقال : « تركنا ذكره لأن رواته نقلوه بألفاظ غريبة وبدلوها وصحفوها »<sup>(٣)</sup> . ويمتاز بعض رسائله أيضاً بتتابع الجمل القصيرة دون عاطف أو بعاطف ، ولكنها غير متصلة المعاني ، ولا يربط بينها غير الجو العام ، وهو النصيحة الدينية . يتضح هذا تمام الوضوح في عهده صلى الله عليه وسلم لعمر بن حَزْم الأنصاري حين ولاه على اليمن<sup>(٤)</sup> . وتمتاز كتبه إلى الملوك الأعاجم ، وخاصة من أهل الكتاب ، بالافتقار من القرآن ، أو النظر إليه في مفرداتها ، بل قد تكون الرسالة كلها آيات قرآنية ، مثل كتابه صلى الله عليه وسلم إلى هرقل<sup>(٥)</sup> . وكان الرسول ذا نظر بعيد في رسائله ، فإذا ما أرسلها إلى مسيحي أكثر من الآيات النازلة في حق عيسى ، كرسالته إلى النجاشي<sup>(٦)</sup> ، وإذا

(١) نفس المرجع ١٢٨ .

(٢) نفس المرجع ٨٩ .

(٣) نفس المرجع بط .

(٤) نفس المرجع ١٠٤ .

(٥) نفس المرجع ص ٢٩ .

(٦) نفس المرجع ص ٢٥ ، ٢٦ .



ما أرسلها لأحد اليهود ربط بين نفسه وموسى عليه السلام ، مثل كتابه إلى  
يهود خيبر <sup>(١)</sup> .

وإذا ما تركنا الرسائل إلى كتب المقاسم والإعطاء <sup>(٢)</sup> ، نجد أننا انتقلنا  
نقلة كبيرة . إذ ليست هذه الكتب إلا إحصاءات ، لا يمكن للفن أن  
يتسرب إليها من طريق ، ولا تتعلق بالأدب بأى سبب ، ولذلك لا أتكلم عنها  
في هذا المقام .

#### الخصائص العامة

الآن وقد انتهى الكلام عن الخصائص التي يمتاز بها كل نوع من أنواع  
كتب الرسول ، لم يبق أمامنا إلا أن نعرف الخصائص العامة التي تصطبغ بها  
الكتب جميعاً . ولعل أوضح ميزة هي البساطة التي تنزل بها إلى مستوى لغة  
التخاطب الفصيحة لدى العرب في ذلك الزمن ، وإن وشاها في بعض الأحيان  
الجمال الطبيعي ، ولكنه لا يخرج بها عن مستوى لغة الحديث ، فما كانت  
تهدف إلا إلى إفهام المرسل إليهم مضمونها . تتضح هذه الميزة في قوله في معاهدة  
المدينة الأولى : « بسم الله الرحمن الرحيم : هذا كتاب من محمد النبي بين المؤمنين  
المسلمين من قريش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم ، إهم أمة واحدة  
من دون الناس ، المهاجرون من قريش على رباعتهم يتعاقلون بينهم ،  
وهم يفدون عانيهم بالمعروف والقسط بين المؤمنين ، وبنو عوف على  
رباعتهم يتعاقلون معاقلمهم الأولى ، وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط

(١) نفس المرجع ص ١٥ .

(٢) نفس المرجع ص ٦٧ ، ٢٢ .



بين المؤمنين ... الخ<sup>(١)</sup> .

والميزة الثانية : الإيجاز الذى يدلنا على أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يؤدى ما يريد من المعانى بأقل ما يمكنه من لفظ ، وهذا ما اعتاده العربى العادى فى حديثه ، نرى هذا فى جميع رسائله تقريراً .

والميزة الثالثة : التزام بعض التعابير الخاصة مثل : « ما كان أحد مكانه » و « ما بل بحر صوفة » أى على الدوام ، وبعض التعابير التى ذكرناها آنفاً . ومن ذلك أيضاً استعمال بعض العبارات الغريبة مثل قوله : « من أطلع أهل مقنا بخير<sup>(٢)</sup> » و « إن لهم سعاية فلان<sup>(٣)</sup> » و « الليل مد والنهار شد<sup>(٤)</sup> » .

والميزة الرابعة أننا نرى فيها التشبيه كثيراً ، والجاز ، والجمل التى تشبه الأمثال التى ذكرناها فى الميزة الثالثة . أما الاستعارة فقليلة ، لأنها تحتاج إلى بعض الصنعة الفنية . فنراه يقول فى رسالته لهوذة بن على : « واعلم أن ديني سيظهر إلى منتهى الخف والحافر<sup>(٥)</sup> » ويقول لابنى الجندى : « وخيلى تحل بساحتكما<sup>(٦)</sup> » أى تزيل ملككما وتستولى على بلادكما .

- (١) نفس المرجع ص ١ . رباعة الرجل : شأنه وحاله التى هو رابع عليها ، أى ثابت مقيم . ويقال : تركناهم على رباعتهم : أى على أمرهم الذى كانوا عليه . والتعاقل من عقل القليل ، أى إعطاء دية ، والتعاقل : جمع معقلة « بضم القاف » وهى الدية ومعنى يتعاقلون معاقلمهم الأولى : أى يكونون على ما كانوا عليه فى الجاهلية من أخذ الديات وإعطاءها ، أو على مراتب آبائهم ، وأصله من ذلك . والعانى : الأسير . والقسط : العدل . (٢) الحيد رأياى : مجموعة الوثائق ٣٩ ، ومعناها : من أسدى إليهم معروفًا ومقنا: موضع . (٣) نفس المرجع ٤٩ ، والمعنى : إن لهم صدقة وزكاة (٤) نفس المرجع ٢٢ ، والمعنى : يشهد العهد كل ليل ونهار قوة ، فلا ينقص منه شيء . (٥) نفس المرجع ٦٥ . (٦) أحمد صفوت : الجمهرة ١ . ٤٦٠ .



وأخيراً تخلو كتيبه صلى الله عليه وسلم من الصنعة والحسنات، ومن العمل والتروى، وإن وجد فيها أحياناً شيئاً من توازن العبارات أو الازدواج أو السجع، الذى لا يخرج عما تأتى به الفطرة السليمة والطبع القوى .

### كتاب الرسول

لعلنا الآن وقد انتهى بنا الحديث عن كتب النبى، فى حاجة لمعرفة كتابه صلى الله عليه وسلم . ونحن عند ما نحاول معرفة هؤلاء الكتاب، لا نجد الأمر بسهولة كما كنا نتوقع، إذ لم تصلنا جميع كتيبه صلى الله عليه وسلم، ولم يكن جميع الكتاب يضعون أسماءهم فيما كتبوه من رسائل . ولذلك نرى الأقوال تتضارب فى عدتهم وأسمائهم . فيذهب الحافظ ابن عساكر فى « تاريخ دمشق » إلى أنهم ثلاثة وعشرون، ولكنه يقرر فى « بهجة المحافل » أنهم خمسة وعشرون . ويوافق على هذا رأى ابن عبد البر فى « الاستيعاب » . ويقول القرطبى فى تفسيره إنهم ستة وعشرون . وهناك من يذهب بعيداً فيرى أنهم أربعون ( الشبراملى فى القضاء ) أو اثنان وأربعون ( أبو الوفا نصر المورينى فى مطالعه ) أو ثلاثة وأربعون ( البرهان الحلبي فى حواشى الشفا<sup>(١)</sup> ) . وذكر الجهشيارى بعضهم ولم يبين عدتهم . وقد حاولت أن أجمعهم، فعثرت بعد البحث على قريب من خمسة وأربعين كاتباً . ولا يخامرنى الشك أنهم ليسوا جميع من كتب للرسول، إذ لا بد أنه قد فاتتنا أسماء كثيرة فى الإحصاء، كما يرجح أن ذكر كثيرين منهم ضاع فيما ضاع من كتب . ولعل اختلاف المؤلفين فى عددهم يرجع إلى أن منهم من لم يواظب على الكتابة للنبى صلى الله عليه وسلم إلا مرات قليلة، فأهل بعضهم ذكره .

(١) السكتانى: التراتيب ١ : ١١٥ .



## تخصيص الكتاب

هل اختص كل واحد من هؤلاء الكتاب بنوع من الكتابة ؟

أشرت من قبل إلى الكتاب الذين اشتهروا بكتابة الوحي ، ولست في حاجة إلى تكرار الحديث عنهم . ويقال أيضا إن « خالد بن سعيد بن العاص ، ومعاوية ابن أبي سفيان [ كانا ] يكتبان بين يديه في حوائجه <sup>(١)</sup> » . وإنه « كان يكتب له للبوادي معاوية <sup>(٢)</sup> » وإن « المغيرة بن شعبه والحُصَيْن بن مُنَمِر [ كانا ] يكتبان ما بين الناس <sup>(٣)</sup> » أو « يكتبان في حوائجه <sup>(٤)</sup> » أو « المداينات والمعاملات <sup>(٥)</sup> » و « ينوبان عن خالد ومعاوية إذا لم يحضرا <sup>(٦)</sup> » وإن « عبد الله بن الأرقم بن عبد يَفُوث ، والعلاء بن عُبة [ كانا ] يكتبان بين القوم في قبائلهم ومياهم ، وفي دور الأنصار بين الرجال والنساء <sup>(٧)</sup> » وإنه « ربما كتب عبد الله بن الأرقم إلى الملوك <sup>(٨)</sup> » وإنه « كان حُذَيْفَةُ بن اليمان يكتب خَرُصَ ثَمَارِ الحجاز <sup>(٩)</sup> » وأن « زيد بن ثابت [ كان ] يكتب إلى الملوك مع ما كان يكتبه من الوحي <sup>(١٠)</sup> » وإن كاتب النبي « المواظب على الرسائل والأجوبة ، والذي كتب الوحي كله ، زيد ابن ثابت <sup>(١١)</sup> » وإنه كان كاتب سِرِّ النبي صلى الله عليه وسلم <sup>(١٢)</sup> ، وإن أبي بن

- 
- (١) الجهمشيارزي : الوزراء والكتاب ١٢ . (٢) الكتاني : التراتيب ١ : ١٢١ .  
 (٣) الجهمشيارزي : الوزراء والكتاب ١٢ . (٤) الكتاني : التراتيب ١ : ١٢٣ .  
 (٥) نفس المرجع ص ١٢٤ . (٦) ابن عبد ربه : العقد الفريد ٣ : ٥ .  
 (٧) الجهمشيارزي : الوزراء والكتاب ١٢ . (٨) ابن عبد ربه : العقد الفريد ٣ : ٦ .  
 (٩) نفس المرجع ٣ : ٦ . الخرص القدر . (١٠) الجهمشيارزي : الوزراء والكتاب ١٢ .  
 (١١) الكتاني : التراتيب ١ : ١١٧ . (١٢) نفس المرجع ١١٩ .



كعب وزيد بن ثابت « كانا يكتبان بين يديه صلى الله عليه وسلم ، ويكتبان كتبه للناس ، وما يُقَطَّع وغير ذلك <sup>(١)</sup> » وإن « مُعَيْقِب بن أبي فاطمة . . . كان يكتب مغائم رسول الله صلى الله عليه وسلم <sup>(٢)</sup> » وإنه « كان حَنْظَلَة بن الربيع . . . خليفة كل كاتب من كتاب النبي إذا غاب عن عمله ، فغلب عليه اسم الكاتب ، وكان يضع عنده خاتمه <sup>(٣)</sup> » ، وإن كاتبى اليهود هما على بن أبي طالب وعامر بن فُهَيْرَة <sup>(٤)</sup> ، وإن « الزبير بن العوام وجههم بن الصلت [ كانا ] يكتبان أموال الصدقات <sup>(٥)</sup> » وإن « شرحبيل بن حسنة [ كان ] يكتب التوقيعات إلى الملوك <sup>(٦)</sup> » .

حين ننظر إلى هذه الأقوال نجد الأقدمين — على الرغم من اختلافهم — شعروا بشيء من التخصص بين كتاب النبي . وذلك أمر غير غريب ، إذ أن كل امرئ لا بد أن تبرز ناحية من نواحيه على النواحي الأخرى ، فيخصص له ما يلائم هذه الناحية . وكذا الأمر مع هؤلاء الكتّاب . ولو أنعمنا النظر في الأقوال السابقة وأحببنا أن نخرج منها بأشياء واضحة ، ليس فيها ظلام الاختلاف ، لا مكنتنا ذلك بالنسبة لبعض الكتّاب . فحذيفة بن اليمان كاتب خَرَص الحجاز ، وزيد ابن ثابت كاتب الملوك ، فإن غاب ناب عنه عبد الله بن الأرقم ، ومُعَيْقِب بن أبي فاطمة كاتب المغائم ، ومعاوية بن أبي سفيان كاتب البوادي ، والزبير بن العوام وجههم بن الصلت كاتب أموال الصدقات ، وعلى بن أبي طالب كاتب المعاهدات ، فإن غاب كتبها عامر بن فُهَيْرَة أو غيره .

(١) نفس المرجع ١٢٠ .

(٢) الجهشيارى : الوزراء والكتاب ١٢ .

(٣) نفس المرجع ١٢ . (٤) الكتناني : التراتيب ١ : ١٢٣ .

(٥) نفس المرجع ١٢٤ . (٦) نفس المرجع ١٢٤ .



ويجب أن ننظر إلى هذا التخصص نظرة هيمنة لينة ، فهو ليس بالنظام الصارم الواجب اتباعه ، وإنما هو نظام يُحاول مراعاته ، فإن غاب أحد الكتب « أمر [ الرسول ] من حضر أن يكتب له <sup>(١)</sup> » . ونحن إذا حصرنا الرسائل الموقع عليها باسم كاتبها ، وحاولنا معرفة تخصص صاحبها نجحنا في تعيين بعض الكتب ، مثل على كاتب المعاهدات ، وأخفقنا في تعيين بعضهم الآخر . وآخر ما نقول إنه وجد نظام خفيف من التخصص ، ولكنه أهمل كثيراً لعدم مواظبة الكتاب على الحضور إلى مجالس الرسول صلى الله عليه وسلم ، إذ لم يكن الحضور فرضاً عليهم ، ولم يكونوا معينين كتاباً له صلى الله عليه وسلم .

وقد صنفنا الرسائل التي كتبها كتاب مختلفون في موضوع واحد ، رجاء أن أجد ما يدل على شخصية كل كاتب من المزايا الخاصة ، فتبين لي أن رسائل الأمان التي كتبها على بن أبي طالب ، والتي كتبها المغيرة بن شعبة ، والتي كتبها معاوية ، وغير هؤلاء من الكتب ، كلها متشابهة شبيهاً يكاد يكون تاماً . وكذا الأمر في أنواع الكتب والوثائق الأخرى . فشخصية الكاتب غير ظاهرة في هذه الرسائل . أما السبب فواضح ، فهذه الرسائل كلها من إملاء الرسول نفسه ، وهذا الإملاء أمر معروف غير محتاج إلى إثبات . والشئ الوحيد الذي أشار إليه المؤرخون هو أن عبد الله بن الأزرق كان يستقل أحياناً بكتابة بعض الرسائل ، بأمر النبي صلى الله عليه وسلم . وكان الرسول يميز ما كتب <sup>(٢)</sup> . وأظن أن الكاتب ، في مثل هذه الحالة ، كان يحتذى فيما يكتب على مثال رسائل النبي ، وكأنه يملئ عليه ، فتخرج رسالته على نمط رسائل الرسول . ولذلك غلبت هذه الصفات العامة على جميع الرسائل

(٢) السكتاني : التراتيب ١ : ١٢٠ .

(١) نفس المرجع ١٢٠ .



في عهد النبي . ومن الأسباب الأخرى لهذه الحالة ، أن الكتاب كانوا يكتبون دون روية وتفكير ، ودون محاولة للافتنان — إذا كانوا استقلوا بأنفسهم — وإنما قصارى غايتهم إيفهام المكتوب إليه ما يريدون من معان ، بأقرب طريق وأسهل أسلوب ، ولذلك تشابهت لهجاتهم في كتبهم . وإذا فحنحنا لا نستطيع أن نتبين شخصية خاصة أو أسلوباً معيناً ، لأحدهؤلاء الكتاب في مجموع كتب الرسول .

هذه هي حال الكتابة في عهد النبي صلى الله عليه وسلم ، فهل يمكننا أن نطلق عليها اسم الكتابة الفنية ؟ أعتقد من الواضح الذي لا شك فيه ، بعد كلامنا الطويل ، أننا لا يمكننا ذلك ، فإنها ليست إلا كتباً مرتجلة ، سريعة ، مملاة بلغة سهلة هي لغة الحديث ، لا يُوشىء شيء من عمل أو جمال ، غير فصاحة لغة الحديث عند العرب ، بل تهبط لغتها كثيراً عن لغة الخطابة التي كان لها تقاليد المرعية ، وقواعدها الأدبية ، منذ العصر الجاهلي ، ولم تكن تسمو إليها إلا في بعض الرسائل .

### ديوانه الرسائل

هل وجد ديوان للرسائل في عهد النبي ؟

إذا رجعنا إلى آراء الأقدمين في ذلك ، وجدنا القلقشندي يقول <sup>(١)</sup> : « اعلم أن هذا الديوان [ ديوان الرسائل ] أول ديوان وضع في الإسلام ، وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يكتب أمراءه وأصحاب سراياه من الصحابة ويكتبونه ، وكتب إلى من قرب من ملوك الأرض يدعوهم إلى الإسلام ، وبعث إليهم رسله بكتبه ... وهذه المکتوبات كلها متعلقة بديوان الإنشاء ، بخلاف ديوان الجيش ، فإن أول من وضعه ورتبه عمر بن الخطاب في خلافته » .

(١) القلقشندي : صبح الأعشى ١ : ٩١ .



ولكن هذا القول لا يعتمد على أساس قوى ، فلا تلازم بين ديوان الإنشاء وهذه الكتابات ، إذ قد توجد هذه ، ولا يوجد هذا الديوان الذى يتألف من كتاب مُتَرَوِّين مُحَسَّبِينَ متجملين ، متأنقين متفنيين . ولم يوجد فى عهد الرسول مثل هذا الصنف من الكتاب الذين يخلون بأنفسهم ، ويكتبون من عندهم ، وإنما وجد كتاب تُمَتَّلَى عليهم كتبهم ، فيكتبونها كما يلى الرسول . وقد بالغ القلقشندى فى هذا الادعاء ، مبالغته التى نراها فى ادعائه بأن ديوان الجيش والدواوين الأخرى وضعت فى عهد الرسول أيضاً ، ولكنها لم تكن فى شهرة ديوان الإنشاء <sup>(١)</sup> ، وخاصة أن من قبله لم يذكروا جود هذا الديوان فى العهد النبوى . ولذلك لا يمكننا تصديق هذا الخبر ، بل نقول إن هذا الديوان لم يوجد حتى فى عهد الخلفاء الراشدين أنفسهم . وكل ما يمكن قوله هو وجود الأساس الذى سَيُسَيِّدُ عليه فيما بعد ديوان الرسائل .

### عهد أبى بكر

لا يتغير الحال كثيراً حين نأخذ فى عرض تاريخ الكتابة فى عهد أبى بكر الصديق . فالكتاب هم الكتاب <sup>(٢)</sup> ، والكتب نفس الكتب ، والأسلوب هو بعينه أسلوب الكتابة فى عصر النبى . والأمر الجديد الذى نلاحظه هو اندلاع نيران الحروب فى أنحاء شبه الجزيرة بين المسلمين وللمرتدين أولاً ، ثم امتداد اللهب إلى الحدود الخارجية

(١) نفس المرجع ٩١ .

(٢) يقول الجهم شيارى : الوزراء والكتاب ١٥ : إن عثمان بن عفان وزيد بن ثابت وعبد الله بن الأرقم وحنظلة بن الربيع كتبوا لأبى بكر . وما أشك كثيراً فى أن الأحياء من كتاب النبى قد كتبوا أيضاً لأبى بكر ، أو تراسلوا معه فى الأحداث الإسلامية الجديدة .



وأراضى العراق والشام ، مما جعلهم يكتبون من الكتابة في شأن هذه الحروب من وصايا للقواد<sup>(١)</sup> ، ومعهادات<sup>(٢)</sup> ، ودعوات للإسلام<sup>(٣)</sup> ، وما إلى ذلك من الأمور التي تتصل بالحروب من قريب أو بعيد . وكما يبرز خالد بن الوليد قائداً ، كذلك يبرز كاتباً ، فنراه يكتب أغلب الكتب في عهد الصديق ، كما يؤخذ من مطالعة كتابي الوثائق السياسية وجمهرة الرسائل . ولا أعنى بذلك أن خالدا كتب جميع هذه الرسائل بيده ، بل كان له كتابه أيضاً ، إذ ذكروا أن حنظلة بن الربيع كتب له كتابين<sup>(٤)</sup> . وظهر أمر جديد آخر هو عهد الولاية ، أعنى بذلك عهد أبي بكر لعمر<sup>(٥)</sup> .

ولا نحتاج للإكثار من الكلام عن هذه الفترة ، إذ ينطبق عليها ما قيل عن فترة الرسول كل الانطباق ، وخاصة أنها لم تستغرق غير وقت قصير امتلأ بالأحداث التي شغلتهم عن كل جديد . وقد شعر بذلك الأقدمون حتى قال القلقشندي<sup>(٦)</sup> : « وكانت [ رسائل الصديق ] تفتتح بلفظ : من أبي بكر خليفة رسول الله<sup>(٧)</sup> صلى الله عليه وسلم إلى فلان ، وباقي الكتاب من نسبة كتب النبي صلى الله عليه وسلم ، من التصدير بالسلام ، والتحميد ، والتخلص بأما بعد ، والاختتام بالسلام ، وما يجري هذا المجرى » .

وهاك شاهداً من كتب أبي بكر إلى المشني<sup>(٨)</sup> بن حارثة :

- (١) أحمد صفوت : الجهرة ١ : ١١٧ ، ١٢٤ . (٢) نفس المرجع ١٢٠ ، ١٣٢ .  
 (٣) نفس المرجع ١٤٠ . (٤) الحيدر آبادي : مجموعة الوثائق السياسية ، الوثيقتان رقم ٢٢١ ، ٢٢٦ . (٥) أحمد صفوت : الجهرة ١ : ١٥٥ .  
 (٦) صبيح الأعشى ٦ : ٣٨٤ . (٧) كتب أبو بكر أيضاً : أمين رسول الله . انظر كتابه إلى الدارين في مجموعة الوثائق السياسية ٤٧ .  
 (٨) أحمد صفوت : الجهرة ١ : ١٣٠ .



« بسم الله الرحمن الرحيم

أما بعد،

فإن صاحبك العجلى كتب إلى يسألني أموراً، فكتبت إليه أمره بلزوم  
خالد حتى أرى رأيي. وهذا كتابي إليك، أمرك ألا تبرح العراق، حتى يخرج منه  
خالد بن الوليد. فإذا خرج خالد منه، فالزم مكانك الذي كنت به، فأنت أهل  
إسكل زيادة، وجدير بكل فضل.

والسلام عليك ورحمة الله،،،»

عمر

إذا ما قلبنا هذه الصفحة من كتاب التاريخ، ونظرنا إلى صفحة عمر بن الخطاب  
وجدنا الطريقة لم تكد تتغير، والإملاء لا يزال موجوداً<sup>(١)</sup>. ولما كنا على الرغم  
من هذا يجب أن نعطي الخبر التالي أهميته الجديرة به. يروي الجهمشباري<sup>(٢)</sup>  
بعض أخبار زياد بن أبيه، ثم يبين أن عمر بن الخطاب أراد اختباره ككاتب،  
فيقول: «ثم دعا [عمر] زياد فقال له: ينبغي أن تكتب إلى خليفتك بما  
يجب أن يعمل به. فكتب إليه كتاباً، ودفعه إلى عمر. فنظر فيه ثم قال: أعد.  
فكتب غيره. فقال له: أعد. فكتب الثالث. فقال عمر: لقد بلغ ما أردت  
في الأول، ولكنني ظننت أنه قد رَوَى فيه، ثم بلغ في الثاني ما أردت، فكرهت  
أن أعلمه ذلك، وأردت أن أضع منه، لئلا يدخله العجب فيهلك». فإنما عندما

(١) الجهمشباري: الوزراء والكتاب ١٩. (٢) نفس المرجع ١٦.



نتأمل في هذا الخبر نستطيع أن نرى فيه ما كانوا يطلبونه من السكاتب في ذلك العصر . فهل طلب عمر من زياد صحة كتابة ، وحسن خط ، أم طلب منه شيئاً آخر ؟ من الواضح أنه أعطاه وضوعاً وطلب منه أن يصوغه بأفكاره وألفاظه . وإذا فهم لم يكونوا يطلبون من السكاتب إصغاء للعمل ، وتدويناً لما يلقى فحسب ، بل كانوا يطلبون منه أيضاً أن يحسن الكتابة من عنده أيضاً . ولعل في هذا دليلاً واضحاً على أن السكاتب كان يطلب منه أحياناً أن يكتب بعض الرسائل بنفسه دون إملاء . وإذا هو مستطيع أن يتروى - كما خاف عمر - وأن يتأنق بعض التأنق الذي تسمح به طبيعة عصر عمر . ومن المؤسف حقاً ألا تروى لنا هذه الرسالة التي اتهمها عمر بالتروى ، حتى يمكننا أن نوازن بينها وبين الرسائل التي وصلتنا من هذا العصر . ولكن يغلب على الظن أنها لا تفترق عنها كثيراً ، إلا و ظهور طابع زياد الفصيح عليها .

وهذه الظاهرة لها أهميتها العظيمة ، فإننا إذا كنا قلنا عن عبد الله بن الأرقم إنه كان يحاكي كتب الرسول في رسائله التي كتبها منفرداً ، فإننا لاستطيع أن نقول ذلك عن زياد وعمر ، وإذا قلناه ، فإنه يكفيننا أن نلاحظ أن السكاتب بدأ يكتب بمفرده ، بل بدأ يتروى أيضاً في زمن مبكر جداً ، ألا وهو أوائل صدر الإسلام .

ولم يتغير الأسلوب الكتابي عما قبل ، يقول الفلقشندي<sup>(١)</sup> : « كن [عمر] يكتب في كتبه : من عمر بن الخطاب خليفة خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى فلان<sup>(٢)</sup> . »

(١) صبح الأعشى ٦ : ٣٨٦ .

(٢) لم أجد هذه العبارة فيما بين يدي من رسائل عمر .



فلما تلقب بأمر المؤمنين أثبت هذا اللقب في كتبه ، وزاد في ابتدائها لفظ «عبدالله» قبل اسمه ، ليكون اسمه نعتاً له ، فكان يكتب : « من عبد الله عمر بن الخطاب أمير المؤمنين إلى فلان <sup>(١)</sup> » . وباقي الكتاب على ما صر في كتب النبي صلى الله عليه وسلم والصديق . غير أننا نلاحظ في كثير من هذه الرسائل ظهور شخصية عمر أصدق ظهور . ولعل ذلك هو الذي يميز كتب عمر عن كتب النبي والصديق . فيظهر فيها شيء من الشدة التي اشتهر بها عمر ، والإكثار من أسلوب التحذير والإغراء ، يقول في كتابه لسعد بن أبي وقاص <sup>(٢)</sup> : « وإياكم والضحك : والوفاء الوفاء » ويقول في كتابه لأبي موسى الأشعري <sup>(٣)</sup> : « الفهم الفهم فيما يتكلم به في صدرك مما ليس فيه قرآن ولا سنة ... وإياك والقلق والضجر والتأذي بالخصوم » ، ويكثر أيضاً من الجمل القصيرة المنفصلة ، التي تدل على انفعال متدفق مطلق لا يكبحه زمام ، ونفس شديدة مندفة لا تخاف لومة لائم ، ويكثر أيضاً من الأوامر والنصائح ، فتمثل شخصيته كأنه يتكلم بنفسه ، فقارئ رسائله يتخيل أمامه . هذا إلى جانب شخصيته في الأفكار التي تجول في رسائله . ويتضح كل هذا تمام الوضوح في مراسلاته مع سعد بن أبي وقاص ، وفي رسالته المشهورة في القضاء إلى أبي موسى الأشعري <sup>(٤)</sup> .

ومما هو جدير بالذكر ظهور الدواوين في عهد عمر <sup>(٥)</sup> . إذ احتاج المسلمون عندما فتحت الأقطار ، وتدفقت الأموال ، إلى الكتبة والحسبة ، فأنشئوا الدواوين ، مثل ديوان الخراج ، وديوان الجند <sup>(٦)</sup> . أما ما يروى عن وجود هذه

(١) الحيد رأبادى : مجموعة الوثائق ٢٤١ ، ٢٤٥ ، ٢٥٤ ، وغيرها .

(٢) الحيد رأبادى : مجموعة الوثائق ٢٢٨ . (٣) نفس المرجع ٢٤١ .

(٤) نفس المرجع ٢٤٠ . (٥) ابن الأثير : الكامل ٣ : ٣٥ .

(٦) القلقشندي : صبح الأعشى ١ : ٩١ .



الدواوين في عهد الرسول فلا دليل عليه ، ولا يمكن أن نشق به (١) . ولكننا لن نعطي هذه الدواوين كثيراً من الأهمية لأنها مجرد إحصاءات وأرقام لا تتصل بالكتابة الفنية عن قرب أو بعد ، بل كان بعضها يكتب باللغات المحلية . فكان ديوان الخراج يكتب بالفارسية في فارس ، والرومية في الشام ، والقبطية واليونانية في مصر ، إلى أن عُرِّبت هذه الدواوين في العصر الأموي (٢) . أما أهمية هذه الدواوين فهي دلالتها على تقدم المصالح في الدولة ، وأخذ الحكومة في تخصيص فروع مختلفة للمسائل المتنوعة ، مما يدل على أخذ النظام الإداري في الاستقرار والنضج .

ويهمنا أن نلقت النظر أيضاً إلى تعدد الدواوين في الأمصار المختلفة في عهد عمر ، فديوان للخراج بالعراق ، وآخر بالشام ، وثالث بمصر . وليس الأمر مقصوراً على هذا الديوان ، بل نجد دواوين أخرى متعددة للجند ، إذ يذكرون أن أبا جبير ابن الضحاك كان على ديوان الكوفة (٣) ، وأن عبد الله بن خلف الخزازي كان على ديوان البصرة (٤) ، ويقصدون بذلك ديوان الجند ، كما سنرى . يضاف إلى ذلك ابتكار نظام البريد مما ييسر المراسلات .

ونلقت النظر أيضاً إلى ظاهرة أخرى هامة ، هي اتخاذ الولاة والأمراء للكتتاب الخاصين ، كما روى أن زياد بن أبيه كان كاتباً للمغيرة بن شعبة ، ثم لعبد الله بن عامر ابن كرز ، ثم لعبد الله بن عباس ، ثم لأبي موسى الأشعري (٥) ؛ وأن المغيرة بن

(١) نفس المرجع ٩١ .

(٢) حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسي ١ : ٣٤٧ .

(٣) الجهمشياري : الوزراء والكتاب ١٦ . وابن عبيد ربه : العقد

الفريد ٣ : ٧ .

(٤) ابن عبيد ربه : العقد الفريد ٣ : ٧ .

(٥) نفس المرجع ٩



شعبة كان كاتباً لأبي موسى الأشعري أيضاً ، وأن عبد الرحمن بن أبزي كان كاتباً لنافع بن الحارث وإلى مكة <sup>(١)</sup> .

وهذه الظواهر كلها هامة تدل على حركة داخلية في ميدان الكتابة ، إذ ستخلق طبقة خاصة من الكتاب ، ليسدوا حاجة هذه الدواوين المختلفة ، والأمراء الكثيرين . وهذه الطبقة الخاصة من الكتاب هي التي ستسير بالكتابة إلى مرحلة الفن .

### عهد عثمان

حين يتولى عثمان الخلافة نرى ظاهرة جديدة هامة أيضاً ، إذ يبعث للمنشورات إلى النواحي المختلفة من الدولة العربية يبين فيها سياسته الجديدة ، فكتاب لعالمه ، وآخر لأمراء الأجناد ، وثالث لعمال الخراج ، ورابع للعامة <sup>(٢)</sup> . ولا تختلف لغة هذه الكتب عن لغة الكتب السابقة في عهد الخلفاء الراشدين ، ولكنها تقرب من كتب عمر أكثر مما تقرب من كتب النبي والصديق ، فهي في العهد الأخير تسير نحو التروى والتجمل . بل نجد في كتب عثمان نوعاً من المجاز والعمل لا نجده عند من قبله . ويظهر هذا المجاز في الميل إلى التشخيص ، فهو يقول في رسالته إلى معاوية حين قام أبو ذر بدعوته في الشام : « إن الفتنة قد أخرجت خطمها وعينيها ، فلم يبق إلا أن ترتب ، فلا تنسكأ القرح <sup>(٣)</sup> » . ويقول لأهل الكوفة عند ما عزل عنهم سعيد بن العاص : « والله لأفرشتمكم عرضي <sup>(٤)</sup> » ، وغير ذلك كثير في كتبه . والخطوة الثانية إلى التجمل

(١) نفس المرجع ٩ . (٢) أحمد صفوت : الجمهرة ١ : ٢٨٩ — ٢٩٣ .

(٣) أحمد صفوت : الجمهرة ١ : ٢٩٦ . الحطيم : جمع خطام ، وهو الزمام .

(٤) نفس المرجع ٣٠٦ .



هي تحلية رسائله بالقرآن ، بل تكاد تكون رسالته التي بعثها مع ابن عباس ليقرأها في الحج قرآنا كلها <sup>(١)</sup> . والخطوة الثالثة تحلية رسائله بالشعر ، نرى ذلك في رسالته وهو محصور إلى علي <sup>(٢)</sup> ، وفي رسالة سروان بن الحكم إلى معاوية وَيَعْلَى بْنِ مُنِيَّةٍ يستصرخهما من أجله <sup>(٣)</sup> ، إذ قال في آخرها : « فَجِدَا فِي طَلَبِ مَا أُنْتَمَا وَلِيَّاهُ ، وعلى ذلك فليكن العمل إن شاء الله ، وكتب في نهايتها :

وما بلغتُ عُثْمَانَ حَتَّى تَحْمَطَتْ رِجَالُ وَدَانَتْ لِلصَّخَارِ رِجَالُ  
لَقَدْ رَجَعْتُ عَوْدًا عَلَى بَدْءِ كَوْنِهَا وَإِنْ لَمْ تَجِدَا فَلْمَصِيرِ زَوَالُ  
سَيُبْدِي مَكْنُونِ الضَّمَائِرِ قَوْلُهُمْ وَيُظْهِرُ مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فَعَالُ  
... الأبيات »

ولسكننا يجب ألا نلقى القول على عواهنه ، فنثبت هذه الظواهر ، ونترك الأمر يمر سهلا هينا ، بل يجب أن ننبه إلى أننا وصلنا إلى مرحلة مخوفة بالأخطار . فنذ قيام الفتنة كثرت المخترعات والمزجولات التي لم يستطع رجال الأدب والتاريخ تبين زيفها من صدقها حتى اليوم . ولذلك يجب أن نسير بحذر ، وألا نقبل كل ما روى لنا إلا بعد فحص وتميز ، وأن نثبت هذه الظواهر على أنها أمور ظنية لا يقينية ، خشية أن يكون بعض ماورد من النصوص في هذه المدة قد صنعه منتحلوه في زمن متأخر .

(٢) نفس المرجع ٣١٢ .

(١) نفس المرجع ٣١٥ .

(٣) نفس المرجع ٣٣٥ .



## عشر على

إذا كنا نشك بعض الشك في رسائل عثمان ، فإن الشك في رسائل علي يحيط بقا من جميع الأحاء . وقد نسب إلى علي ما يؤلف المجلدات من رسائل وخطب ، وما نستطيع أن نشبث له واحدة بيقيناً . وقد بلغ الأمر في تغيير هذه الرسائل إلى درجة أننا نرى الرسالة الواحدة في الطبري وفي نهج البلاغة ، ولاكنهما لا يمت بعضهما إلى بعض بصلة من شدة الخلاف . روى الطبري أن علياً حين خرج من الحجاز في إثر عائشة ، حتى نزل الرّبذة ، كتب إلى أهل الكوفة : « إني اخترتكم على الأمصار ، وفزيتُ إليكم لما حدث ، فكونوا لدين الله أعواناً وأنصاراً ، وأيدونا وانفضوا إلينا ، فالإصلاح ما نريد ، لتعود الأمة إخواناً ، ومن أحب ذلك وآثره ، فقد أحب الحق وآثره ، ومن أبغض ذلك فقد أبغض الحق وغمصه <sup>(١)</sup> » . وتروى هذه الرسالة في نهج البلاغة كما يلي : « من عبد الله على أمير المؤمنين إلى أهل الكوفة ، جبهة الأنصار ، وسنام العرب ،

أما بعد ، فإني أخبركم عن أمر عثمان حتى يكون ستمه كميانه ، إن الناس طعنوا عليه فكنت رجلاً من المهاجرين أكثر استمقابة ، وأقل عتابه ، وكان طلحة والزبير أهون سيرهما فيه الوجيف ، وأرفق حداثهما العنيف ، وكان من عائشة فيه فلتة غضب . فأنيح له قوم فقتلوه ، وبايعني الناس غير مستكرهين ولا مجبرين ، بل طائعين محبّرين .

واعلموا أن دار الهجرة قد قلعت بأهلها وأقلعوا بها ، وجاشت جيش المرّجل ،

(١) الطبري : تاريخ ١ : ٣١٤٠ . غمص : احتقر .



وقامت الفتنة على القطب ، فأُسْرِعُوا إلى أميركم ، وبادِرُوا جهادَ عدوكم ، إن شاء الله . فحَسْبِي بكم إخوانا ، وللدين أنصاراً ، فأنفروا خِفَافاً وثِقَلَا ، وجَاهِدُوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله لعلكم تفلحون<sup>(١)</sup> .

ولعلنا رأينا الرسالة الثانية تدور حول ما دارت عليه الرسالة الأولى ، وخاصة في عَجَزِهَا ، ولسكنها تزييد عليها في اعتذارها لعلی ، وإلقاء اللوم على طلحة والزبير وعائشة . ولعل هذا من وضع الشيعة ، أو كان في رسالة أو خطبة أخرى لعلی وألحقها الشريف الرضي بهذه الرسالة ، لأنه كان يهدف إلى جمع البليغ من كلام على وكفي ، يقول ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة معلقاً على إحدى رسائل على إلى معاوية : « إن هذه الخطبة — يريد الرسالة — قد ذكرها نصر بن مزاحم في كتاب صفين ، على وجه يقتضي أن ما ذكره الرضي — رحمه الله — منها قد ضُمَّ إليه بعض خطبة أخرى . وهذه عادته ، لأن غرضه التقاط الفصيح والبليغ من كلامه<sup>(٢)</sup> » .

ولا تقتصر هذه الروايات المتعددة على عهد على وحده ، بل وجدت أيضاً في عهد عمر ، وشاهدنا على ذلك الرسائل المتبادلة بين عمر وعمر بن العاص التي تذكرها جمهرة رسائل العرب فيما بين صفحتي ٢١٣ و ٢٢٨ من الجزء الأول . وتعرقل تلك الروايات المختلفة بحثنا عن خصائص الرسائل ، بل قد تؤدي بنا إلى الخطأ .

هذا إلى جانب الرسائل الكثيرة الموضوعة على هذا العهد من الأنصار

---

(١) الرضي : نهج البلاغة ٣ : ٢ ، وابن أبي الحديد : شرح النهج ٣ : ٢٩١ . الوجيف : العدو .

(٢) ابن أبي الحديد : نهج البلاغة ٣ : ٤١٢ -



والخصوم . ولذلك نرى أنفسنا ، حين نؤرخ للكتابة في عصر على ، سائر  
على أرض غير مطمئنة ، إذ لا نستطيع أن نقطع في الرسائل برأى جازم ، وإنما  
هي ظنون واحتمالات .

والأمر الأول الذي نلاحظه كثرة الرسائل كثرة ملحوظة ، وذلك راجع إلى  
النزاع بين على وخصومه ، طلحة والزبير وعائشة ، فعاوية وعمرو ، فالخوارج ،  
وأنصار كل من هؤلاء ، وإلى تأليب على عليهم ، وحته قواده إلى استنفار الناس  
لهم ، وإلى مقابلتهم له بمثل عمله . وهذا الأمر يذهب بكتابة الرسائل إلى  
الأمم خطوات .

ونلاحظ أيضاً أن الرسائل أخذت تطول ، ولا تقتصر على المسحة الدالة ،  
أو الإيماء الموجزة . وهذا أمر لم يكن معروفاً من قبل ، ولعل من أسبابه ذلك  
النقاش السياسي بين على وخصومه .

والأمر الثالث أنها تسير على خطا رسائل عثمان من استشهاد بالقرآن والشعر  
بل كانوا يذكرون القصيدة الكاملة في الرسالة الواحدة في بعض الأحيان ، كما  
نرى في كتاب عياض الثمالي إلى شرحبيل بن السمط الكندي <sup>(١)</sup> ، وفي بعض  
كتب معاوية إلى على <sup>(٢)</sup> ، وفي الكتب المتبادلة بين الوليد بن عقبة ومعاوية <sup>(٣)</sup>  
وغيرها . وهذا نوع من التجميل ولا شك يحسب عند بيان تطور الرسائل .  
ونرى في بعض الرسائل عملاً وصنعاً ، من تأنيق في اختيار الألفاظ والجل ،  
وسجع أحياناً ، وما إلى ذلك .

(١) أحمد صفوت : الجهرة ١ : ٣٩٤ . (٢) نفس المرجع ١ : ٣٩٨ .

(٣) نفس المرجع ١ : ٣٩٠ - ٣٩٣ .



وما نستطيع أن نثبتهُ هو أن هذه الرسائل أخذت تسير في سبيل الفصاحة الطبيعية ، بل بلغت الغاية في بعضها ، وإن لم يكن السكاتب قد استقل تماماً عن الإملاء<sup>(١)</sup> ، فما يزال الوليد بن عقبة يقول لمعاوية<sup>(٢)</sup> :

فَإِنْ كُنْتَ تَفْوِي أَنْ تُجِيبَ كِتَابَهُ فَمُحِّحَ مُمْلِيهِ وَقُحِّحَ كِتَابَهُ

### الخلاصة

وخلاصة القول أن كتابة الرسائل في عهد النبي والخلفاء الراشدين كانت ناشئة مبتدئة ، ليست لها تقاليد مرسومة أو قواعد محكمة . ولكن الرسول كان على ما يخطر على باله دون تَرَوٍّ أو نظر ، ولا يستوحى غير عقله وقلبه وما يريد من قصد . ولذلك كانت لغته بسيطة خالصة صريحة لا ترتفع في شيء عن لغة الحديث إذ تقصد اللغتان إلى مجرد الإفهام .

أما ما اتبعه من نُظُم في أوائل الرسائل وخواتيمها ، فإن هي إلا أمور اقتضتها الدعوة التي يبشر بها . فلما جاء خلفاؤه ساروا على منواله ، ولم يخلوا بنظمه ، وهنا نستطيع أن نقول إن هذه النظم أصبحت تقاليد مرعية . ولكن يجب أن ننظر إلى هذا الرأي نظرة سهلة غير متشددة ، إذ أن الخلفاء كانوا يتبعونها اتباعاً دينياً لأديبا ، فهم يعتبرونها سنة من الرسول . ولذلك نرى رسائل علي التي يرسلها إلى معاوية يدعوه فيها إلى الطاعة والانطواء تحت لوائه تشبه كتب الرسول إلى الملوك ورؤساء العرب شهما كبيراً . وإذن فهذه تقاليد دينية ، لا تقاليد أدبية ، يمكن أن نعتبرها تقاليد فنية . ولم تقطور لغة الرسائل كثيراً في هذه الفترة ،

(١) انظر وصية علي لكتابه في الوزراء والسكاتب ، ٢٣ .

(٥) احمد صفوت : الجمهرة ١ : ٣٩٢ .



إذا لا تزال تهدف إلى مجرد الإفهام ، وإن كنا نرى فيها بعض آثار تنبيه عن تفهيم الداخلى ، أو عن إحساسهم المبهم بالتجمل فى كتبهم . نرى ذلك فى الرسائل المتأخرة ، وخاصة عند عثمان ، وعلى . وعلى الرغم من شيوع نظام الإملاء فإن بعض الكتاب تحرروا من سيطرة المولى حتى فى عهد النبى ، وذلك أمر له أهميته فى الفن ، يفسح الطريق لإبراز شخصية الكاتب ، ولتجويده وتحبيره وتفننه .

وقد ظهرت عدة ظواهر تدل على أن كتابة الرسائل تعانى حركة داخلية وانفعالا عنيقا يشير إلى تطور هذه الكتابة وسيرها إلى الأمام . ومن هذه الظواهر شيوعها ، وكثرتها ، ووجود الدواوين ، وانتشار هذه الدواوين فى الأمصار المختلفة ، وظهور الكتاب الخاصين بالأمراء والولاة ، والإطناب بدل الإيجاز ، والتجمل بالاعتباس من القرآن والاستشهاد بالشعر ، والميل إلى التشخيص ، وما إلى ذلك من التجمل الطبيعى ، الذى لا يبلغ حد الصنعة . أما الرسائل التى نرى فيها هذه الصنعة ، مثل رسالة عمرو بن العاص فى وصف مصر فلا يمكن أن نطمئن إليها . وآخر القول إن هذه الكتابة لم تكن فنية بالمعنى المصطلح عليه ، ولكنها كانت تسير نحو الفن بخطا حثيثة .



## الفصل الثالث

### عهد الأمويين

بدأ الأمويون صفحة جديدة من التاريخ الإسلامي ، تغاير الصفحات السابقة كبير مغايرة . فقد قامت تلك الدولة على أسس دينوية تغاير أسس العهد السابق ، وأحسن قول نُعتت به أنها تمحوت من خلافة إلى ملكية وراثية ، تشبه ملكية فارس والروم ، كما قال كثير من العرب أنفسهم . ولعل من القول للمعاد أن نقول إن العرب اطلعوا على أقطار جديدة بالفتوح الإسلامية ، وإن لواء الأمويين أظل عناصر غير عربية الجنس ، ولكنها أخذت تتقبل دين العرب ، ولقنهم وأدبهم . ومن القول للمعاد أن نقول إن هذه العناصر المستعربة مخالفة للعرب في مزاجها ، وتفكيرها ، وثرائها . ومن القول للمعاد أن نقول إن هذا الاختلاط كانت له آثار في جميع نواحي الحياة العربية ، من اجتماعية وسياسية واقتصادية ودينية وثقافية وفنية ، وخاصة الناحية التي تهمننا وهي الأدبية . وكان من أوائل الآثار التي ترتبت على نشوء الدولة والاتصال بالأجانب ، ظهور ديوان الجند على يد عمر بن الخطاب . ثم تنالت الآثار بعد ذلك ، وخاصة في العصر الأموي الذي لم يعد يوجد فيه تخرج الصحابة والخلفاء ، وخوفهم من كل جديد لم يعرفه عصر الرسول . هذه الدولة التي ثبتت دعائمها في العهد الأموي ، والثالث عليها الأموال والغنائم من الأقطار المفتوحة ، لا بد أن تأخذ بما أخذت وتأخذ به غيرها من الدول ، من تحضر وتمدن ، وما يتبعهما من ترفه وتجميل . وهذا التحضر يتبعه تعقد في الحياة ، وتشابك في المصالح ، وحاجة إلى التفاهم والتواصل . وهذا مما يطور كتابة الرسائل وينميتها



وذلك ما حدث فعلا . فقد رأينا من قبل كتابة الرسائل يغلب عليها الإملاء من الخليفة ، والنسخ من الكتّاب . ولكننا لا نلبث في هذا العهد أن نرى الشواهد تترى دالة على انفراد الكتّاب بنفسه ، وكتابتة الرسائل دون إملاء .

يقول الجهمشياري <sup>(١)</sup> : « وذكُر أن زياداً دخل يوما ديوانه ، فوجد فيه كتابا ، وفيه : ثلاثة دنان . فقال : من كتب هذا ؟ فقيل : هذا الفتى . فقال آخر جوه من ديواننا لئلا يفسده ، وأُمح هذا واكتب : آدُن . فهذا الخبر يدل على أن الكتّاب كان يكتب بنفسه ، ولولا ذلك ما استفسر عنه زياد ، وما كتب هذا اللفظ الذي لم يرض عنه زياد .

وكذلك يروى الجهمشياري خبراً <sup>(٢)</sup> عن يزيد بن معاوية الذي اضطرب حين سمع بخروج الحسين إلى العراق ، وأراد أن يوليه رجلا يستطيع أن يكفيه . فأشار عليه سرجون الكتّاب بتولية عبيد الله بن زياد ، فكره ذلك يزيد . فأخرج له سرجون عهداً من معاوية لعبيد الله بولاية السكوة ، كان كتبه معاوية قبل أن يموت . فرضى يزيد بهذا العهد ، وأنفذه إلى عبد الله . يقول الجهمشياري : « فقال [ يزيد ] له [ لسرجون ] : فَأَنْفِذْهُ إِلَيْهِ » . ثم يستمر الجهمشياري في رواية الخبر فيقول : « وكتب معه عن يزيد إليه : أما بعد ، فإن المأمُوح مَسْبُوبٌ يوما ما . . . » وحين نتأمل في العبارة السابقة « وكتب معه عن يزيد إليه » قد نحار في معناها : مَنْ الذي كتب ؟ وكتب مع مَنْ ؟ وإلى مَنْ ؟ واعتقد أن الكتّاب هو سرجون ، وأنه كتب مع العهد الذي من معاوية ، وأنه إلى عبيد الله ، أي أن سرجون أرسل إلى عبيد الله بن زياد عهد معاوية ، ومعه رسالة كتبها بنفسه نيابة

(٢) نفس المرجع ٣١ .

(١) الوزراء والكتّاب ٢٥ .



عن يزيد ، ولو أراد أن سرجون « كتب مع يزيد الكتاب » اقال : وكتب مع يزيد إليه . وعلى هذا التفسير نرى العبارة تصرح بأن سرجون كتب « عن يزيد » ، وهذا تصریح لا غموض فيه بأن الكتاب كتب بنفسه على لسان الخليفة . وهذا أمر كبير الأهمية ولا شك ، إذ فيه دلالة واضحة على أن شخصية الكاتب بدأت تظهر وتنفرد في رسائلهم ، كما قلنا في الكلام عن عهد عمر . وإذن كان الكاتب حراً في بعض الأحيان ، وخاصة حين يثق به الخليفة ، فكان يكتب دون إملاء . ويسر له هذا التروى والتجوير . ولكننا قبل أن نترك هذا الشاهد يجب أن نلاحظ عليه أنه بليغ ، فيه عمل وصنعة ، وتحسين وتجميل ، فيه ما لا أظن أن سرجون بن منصور الرومي الذي كان يتقلد ديوان خراج الشام بالرومية <sup>(١)</sup> ، يستطيعه أو يبلغه من العربية ، في ذلك العهد المبكر . وإذن فهذه الرسالة أظنها موضوعة على سرجون ، ولا يمنعنا ذلك من تصديق الخبر ، أو على الأقل الشعور بأن القدماء كانوا يعتقدون بأن الكتاب كانوا أحراراً في كتابتهم أحياناً .

وهاك شاهداً ثالثاً على انفراد الكاتب برسائله . روى الجهشيارى : <sup>(٢)</sup> « أن كاتباً كان لمصعب بن الزبير كتب : « من المصعب » ، فقال مصعب : ما هاتان الزائدتان ؟ يعني الألف واللام » . فهذا التعريف الذي أدخله الكاتب على اسم مصعب ، بغير رضى الأخير ، يدل على أن مصعباً لم يكن يمليه ، وإلا أملاه بدون الزائدتين .

وشاهدنا الرابع على تخلص الكاتب من الإملاء رسالة عبد الرحمن بن الأشعث

---

(١) الجهشيارى : الوزراء والكتاب ٤٠ . (٢) نفس المرجع ٤٦ .



إلى الحجاج التي يصرحون بأن ابن القُرَيْبَةَ كتبها له عنه (١) . يقول الدينوري :  
« فقال له [ لابن القرية ] عبدُ الرحمن [ بن محمد بن الأشعث ] : إني أريد أن  
أكتب إلى الحجاج كتاباً مُسَجَّعاً أعرفه فيه سوء فعاله ، وأبصره قبح سريره » .  
وهناك شواهد أخرى لاداعي للإطالة في ذكرها (٢) .

ولكن يجب أن نقول إن كل هذا لا يدل على اختفاء الإملاء اختفاء تاماً ،  
بل لازال موجوداً ، وإن يزال كذلك حتى في العصر العباسي ، وخاصة حين يستقز  
الخليفة فيرى أن يجيب بنفسه (٣) .

ويتطور الأمر في أواخر العصر الأموي حتى نرى قبيصة بن ذؤيب يفحص  
الكتب الواردة على عبد الملك بن مروان ، ويقرؤها قبل عرضها على الخليفة .  
يقول الجهمشيري (٤) : « وكان يكتب لعبد الملك قبيصة بن ذؤيب بن حنحلة بن  
عمرو الخزاعي ، ويكنى أبا إسحاق . وكان خاصاً به ، وبلغ من لطافة محله منه أن  
كان يقرأ الكتب الواردة على عبد الملك قبل أن يقرأها عبد الملك » . ثم يروي  
قصة تؤيد ذلك القول . ويُعد ذلك خطوة هامة في تاريخ تطور كتابة الرسائل ،  
والعلاقة بين الكتاب والخلفاء .

---

(١) الدينوري : الأخبار الطوال ٣٣٣ . وابن قتيبة : الإمامة والسياسة ٢ : ٢٩٦ .  
وأحمد صفوت : الجمهرة ٢ : ٢١٩ . (٢) الجهمشيري : الوزراء والكتاب ٦٢ .  
(٣) الجهمشيري : الوزراء ٥٥ : ٦٩ . وأحمد صفوت : الجمهرة ٢ : ٢٥٣ .  
وابن عبد ربه : العقد الفريد ٣ : ٨ .  
(٤) الجهمشيري : الوزراء والكتاب ٢٤ .



## ديوان الرسائل :

والمسألة التي أمامنا هي متى ظهر ديوان الرسائل ؟ لا نجد تصريحاً في شتى المراجع التي لدينا عن تاريخ إنشاء هذا الديوان ، فيما عدا ذلك القول في صبح الأعشى للقلقشندي ، وقد رفضناه من قبل .

وإذا ما قلبنا صفحات «الوزراء والكتّاب» ، وطالعنا أسماء كتّاب الرسول والخلفاء الراشدين من بعده ، وجدناه يقول عن الواحد منهم : « كان فلان يكتب كذا <sup>(١)</sup> » أو « يكتب له <sup>(٢)</sup> » أو « كان يكتب لفلان فلان <sup>(٣)</sup> » أو « فلان كتب له <sup>(٤)</sup> » أو « استكتب فلان فلان <sup>(٥)</sup> » . ونستمر نرى هذه العبارات وحدها طوال أيام الخلفاء الراشدين ، غير أننا نراه يقول عن أبي جيميرة بن الضحاك [ في عهد عمر ] : « وكتب له على ديوان الكوفة <sup>(٦)</sup> » وهكذا يصفه بأنه « على الديوان » فأى ديوان نراه يقصد ، ديوان الجند ، أو الخراج ، أو الرسائل ، أو غيرها ؟ إذا استمررنا في تصفح نفس الكتاب نراه يعطينا الجواب ، إذ يقول عن بعض الخلفاء : « ويكتب له على الديوان سرجون بن منصور النصراني <sup>(٧)</sup> » . والمعروف أن سرجون كان على ديوان الخراج <sup>(٨)</sup> تولاه لعبد الملك بن مروان ولمن تقدمه من الخلفاء <sup>(٩)</sup> . فنستطيع من هذا أن نرجح أن كلمة « الديوان »

(١) نفس المرجع ١٢ ، ١٣ . (٢) نفس المرجع ١٣ ، ٢١ ، ٢٣ .

(٣) نفس المرجع ١٥ ، ١٦ ، ٢١ ، ٢٣ . (٤) نفس المرجع ١٥ ، ١٦ .

(٥) نفس المرجع ١٧ . (٦) الجهمشياري : الوزراء والكتّاب ١٦ .

(٧) نفس المرجع ٣٢ ، ٣٣ . (٨) نفس المرجع ٣١ .

(٩) نفس المرجع ٤٠ .



المطلقة عند الجهمشياري تعني ديوان الخراج . ولكننا نعرف أن هذا الديوان كان يكتب بالفارسية في العراق ، وبالرومية في الشام ، وباليونانية والقبطية في مصر . يقول الجهمشياري <sup>(١)</sup> : « ولم يزل بالكوفة والبصرة ديوانان ، أحدهما بالعربية لإحصاء الناس وأعطياتهم ، وهذا الذي كان عمر قد رسمه ، والآخر لوجوه الأموال بالفارسية . وكان بالشام مثل ذلك ، أحدهما بالرومية والآخر بالعربية » . ومن الطبيعي أن العرب لم يكونوا هم الذين يتولون هذا الديوان الفارسي أو الرومي ، ديوان الخراج أو ديوان وجوه الأموال ، كما يقول الجهمشياري ، وإنما كان يتولاه الموالى الفرس والروم . وإذن لم يكن أبو جَبيْرة بن الضحاك على ديوان الخراج ، بل على الديوان الآخر العربي ، ديوان إحصاء الناس وأعطياتهم ، وذلك هو ديوان الجند أو العطاء . يؤيد ذلك أن ديوان الخراج يُشك في وجوده في عهد عمر ، وأن الجهمشياري وصف عبد الملك بن مروان بأنه كان « يكتب له [ لعثمان ] على ديوان المدينة » <sup>(٢)</sup> . والمدينة لم يكن بها ذلك الديوان الذي يقصد منه تدوين ما يؤخذ من الأراضي المفتوحة من الجزية والخراج ، وإنما كان بها بدلا عنه بيت المال ، وبها أيضاً ديوان العطاء . ويقطع بذلك تفريق الجهمشياري بين الديوانين . حين ذكر إن علي بن أبي طالب استعمل زياد بن أبيه على « الخراج والديوان » <sup>(٣)</sup> . وإذن عندما يطلق الجهمشياري كلمة « الديوان » يعني بها ديوان الجند أحيانا ، وديوان الخراج أحيانا أخرى . ونرى من هذا أن أبا جَبيْرة بن الضحاك كان على ديوان العطاء ، وأن ديوان الرسائل لم يرد ذكره طول عهد الصدر الأول من الإسلام . وما يكاد يهل العصر الأموي حتى نرى عبارة جديدة تظهر عند الجهمشياري ، وهي وصفه عبيد الله بن أوس بأنه « كان يكتب لمساوية على الرسائل » <sup>(٤)</sup> ،

(١) نفس المرجع ٣٨ . (٢) نفس المرجع ٣١ .

(٣) الجهمشياري : الوزراء والكتاب ص ٢٣ . (٤) نفس المرجع ٢٤ .



ويقول أيضاً عن زياد بن أبيه « ويكتب له على الرسائل عبد الله بن أبي بكره وجبير بن حية<sup>(١)</sup> ». فما معنى هذه العبارة الجديدة ؟ هل تفيد أن الكاتب تخصص بكتابة الرسائل فحسب ؟ ما أظن ذلك ، لأن كثيراً من الكتاب السابقين كانوا كذلك ، فلم يطلق عليهم هذا اللفظ . وإذن فما معناه ؟ هل تفيد أن الكاتب كان يكتب معاوية أو لزياد على « ديوان » الرسائل ؟ هذا ما أرجحه ، أرجح أن معاوية أنشأ ديوان الرسائل فيما أنشأ من دواوين<sup>(٢)</sup> . ومما يؤيد ذلك أن هذه العبارة ظلت تستعمل بعد إنشاء ديوان الرسائل بزمان ، إذ أطلقها الجهمشيارى في عهد عبد الملك بن مروان على عبد الله بن أبي قرة ، كاتب مصعب ابن الزبير<sup>(٣)</sup> ، وعلى يحيى بن يعمر كاتب يزيد بن المهلب<sup>(٤)</sup> ، وأطلقها في عهد هشام بن عبد الملك على رُشد بن كاتب يوسف بن عمر وإلى العراق<sup>(٥)</sup> ، على الرغم من إيقاننا بوجود ديوان الرسائل قبل ذلك العهد كما سيتضح فيما بعد . وقد ظلوا يستعملون أيضاً عبارة « وكان يكتب لفلان » بعد إنشاء ديوان الرسائل<sup>(٦)</sup> . ويؤيد ذلك أيضاً أن لفظ « على » يرتبط عند الجهمشيارى في أغلب الأحيان بلفظ « ديوان » .

ثم يصرح الجهمشيارى بوجود الديوان تصريحاً لا غموض فيه في عهد عبد الملك ابن مروان ، إذ يقول : « وكان يكتب لعبد الملك على ديوان الرسائل أبو الزعينة مولاة<sup>(٧)</sup> » ، ويصرح أيضاً بأن سليمان بن سعد الخشي كان ينقلد لعبد الملك

(١) نفس المرجع ٢٦ . (٢) حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسي

١ : ٥٣٠ . والدكتور شوقي ضيف : الفن ومذاهبه في الفتر العربي ٣٤ .

(٣) الجهمشيارى : الوزراء والكتاب ٤٤ . (٤) نفس المرجع ٤١ .

(٥) نفس المرجع ٦٤ . (٦) نفس المرجع ٦٤ .

(٧) نفس المرجع ٣٥ .



ديوان الرسائل<sup>(١)</sup> . ولا يقتصر الأمر على ذلك بل يصرح الجهشيارى بوجود ديوان للرسائل لدى الولاة ، من أمثال الحجاج<sup>(٢)</sup> ، ويزيد بن المهلب<sup>(٣)</sup> . ولعل يعدد هذه الدواوين يجعلنا نرجح وجودها من قبل هذا العهد بزمن كاف ، مما تطمئنا إلى ما قلناه من ظهورها في عهد معاوية بن أبي سفيان .

وهكذا نرى أن ديوان الرسائل ظهر في أوائل العصر الأموى ، في أيام معاوية ابن أبي سفيان ، وتطور سريعاً حتى انتشر في الولايات المختلفة . فسمعنا عن ديوان العراق<sup>(٤)</sup> ، وديوان خراسان<sup>(٥)</sup> في عهد عبد الملك بن مروان . ونرى أيضاً أن أوائل السكتاب الذين تقلدوا هذا الديوان كانوا عر باخلصا ، مثل عبيد الله ابن أوس<sup>(٦)</sup> ، وعبد الله بن أبي بكرة<sup>(٧)</sup> ويحيى بن يعمر<sup>(٨)</sup> ، وقبيصة بن ذؤيب<sup>(٩)</sup> ، وروح بن زنباع<sup>(١٠)</sup> ، ويدل هذا على أن ديوان الرسائل عربى النشأة ، وليس بالفارسى ولا اليونانى ، كما يذهب إلى ذلك بعض الدارسين . وهذا أمر طبيعى فى الرسائل العربية التى يطلب فيها الخلفاء الفصاحة والإجادة اللتين لم تتوافرا للأعاجم فى ذلك اوقت . ولكننا لانلبث أن نرى الأعاجم ينافسون العرب فى هذا الميدان ، منافستهم لهم فى جميع الميادين الأخرى ، وربما كانت منافستهم لهم فيه أسرع منها فى الميادين الأخرى . إذ نجدهم يتعلمون العربية ويتقنونها ويستطيعون التعبير بها تعبيراً فصيحاً جميلاً بليغاً . فنرى أبا الزعزعة مولى عبد

(١) نفس المرجع ٤٠ . (٢) نفس المرجع ٤٢ .

(٣) نفس المرجع ٤١ . (٤) نفس المرجع ٤٢ .

(٥) نفس المرجع ٦٣ . (٦) الجهشيارى: الوزراء والسكتاب ٢٤ .

(٧) نفس المرجع ١٦ . (٨) نفس المرجع ٤١ .

(٩) نفس المرجع ٣٤ . (١٠) نفس المرجع ٣٥ .



الملك بن مروان على ديوانه ولا يزال الأمر في تطور حتى نرى ديوان الرسائل في يد الموالي في عهد هشام بن عبد الملك . إذ يتقلده مولاه سالم وابنه وتلاميذه ، الذين يعتبر عبد الحميد الكاتب ، وهو من الموالي أيضاً ، أنهم . فديوان الرسائل نشأ نشأة عربية خالصة ، ولكنه في أثناء سيره أمدته روافد فارسية ويونانية على يد هؤلاء الموالي الذين أتقنوا اللغة العربية ، وعبروا بها شعرا ونثراً .

ولا يخامرنا الشك في أن هؤلاء الكتاب طوروا الكتابة تطويراً كبيراً ، إذ اتخذوها مهنة لهم ، يحدون فيها ويحسنون ، حتى يبلغوا أعلى المراتب . وما كان الكتاب منهم مستطيعاً أن يتقلد ديوان الرسائل إلا إذا أظهر هذه البراعة ، وأبان عن جمال في كتابته ، وتفنن في أسلوبه . وهكذا تصل الكتابة إلى الفن الصحيح عندهم ، ونستطيع دون وجل أن نطلق على كتابتهم اسم « الكتابة الفنية » . ومما يدل على ميلهم إلى التجميل والتزين ، أننا نرى الوليد بن عبد الملك يأمر بكتابة رسائله في الصحف ، يقول الجهمشيري : « وكان الوليد أول من كتب من الخلفاء في الطوامير ، وأمر بأن تُعظم كتبه ، ويُحلى الخط الذي يكتب به . وكان يقول : « تكون كتيبي والكتب إلى خلاف كتب الناس بعضهم إلى بعض »<sup>(١)</sup> . فهذا الخليفة يطلب التخصص والتجمل في الورق والخط ، والابتعاد عن مشابهة كتب الناس . ولا شك أنه لا يكره التجمل في الأسلوب والأفكار ، بل يحبه ويطلبه من كتابه أيضاً . وقد عمل بذلك الخلفاء من بعده ، اللهم إلا عمر بن عبد العزيز المتكشف الزاهد « الذي كان . . . يأمر كتابه بجمع الخط كراهية استعمال الطوامير »<sup>(٢)</sup> .

(١) نفس المرجع ٤٧ . الطوامير : الصحف ، الواحدة طومار وطامور .

(٢) الجهمشيري : الوزراء والكتاب ٥٣ .



ومن الظواهر التي تدل على اهتمام الأمويين باللغة العربية ، وتعريب الأشياء الأجنبية ، تحويلهم دواوين الخراج من الفارسية واليونانية والقبطية إلى العربية في عهد عبد الملك بن مروان . ولا شك أن ذلك أمر له أهميته ، إذا عرفنا أن الموالي اضطروا إلى تعلم العربية كي يستعيدوا الوظائف التي انتزعها منهم العرب بهذا التحويل . فلما تعلم الموالي اللغة العربية وأجادوها كي يستطيعوا منافسة العرب في وظائفهم ، أخذوا يحاولون أن يظهروا التفوق عليهم في التعبير بهذه اللغة . وكانت ثمرة هذا التنافس السير بالكتابة إلى طريق الفن ، إذ أخذوا يتجملون في أساليبهم ويتأقنون حتى يتفوقوا على العرب . ولا شك أن العرب قابلوا هذا الصنيع بالمثل ، مما سمل بالكتابة إلى الدرجات العلى في هذه الفترة المبكرة من تاريخها . فنحن نرى أن كتابة الرسائل في العربية كانت سريعة التطور ، لم يسارها في ذلك فرع آخر من فروع الأدب .

### خصائص الرسائل الأموية

إذا ألقينا نظرة عامة على رسائل العصر الأموي ، رأينا فيها استمراراً لرسائل الفترة السابقة ، ولكنه يصل في النهاية إلى طور يفاير أوائل الفترة الأولى مغايرة تامة . فليست لغتها بلغة الخطاب العادي ، ولكنها لغة مهذبة مجمّلة ولا شك . لكن على الرغم من هذا التهذيب لاتصل إلى ميدان الصنعة وكد الذهن ، وإنما هو نوع من التروى والتجويد . وقد لا حظنا من قبل أن ذلك التروى بدأ منذ أواخر الصدر الأول من الإسلام . فالكتابة كانت تسير سيرا حثيثاً نحو الفن والجمال . وإن المرء منا حين يقرأ رسالة يزيد بن معاوية لأهل المدينة <sup>(١)</sup> ، وهي التي يقول

---

(١) أحمد صفوت: الجمهرة ٢ : ٩٤ .



فيها : « وإني والله قد لمستكم فأخلفتكم ، ورفعتمكم على رأسي ، ثم على عيني ، ثم على فمي ، ثم على بطني ، وأيم الله لنن وضعتمكم تحت قدمي لأطأ نكم وطأة أقل بها عددكم ، وأترككم بها أحاديث ، تُنقسخ أخباركم مع أخبار عاد ونمود .  
لا شك أن المرء حين يقرأ هذه الرسالة يشعر بما فيها من تحبير وتجويد . فهذا هو الأسلوب التصويري « الرمزي » يشيع في هذه الرسالة ، ليبين لأهل المدينة إكرام الخليفة لهم ، وسعيهم فيما يحطهم في عينه ، وأنه إن لم ينتهوا سيسحقهم سحقاً ، فلا يبقى منهم باقية . ولا يستولى علينا الدهش حين نقول الأسلوب التصويري ، لأن بعض أنواع هذا الأسلوب من الأساليب الفطرية التي تظهر مبكرة في الفنون ، وقد رأينا أمثلة منه في عهد عثمان .

ويظهر هذا الأسلوب أيضاً في رسالة الحجاج عند وفاته إلى الوليد ، يقول <sup>(١)</sup> :  
« أما بعد ،

فقد كنت أرعى غنمك ، أخوطها حياطة الناصح الشفيق برعية مولاه .  
فجاء الأسد فبطش بالراعي ، ومزق المزعى كل ممزق » .

وتبين هاتان الرسالتان أن لغة الكتابة قد ارتفعت إلى لغة الخطابة ، بل أخذت تستعير منها عاريات ، تضيفها إلى نفسها ، فتظهر كأنها منها الحما ودماً ، إذ لا فرق بين العارية والأصيل . ولا شك أننا نعرف أن لغة الخطابة كان لها تراثها القديم ، وأنها كانت تترفع عن لغة الكتابة من قبل .

ومن ظواهر التحبير والتروى ذلك السجع الذي فشا في رسائل المختار بن أبي عبيد الثقفي ، وخاصة رسالته إلى أنصاره من الشيعة . فقد قال في رسالته إلى سليمان بن صرد بعد محاربتة عبيد الله بن زياد <sup>(٢)</sup> :

(١) نفس المرجع ٢٩٢ . (٢) نفس المرجع ١٢٣ .



« أما بعد ،

فإن الله أَغْظَمَ لَكُمْ الأَجْرَ ، وَحَطَّ عَنْكُمْ الْوِزْرَ ، بِمُفَارَقَةِ الْقَاسِطِينَ ، وَجِهَادِ  
الْمُجَلِّينَ ، إِنْكُمْ لَمْ تَنْفَقُوا نَفَقَةً ، وَلَمْ تَقْطَعُوا عَقَبَةً ، وَلَمْ تَخْطُوا خُطْوَةً ، إِلَّا رَفَعَ اللَّهُ  
لَكُمْ بِهَا دَرَجَةً ، وَكُتِبَ لَكُمْ بِهَا حَسَنَةٌ ... »

وكان المختار مولعاً بالسجع في حديثه وخطابته وكتابته ، ومغرماً بمحاكاة  
القرآن وفواصله ، والاستعارة من معانيه وأخيلته . يقول في رسالته إلى الأحنف  
ابن قيس <sup>(١)</sup> :

« أما بعد ،

فَوَيْلُ أُمَّ رُبَيْعَةٍ مِنْ مُضَرٍّ ، فَإِنَّ الْأَحْنَفَ مُورِدُ قَوْمِهِ سَمَرٍ ، حَيْثُ لَا يَسْتَطِيعُ  
لَهُمُ الصَّدَرُ ، وَإِنِّي لَا أَمْلِكُ مَا خُطَّ فِي الْقَدَرِ ، وَقَدْ بَلَغَنِي أَنْكُمْ تَسْمُونَنِي كَذَابًا ،  
وَإِنْ كُذِّبْتُ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِي ، وَلَسْتُ بِخَيْرٍ مِنْ كَثِيرٍ مِنْهُمْ » .  
كل ذلك لا لرغبة فنية ، ولكن لتأييد ما يدعيه من نزول الوحي عليه ، ومن  
ادعاءات أخرى غريبة ليس هنا موضع ذكرها <sup>(٢)</sup> . والأمر الذي يعنينا في هذا  
أن ندرك أن السجع كان يرتبط لدى العرب بالسكّهانة والعرافة ، ولذلك يقال إن  
العرّافين من العرب القدماء في الجاهلية كانوا لا يقولون تنبؤاتهم إلا سجعاً . وندرك  
كذلك أن السجع ارتبط بالأمور الدينية ، ولذلك نجدّه يظهر ويأخذ في النمو في  
حلقات الوعظ في السكوفة والبصرة .

وقد ظهر السجع أيضاً في بيئة أخرى غير دينية ، وأعني بذلك ظهوره في دائرة

---

(١) نفس المرجع ١٣١ .

(٢) تاريخ الطبري عام ٦٦ هـ وما بعدها .



عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث . روى الدينوري <sup>(١)</sup> أن عبد الرحمن أمر ابن القرية عند ما خرج على الحجاج ، بكتابة رسالة مُسَجَّعة إليه يخاطب فيها طاعته ، ويعرفه فيها سوء فعله ، ويبصره قببح سريره فسكتب إليه :

« بسم الله الرحمن الرحيم .

من عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث إلى الحجاج بن يوسف :

سلامٌ على أهل طاعة الله وأوليائه ، الذين يَحْكُمُونَ بِعَدْلِهِ ، وَيُوفُونَ بِعَهْدِهِ ، وَيُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِهِ ، وَيَتَوَرَّعُونَ لَذِكْرِهِ ، وَلَا يَسْفِكُونَ دِمَاحَرَامًا ، وَلَا يُعْطَلُونَ لِلرَّبِّ أَحْكَامًا ، وَلَا يَدْرُسُونَ لَهُ أَعْلَامًا ، وَلَا يَتَنَكَّبُونَ النَّهْجَ ، وَلَا يُزْمُونَ السَّيِّئَ ، وَلَا يُسَارِعُونَ فِي الْفَتَى ، وَلَا يُدَلِّلُونَ الْفَجَرَةَ ، وَلَا يَتَرَاوُونَ الْحَوْرَةَ ، بَلْ يَتَمَكَّنُونَ عِنْدَ الْاِشْتِبَاهِ ، وَيَتَرَاكِبُونَ عِنْدَ الْإِمَاءَةِ .

أما بعد ،

فإني أحمَد الله حمداً بالغاً في رضاه ... »

وكان رد الحجاج عليه مسجوعاً أيضاً . ونحن لو صدقنا هاتين الرسالتين لقلنا بأن السجع تعدى الدوائر الدينية ، ووصل إلى الدوائر الفنية الدنيوية أيضاً ، بل نقول إن السجع في الإسلام فن عربي صرف ، لأن ابن القرية عربي خالص من

---

(١) الدينوري : الأخبار الطوال ٣٢٣ . أحب أن أعبر عن شكى الشديد في هذه الرسالة وأخذها رسالة الحجاج ، وقد يكون من أسباب هذا الشك - غير انتشار السجع والتجبير فيها - شك العلماء في وجود ابن القرية نفسه . يقول الأصمعي (الأغاني ٣: ٢) « رجلا ن ما عرفنا في الدنيا قط إلا بالاسم : مجنون . بنى عامر وابن القرية ، وإنما وضعهما الرواة » . ويقول عوانة بن الحكم الأخباري ( الأغاني ٢ : ٩ ) : « ثلاثة لم يكونوا قط ولا عرفوا : ابن أبي العقب صاحب قصيدة الملاحم ، وابن القرية ، ومجنون بن عامر » . وما يحتاج الأمر مني إلى الكلام عن الأصمعي وضبطه ودقته .



البادية كما يقول مترجموه ، هذا إلى جانب وجود السجع في كلام السكمان العرب منذ جاهليتهم . وارتبط بالسجع الازدواج ، فكان الكتاب في كثير من رسائله يتخلص من أولها إلى الثاني .

وتمر الكتابة في تطورها بمرحلة غريبة عنها ، بل غريبة عن العقل العربي الخالص ، لم يعرفها من قبل .

تلك هي مرحلة الإطالة في الكتابة . وقد تكلمت قبل عن طول الرسائل في عهد الفتنة ، وأرجعت ذلك إلى الجدل السياسي بين الأحزاب المختلفة ، ولكننا في هذا العصر نجد الطبري يصرح بأن عمرو بن نافع كاتب عميد الله ابن زياد أول من أطال في الكتب <sup>(١)</sup> . وكانت هذه الظاهرة من الغرابة عن العرب الخالص ، بحيث لم تستطع أن تسيطر عليهم وتغزو شعرهم ، وإنما تغلبت على الكتابة التي يلعب فيها العقل والثقافة الدور الأكبر . وقد أخذت هذه الظاهرة تتطور وتفشو ، حتى إننا نجد عبد الحميد في آخر هذا العصر يكتب رسالة يقال إنها استوعبت مجاميع ضخمة من الصحف <sup>(٢)</sup> .

واتجه التجويد والتحسين وجهة أخرى ، إذ يرى يحيى بن يعمر العدواني كاتب يزيد بن المهلب أن الجمال في الإغراب اللفظي ، وتبع الألفاظ النادرة الاستعمال .  
رووا أن يحيى بن يعمر كتب عن يزيد إلى الحجاج ينبئ به بأحد الفتوح ، فقال :  
« إنا لقينا العدو ، فقتلنا طائفة ، وأسرنّا طائفة ، ولحقت طائفة بعرّائر الأودية ، وأهضام الغيطان . وبئنا بعرّة الجبل ، وبات العدو بحضيضه <sup>(٣)</sup> » . فلما أتى

(١) الطبري ٢ : ٢٧٠ . (٢) ابن نبة المصري : سرح العيون ١٢٨ .

(٣) المبرد : السكامل ١ : ١٣٣ . عرائر الأودية : أسافلها . والأهضام : جمع

هضم ، وهو المطنن الواسع من الأرض . وعررة الجبل : أعلاه . والحضيض : القرار من الأرض عند منقطع الجبل .



الكتاب إلى الحجاج استدعى يحيى وأخذ يسأله عن فصاحته . ويدل هذا الخبر على أن بعض الكتاب كانوا يتأقنون في اختيار ألفاظهم ، بل يبحثون عنها ولا يرضون بما يأتهم عفواً . وكان هذا الإغراب اللفظي ثمرة لبيئة العراق التي اجتمعت فيها القبائل العربية ، وواصلت حياتها القبلية التي كانت تحياها قبل الإسلام ، أو قريباً منها .

وأخذ الكتاب يعنون بصدور رسائلهم ويتجهلون فيها . فهذا كاتب المهلب يعنى بالتحميد ويطيله على غير ما اعتاد العرب فيقول <sup>(١)</sup> :

« بسم الله الرحمن الرحيم .

الحمد لله الكافي بالإسلام فقد ما سواه ، المعجل النعمة لمن بغاه ، الذي حكم بأن لا ينقطع المزيد منه ، حتى ينقطع الشكر من عباده . أما بعد . . . »  
ويظهر في هذا التحميد الأساس السجعي الذي سيقيم عليه هذا الفن . وقد رأينا هذا أيضاً في سلام رسالة ابن القريّة التي ذكرناها آنفاً . ونرى في هاتين الرسالتين وغيرهما بداية ذلك الفن الذي سيُراعى فيما بعد ، إذ تطل التحميدات والصدور ، ويراعى فيها موضوع الرسالة ، فيكون التحميد مُشعراً بذلك الموضوع . واهلنا لا حظنا ذلك في رسالة المهلب السابقة التي أرسلها مبشراً ببعض انتصاراته على الخوارج ، وفي رسالة ابن القريّة أيضاً .

وسيعنى بهذا الفن عبد الحميد الكاتب ، فيطيل فيه ويتفنن ، ويعطيه قواعد النهائية التي يسير عليها الكتاب فيما بعد ، وخاصة

---

(١) أحمد صفوت : المجلد ٢ : ١٨٧ .



تحميداته في الفتوح<sup>(١)</sup> . وقد أدى ذلك ببعض الأدباء إلى أن يقول إنه أول من استعمل التحميدات في فصول الكتب<sup>(٢)</sup> . وقد رأينا الآن إنه ليس أول من فعل ذلك ، بل سبقه بعض الكتاب الأمويين . وربما كانت هذه التحميدات من أثر كتب النبي والصحابة وخطبهم ، فقد كانت تبدأ بالحمد . ولكنه كان حمداً قصيراً موجزاً ، فلما أتى كاتب الملهب أطاله قليلاً ، ولما أتى عبد الحميد أسهب وأطنب فيه . وربما كان عبد الحميد متأثراً في تحميداته المطولة بخطب علي بن أبي طالب ، التي كان يحفظها ، ويقول عنها إنها سبب بلاغته . وهالك أحد تحميدات عبد الحميد<sup>(٣)</sup> :

« الحمد لله العليّ مكانه ، المنير برّهانه ، العزيز سلطانه ، الثابت كلماته ، الشافية آياته ، النافذ قضاؤه ، الصادق وعده ، الذي قدر على خلقه بملكه ، وعزّ في سماواته بعظمته ، ودبر الأمور بعلمه ، وقدرها بحكمه ، على ما يشاء من عزمه ، مُبتدعاً لها بإنشائه إياها ، وقدرته عليها ، واستصغاره عظيمها ، نافذاً لإرادته فيها ، لا تجرى إلا على تقديره ، ولا تنتهي إلا إلى تأجيله ، ولا تنفع إلا على سبقي من حتمه . كل ذلك بلطفه وقدرته وتصريف وحيه ، لا معذل لها عنه ، ولا سبيل لها غيره ، ولا يعلم أحدٌ بخفاياها ومعادها إلا هو ، فإنه يقول في كتابه الصادق « وعندَه مفاتيحُ الغيبِ لا يعلمها إلا هو ، ويعلم ما في البرِّ والبحر ، وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين » .

(١) نفس المرجع ٥٥٠ ، ٥٥١ ، ٥٥٢ ، ٥٥٣ .

(٢) المسعودي : مروج الذهب ٣ : ١٧٨ .

(٣) أحمد صفوت : الجمهرة ٢ : ٥٥١ .



ونرى في هذا التحميد سجعاً ، وزواجاً ، وعبارات متزنة موسيقية ، واقتباساً من القرآن ، وغير ذلك من الخلى اللفظية والأسلوبية .

وعلى الرغم من ميل الكاتب في هذا العصر إلى التحسين والتجميل ، يحمل بنا أن نقول إن ذلك لم يخرج بهم إلى مرتبة التكلف ، أو السعى وراء السجع أو البديع ، وإنما كانوا يأتون برسائلهم في أسلوب جميل فصيح بليغ توشيه بعض الجمل المتوازنة ، التي قد تتزوج أحياناً ، وتسجع أحياناً ، وتسير طبيعية في غالب الأحيان ، ويحملها أيضاً شيء من تشبيه واستعارة وكناية . ولكننا إن تخدعنا تلك الرسائل التي نرى السجع يفسو فيها ، وتنسب إلى ذلك العصر ، فإنها مما حُمل عليه ، ووضع على أسنة أدبائه ، وقد أكثرنا آنفاً من التنبيه إلى عدم اطمئناننا إلى ما يروى عن هذه الفترة من التاريخ ، التي كثرت فيها العدا ، واختلطت المصالح ، سواء كان ذلك في عهد ما بعده ، واستباح كل امرئ من هؤلاء الخصوص والأولياء أن ينسب لأدبائها أوجالها ما يؤيد حجته .

إذن نحن نجد كتابة الرسائل الرسمية تطورت تطوراً سريعاً ، رمى بها إلى أحضان الفن ، منذ أوائل العصر الأموي ، وكان ذلك ممهداً للصورة الأخيرة التي ستأخذها عند عبد الحميد الكاتب وأستأذه . فقد كان هؤلاء الكاتب حلقة ذات ثقافة أجنبية أثرت في الكتابة تأثيراً جليلاً ، وأخذت بيدها إلى الصورة البسيطة الجميلة من الفن .



# البَابُ الثَّانِي

## الرسائل الإخـوانية

### الفَصِيلُ الأوَّل

#### صدر الإسلام

ليس هذا العنوان بغريب على قراء الأدب العربي ، ولكنى أحب أن أشير إلى أنه يطلق على جميع الرسائل غير الديوانية . ونحن — وقد عرفنا حال الكتابة في الجاهلية — لا نستبعد وجود هذا الفرع من الكتابة في ذلك العصر . ولكن البحث المنقب لم يؤد بنا إلى شيء من هذه الرسائل . وأما ما جمعته جمهرة رسائل العرب <sup>(١)</sup> فقصائد شعرية ، يقال إنها أرسلت إلى المكتوب إليهم ، ولا يدخل في نطاق بحثنا هذا غير الرسالتين المذسوقتين إلى أكنم بن صيفي . ويرى الناظر فيهما أنهما عبارة عن مجموعة من الحكم والأمثال ، تُجمع بعضها إلى جانب بعض دون رابطة أو تآلف . ونحن نرجح أنهما من جمع بعض المتأخرين الحبيين للنوادر والشوارد اللغوية ، وخاصة أن من المعروف أن حكماء العرب ، بل حكماء العالم أجمع ، قد نُحِل عليهم الكثير من الأقوال . وهكذا نرى أنفسنا وليس أمامنا مانسة طبع أن نسميه إخوانيات الجاهلية .



فإذا بحثنا في الصدر الأول من الإسلام عن رسائل إخوانية لم نكد نجد شيئاً، فهم لا يرون لنا للنبي غير رسالة إخوانية واحدة، يعزى فيها مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ في ابن له مات، يقول<sup>(١)</sup>:

« من محمد رسول الله إلى مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ :  
سلامٌ عليك ، فإني أحمّدُ إليك الله الذي لا إله إلا هو .  
أما بعد ،

فَعَظَّمَ اللهُ لَكَ الْأَجْرَ ، وَأَلْهَمَكَ الصَّبْرَ ، وَرَزَقَنَا وَإِيَّاكَ الشُّكْرَ . ثُمَّ إِنَّ  
أَنْفُسَنَا وَأَهْلِيَنَا وَمَوَالِينَا مِنْ مَوَاهِبِ اللَّهِ السَّيِّئَةِ ، وَعَوَارِفِهِ الْمُسْتَوْدَعَةِ ، مُتَمَتِّعَةً بِهَا  
إِلَى أَجَلٍ مَعْدُودٍ ، وَتُقْبِضُ لَوْثٌ مَقْلُومٌ . ثُمَّ افْتَرَضَ عَلَيْنَا الشُّكْرَ إِذَا أُعْطِيَ ،  
وَالصَّبْرَ إِذَا ابْتُلِيَ .

وَكَانَ ابْنُكَ مِنْ مَوَاهِبِ اللَّهِ السَّيِّئَةِ ، وَعَوَارِفِهِ الْمُسْتَوْدَعَةِ ، مَتَمِّعٌ بِهِ فِي  
غِبْطَةٍ وَسُرُورٍ ، وَقَبِيضُهُ مِنْكَ بِأَجْرِ كَثِيرٍ : الصَّلَاةُ وَالرَّحْمَةُ وَالْهُدَى ، إِنْ صَبَرْتَ  
وَاحْتَسَبْتَ . فَلَا تَجْمَعَنَّ عَلَيْكَ يَا مُعَاذُ خَصَلَتَيْنِ : أَنْ يُحْبِطَ جَزْءُكَ صَبْرُكَ ،  
فَتَنْدَمَ عَلَى مَافَاتِكَ ، فَلَوْ قَدِمْتَ عَلَى ثَوَابِ مُصِيبَتِكَ ، قَدْ أَطَعْتَ رَبَّكَ وَتَنَجَّزْتَ  
مَوْعِدَهُ ، عَرَفْتَ أَنَّ الْمُصِيبَةَ قَدْ قَهَرْتَ عَنْهُ . وَاعْلَمْ أَنَّ الْجَزَعَ لَا يَرُدُّ مِيتًا ، وَلَا  
يُدْفَعُ حُزْنَآ ، فَأَخْسِنِ الْجَزَاءَ ، وَتَنَجَّزِ الْمَوْعِدَ ، وَلْيُذْهِبْ أَسْفُكَ مَا هُوَ نَازِلٌ بِكَ ،  
فَكَأَنَّ قَدْ<sup>(٢)</sup> .

ومن يتأمل في هذه الرسالة ير - إذا كانت حقيقية ولم يغير فيها الرواة -

(١) نفس المرجع ٦٥ .

(٢) أحمد صفوت : المجهرة ١ : ٦٥ . العوارف : جمع عارفة ، وهي المعروف .



نفس الخط الذي تسير عليه كتب الرسول السياسية ، ويرى نفس أفكاره صلى الله عليه وسلم ، بل قد تتضح فيها روح الرسول وعاطفته الدينية أكثر من غيرها ، وذلك أمر لا غرابة فيه ، لأنها رسالة إخوانية يصدر فيها كلام النبي عن عواطفه وأحاسيسه ، التي قد لا تظهر في المعاهدات أو كتب الأمان أو غيرها من الكتب السياسية . ونرى في هذه الرسالة أيضا نوعاً من الفصاحة والبلاغة يعلو بعض الشيء عن كتبه صلى الله عليه وسلم السياسية ، ولعل السبب ما ذكرته آنفاً ، ويلاحظ فيها أيضاً الصلة الشديدة بينها وبين أقواله في الوعظ والإرشاد ، ولعل ذلك أيضاً من أسباب السمو بأسلوبها . وستظل هذه الملاحظة تنطبق على كثير من إخوانيات صدر الإسلام ، وبعض إخوانيات العصر الأموي ، فلا يستطاع الفصل بين الرسائل الإخوانية والرسائل الدينية فصلاً تاماً ، إذ كان الغالب على الرسائل الإخوانية التي حفظت لنا روح الوعظ والإرشاد . ومن أوضح الأمثلة على ذلك رسالة عمر بن الخطاب إلى ابنه عبد الله <sup>(١)</sup> :

« أما بعد ،

فإنه من اتقى الله وقاه ، ومن توكّل عليه كفاه ، ومن شكر له زاده ، ومن أقرضه جزاه . فاجعل التقوى عماد قلبك ، وجلاء بصرك ، فإنه لا عمل لمن لا نية له ، ولا أجر لمن لا حسنة له ، ولا مال لمن لا رفق له ، ولا جديده لمن لا خلق له .

وأحب أن أعبر عن بعض الشك في هذه الرسالة التي رواها جماعة متأخرون ، منهم صاحب زهر الآداب ، ومجمع الأمثال . ولا يخفف من هذا الشك إلا أن أسلوبها المسجع ، وعباراتها المتوازنة ، تشبه أسلوب أحاديث الرسول الوعظية ،



والخطب الدينية ، وهي لا تحتوى إلا على ذلك ، حتى انستطيع أن نضعها في باب الرسائل الدينية دون أن نخشى لوماً . ومن أمثلة هذه الصلة بين الرسائل الإخوانية والدينية الرسائل المتبادلة بين أبي الدرداء وسلمان الفارسي ، التي توجد في جمهرة الرسائل ، وفي حلية الأولياء <sup>(١)</sup> . يقول سلمان في إحدى رسائله <sup>(٢)</sup> :

« أما بعد ،

فإنك لن تنال ما تريد إلا بترك ما تشتهي ، وإن تنال ما تأمل إلا بالصبر على ما تسكره ، فليكن كلامك ذكراً ، وصمتك فكراً ، وظرك عيراً . فإن الدنيا تنقلب ، وبهجتها تتغير ، فلا تغتر بها ، وليكن بيتك المسجد .

والسلام » .

ويقول أبو الدرداء :

« سلام عليك .

أما بعد ،

فإن أوصيك بقوى الله ، وأن تأخذ من صحبتك لستمك ، ومن شبابك لهرمك ، ومن فراغك لشمك ، ومن حيائك لموتك ، ومن جفائك لمودتك . واذكر حياة لا موت فيها ، في إحدى المنزلتين : إما في الجنة ، وإما في النار ، فإنك لا تدرى إلى أيهما نصير » .

ونرى في هاتين الرسالتين سجماً ، وزواجا ، وطباقا ، وجملا متوازنة ، وذلك — كما قلنا قبل — هو أسلوب المواعظ الدينية ، مواعظ الرسول أو الخلفاء

(١) أحمد صفوت : الجهرة ١ : ٣٢٤ - ٣٢٥ . وأبو نعيم الأصبهاني : حلية الأولياء ١ : ٢١٤ ، ٢١٦ .

(٢) انظر النص المطول في حلية الأولياء ١ : ٢١٤ .



الراشدين أو الصحابة ، بل هو أسلوب خطب الجمعة في المساجد حتى اليوم . وقد أخذت هذه الرسائل ذلك الطابع من أحاديث الرسول ومواعظه ، التي كان يغلب عليها - فيما يظهر - الأسلوب المتوازن ، الذي قد يسجع أحياناً ، وقد يزواج كثيراً . ونرى من هذا أن السجع ليس بغريب عن الأوساط الدينية . يؤيدنا في ذلك أقوال السكهان في الجاهلية ، والقرآن والأحاديث النبوية في صدر الإسلام ، وآثار المختار ووعاظ الشوارع والمساجد في المدن الإسلامية في العصر الأموي ، وما بعده . وينبغي أن يقر في أذهاننا أن ليس هذا هو الأسلوب الشائع في الرسائل الإخوانية في هذا العصر ، وإنما تغلب عليها البساطة والسهولة والصرامة ومحاولة الإفهام لا غير ، كما هو الحال في الرسائل السياسية . ويظهر هذا في رسالتي أبي الدوداء وسلمان الفارسي التاليتين . كتب أبو الدرداء من الشام إلى سلمان في العراق<sup>(١)</sup> :

« سلامٌ عليك .

أما بعد ،

فإن الله رزقني بعدك مالا وولداً ، ونزلت الأرض المقدسة » .

فأجابه سلمان :

« سلامٌ عليكم .

أما بعد ،

فإنك كتبت إلي أن الله رزقك مالا وولداً . فاعلم أن الخير ليس بكثرة المسال والولد ، ولكن الخير أن يكثر حلمك ، وأن ينفعك علمك . وكتبت إلي

(١) أحمد صفوت : الجمهرة ١ : ٣٢٤ .



أنك نزلت الأرض المقدسة ، وإن الأرض لا تعمل لأحد . انعمل كأنك ترى الله ،  
واعدّد نفسك من الموتى . »

وتظهر البساطة والصرامة في الرسالتين التاليتين المتبادلتين ، بين عبد الله  
ابن عمر و غلام له <sup>(١)</sup> ، كتب إليه غلامه :  
« أما بعد ،

فقد أُعطيتُ بفضلِ مائِ ثلاثين ألفاً ، بعدما أرويتُ زَرْعِي وَنَحْلِي وَأُصْلِي .  
فإن رأيتُ أن أبيعَهُ وأشتري به رقيقاً ، أَسْتَعِينُ بِهِمْ في عملي ، فعلتُ » .  
فأجابه عبد الله :

« قد جاءني كتابُك ، وفهمتُ ما كتبتَ به إليّ ، وإني سمعتُ رسولَ  
لله صلى الله عليه وسلم يقول : مَنْ مَنَعَ فَضْلَ ماءٍ لِيَمْنَعَ بِهِ فَضْلَ كَلْبٍ ، مَنَعَهُ اللهُ  
أَفْضَلَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ . فإذا جاءك كتابي فاسقِ نَحْلَكَ وَزَرْعَكَ وَأُصْلَكَ ، وما فَضَلَ  
فاسقِ حيرانَكَ ، الأَقْرَبَ فالأَقْرَبَ .

والسلام » .

وفيما عدا هذه الرسائل التي لا تتجاوز عدد الأصابع نرى عصر الرسول ،  
وعصر الخلفاء الراشدين ، يمرّ مسرعاً أو مببطاً ، دون أن يصل إلينا شيء منه .  
ولا يعني هذا أنه لم تسكن توجد إخوانيات كثيرة ، بل لقد كانت ، وكانت أيضاً  
في تطور سريع ، حتى وجد نظام البريد في عهد عمر . وكان سبب وجوده حب  
عمر في الاتصال السريع الدائم بعماله . يؤيد ذلك قصة نصر بن حجاج الذي نفاه  
عمر من المدينة إلى البصرة ، لجماله وخوف عمر على النساء أن تفتتن به . يقول الخبر :

(١) نفس المرجع : ٢٨٧ ، ٢٨٨ .



« وأبّرّد عمر بريداً إلى عتبة بن أبي سفيان بالبصرة فأقام بها أياماً ، ثم نادى منادى عتبة : من أراد أن يكتب إلى أهله بالمدينة أو إلى أمير المؤمنين شيئاً فليكتب ، فإن بريد المسلمين خارج . فكتب الناس ، ودم نصر بن حجاج كتاباً<sup>(١)</sup> ... » .  
ولاشك أن هذا النظام كان عاملاً هاماً في الرقي بالرسائل الإخوانية وغيرها ونشرها .

ولسكننا لم يصل إلينا غير هذه الرسائل القليلة من ذلك العهد ، فما السر يا ترى ؟ السر في ذلك — كما أعتقد — أن الأدباء العرب لم يعنوا بهذه الرسائل الإخوانية ، بل ما كانوا يعنون بها في الأزمنة المتأخرة ، إلا إذا كانت آية في البلاغة أو نهاية في الجمال والصنعة . وما كان ذلك ليتوافر لرسائل هذا العهد المبكر . وإذن فسبب ضياع إخوانيات الجاهلية والصدر الأول من الإسلام ، بل ضياع كثير من رسائل الأزمنة المتأخرة ، أن الأدباء ما كانوا يهتمون بهذا النوع من الكتابة ، وما كانوا يعتبرونه فناً من الفنون ، وخاصة أنه يتصل بالشئون الخاصة للأدباء . والأدب العربي — للأسف — مصاب بمرض إهمال تلك الأمور ، في نثره أو شعره . ويرجع ذلك إلى أنه أدب قصور ، يعيش على موائد الملوك ، ولا يصل إلينا منه إلا ما اقترب منهم واتصل بهم . ولعل هذا المرض لم يصب به الأدباء ، وإنما أصيب به النقاد والمؤرخون ، وتلك هي الحقيقة . فما كان نقادنا — رحمهم الله — يقدرون ويستحسنون غير شعراء البلاط وكتابه ، فيخلدونهم في كتبهم وموسوعاتهم . أما الشعراء الخاصون والكتاب الخاصون ، أو الأدباء الذين يعيشون لأنفسهم ، فلم يحفلوا بهم إلا قليلاً . ولذلك لم نجد عنهم غير أخبار نادرة تنساقط إلينا منزوية منكشة . وهكذا ضاع شعر كثير جميل ، وكتابة كثيرة جميلة ، وعاش ذلك المديح

(١) أحمد صفوت : المجهرة ٢ : ٣٨٣ .



وشعرافه ، وتلك الكتابة الديوانية وكتابها . ولو وصلت إلينا آثار أولئك الأدباء المنطوين على أنفسهم ، لوجدنا كنوزاً أدبية تفيض بالعاطفة ، ولتفتحت أمامنا ميادين فسيحة للبحث والدرس ، ولعثرنا على مذاهب فنية تقوم على قوام الأدب من أفكار وانفعالات وأخيلة ، لا على الصنعة والتصنيع والتصنع ، التي أولع بها كتاب القصور وشعراؤها . ولعلنا نعذر هؤلاء النقاد والمؤلفين ، إذا عرفنا أنهم كانوا يؤلفون كتبهم للملوك والأمراء ، فيملأونها بأخبارهم ، ويستقون منها ما يعتبرونه أخبار الشعب والسوقة . والسبب الثاني لضياغ إخوانيات العصر الجاهلي والإسلامي عدم سمو هذه الرسائل إلى مرتبة الفن ، فما كان ذلك الفرع الناشئ من الأدب ليمتخطى حدود الزمان والمكان ، ويضرب إلى الفن .

أما الذي حفظ لنا الكتابة السياسية ، التي لم تصل إلى مرتبة الفن ، فارتباطها الشديد بالتاريخ . ولذلك نجد لها مدونة في كتب التاريخ لا في كتب الأدب . ولن يعنى الأدباء بها إلا عندما تصير فناً جميلاً خليقاً بعنايتهم . وأما الذي حفظ الرسائل الإخوانية السابقة - في ظني - فهي المواعظ التي تشتمل عليها . ولعلها لم بق بصورتها القديمة ، وإنما نالتها أيدي الرواة بالتحجير والتحسين ، ومن هنا جاء الفرق بين الرسائل الحبرة التي فيها وعظ ، والرسائل العاطلة التي لا مواعظ فيها .



## الفصل الثاني

### العصر الأموي

في مستهل هذا العصر يتولى الخلافة معاوية بن أبي سفيان ، فيعنى بالبريد وتنظيمه ، حتى يشتهر أنه أول من وضع البريد <sup>(١)</sup> ، وليس ذلك بصحيح ، فإن واضعه هو عمر بن الخطاب ، كما تقدم . ولكن العصر الأموي لم يكن بأحسن حظا من الفترة السابقة عليه ، إذ ضاع أكثر رسائله الإخوانية أيضا ، ولم نستطع العثور إلا على قريب من عشرين رسالة . وهي في النصيح والعتاب والاعتذار والتعزية والشفاعة والرجاء وتبادل الآراء والمعارف العلمية ، وما إلى ذلك من الأمور التي تقع بين الأصدقاء . ولا نكاد نصل إلى عبد الحميد حتى نراهم يأنون له بنحو خمس رسائل إخوانية ، بل يؤلف رسالة طويلة في الإخاء ذاته .

ونرى هذه الرسائل في بادئ أمرها بسيطة اللغة ، صريحة الأسلوب ، لا ترمى إلا إلى الإفهام ، دون تجميل أو تحبير ، كما نرى في رسالة محمد بن الحنفية إلى أخيه الحسين ، حين افترقا متغاضبين ، وأراد محمد الصلاح <sup>(٢)</sup> :

« من محمد بن علي إلى أخيه الحسين بن علي ،

أما بعد ،

فإن لك شرفا لا أبُلُغُه ، وفضلا لا أدركه ، فإن أمي امرأة من بني حنيفة ، وأُمّك فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم . ولو كان مِلء الأرض نساء مثل أمي

---

(١) المكتاني : التراتيب ١ : ١٩٢ . (٢) أحمد صفوت : الجمهرة ٢ : ٢٤ .



ما وَفَّينَ بِأَمْرِكَ ، فإذا قرأتَ رُقعتي هذه ، فالْبَسْ رداءك ونعليك ، وسِرْ إلى لترصيني ،  
وياك أن أسبقك إلى هذا الفضل الذي أنت أولى به مني .  
والسلام »

أما رسالة معاوية إلى ابنه يزيد في عتابه ، التي يقول فيها <sup>(١)</sup> :  
« من معاوية بن أبي سفيان أمير المؤمنين إلى يزيد بن معاوية ،  
أما بعد ،

فقد أدت ألسنة التصريح إلى أذن العناية بك ، ما فجَّع الأمل فيك ، وابعَدَ  
الرجاء منك ، إذ ملأت العيون بهجة ، والقلوب هيبة ، وترامت إليك آمالُ  
الراغبين ، وهمُّ المتنافسين ، وشجَّتْ بك فتیان قريش وكهولُ أهلك ، فما يسوغ  
لهم ذكرك إلا على الجِرَّةِ المهُوِّمة ، والكفِّ الجشء .

اقتحمت البوائق ، وانقذت لَمَّا أير ، واعتصمتها من سمو الفضل ورفيع القدر .  
فليتك - يزيد - إذ كنت لم تكن ، سررت يافعا ناشئا ، وأثكلت كهلا ضالعا ،  
فواحزنه عليك ، يزيد ! وياحز صدر المُشْكَل بك ، ما أشمت فتیان بنی هاشم !  
وأذلَّ فتیان بنی عبد شمس ، عند تفاوض المفاخر ودراسة المناقب ! فَمَنْ لصلاح  
ما أفست ، ورتق ما فتقت ؟ هيهات ! حَمَشَتِ الدربةُ وجهَ التصبر بك ، وأبتِ  
الجنابةُ إلا تتحدرا على الألسن ، وحلاوة على المناطق ، ما أريح فائدة نالوها ،  
وفرصة اتهمزوها ! ... <sup>(٢)</sup> »

(١) نفس المرجع ٦٩ .

(٢) « أدت ألسنة التصريح ... الأمل فيك » : أى أفضت بأنبائك ألسنة الرقباء  
عليك إلى مسامع أبيك ذى العناية الشديدة بشأنك ، وصرحت له بما تقارفه من المنكرات .  
الجرة : ما يفيض به البعير فأكله ثانية . وهو عه ما أكل : قيام إياه ، والمراد أنهم يستقلون  
ذ كره . كظه الطعام كظاً : ملأه حتى لا يطيق النفس والجشء : الكثير . والبوائق : =



أما هذه الرسالة فأشك فيها شكاً قوياً، بسبب ما فيها من العبارات التي تحط قدر يزيد، وتبلغ منه ما يرده خصمه، مما لا يصح أن يصدر عن أبيه الذي يرشحه لولاية العهد. ولعل أسلوب هذه الرسالة يساعد على هذا الشك، إذ نرى فيها شيئاً من السجع، وكثيراً من الألفاظ الغريبة التي لم نعتد وجودها بهذه الكثرة عند معاوية، كما نرى فيها مجازاً بعيداً عن عصر معاوية مثل قوله «فقد أدت أسنة التصريح إلى أذن العناية بك ما فجع الأمل فيك» وقوله «خشت الدربة وجهه التصبر فيك». وما يزيد من حدة هذا الشك أنها وصلت إلينا من رواية متأخرة، أعنى كتاب صبح الأعشى<sup>(١)</sup>.

وتظهر هذه البساطة أيضاً في الرسائل التي يتبادل فيها العلماء المعلومات. يقال إن عروة بن الزبير وعبد الملك بن مروان كانا يتبادلان الرسائل العلمية. يقول الطبري<sup>(٢)</sup>: «ثنا هشام بن عروة، عن عروة، أنه كتب إلى عبد الملك بن مروان: «أما بعد،

فإنك كتبت إلى تسألني عن خالد بن الوليد، هل أغار يوم الفتح؟ وبأمر من أغار؟ وإنه كان من شأن خالد يوم الفتح أنه كان مع النبي صلى الله عليه وسلم. فلما ركب النبي بطن مرّ، عامداً إلى مكة، وقد كانت قريش بعثوا أبا سفيان وحكيم بن حزام يتلقيان رسول الله صلى الله عليه وسلم. وهم حين بعثوهما لا يدرون أين يتوجه النبي صلى الله عليه وسلم: إليهم، أو إلى الطائف، وذلك أيام الفتح؟ واستتبع أبو سفيان وحكيم بن حزام بدّيل بن ورقاء، وأحبا أن يصحبهما،

= جمع بائقة، وهي الداهية. والمعاير: العايب. والدربة: المادة والجرأة على الأمر، والمعنى دربتك على اقتراف المعاصي والسيئات.

(١) القلقشندي: صبح الأعشى ٦: ٣٨٧. (٢) ١: ١٦٣٤.



ولم يكن غير أبي سفيان وحكيم بن حزام وبُدَيْل . وقالوا لهم حين بعثوهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا نُؤْتِيَنَّ من ورائكم ، فإننا لا ندري مَنْ يريد محمد : إيانا يريد ، أو هوازن يريد ، أو ثقيفا ؟ وكان بين النبي صلى الله عليه وسلم وبين قريش صلح يوم الحُدَيْبية وعهد ومدة ، فكانت بنو بكر في ذلك الصلح مع قريش . فاقتتل طائفة من بني كعب ، وطائفة من بني بكر ، وكان بين رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبين قريش في ذلك الصلح الذي اصطلحوا عليه « لا بَغْلَالٌ ولا إِسْلَالٌ » . فأعانت قريش بني بكر بالسلاح ، فاتهمت بنو بكر قريشا ، فنها غزا رسول الله صلى الله عليه وسلم أهل مكة . وفي غزوته تلك لقي أبا سفيان وحكima وبديلا بمر الظهران . . . . . » .

ولا يبقى أمر هذه البسطة طويلا ، إذ لا يلبث قارئ هذه الرسائل أن يشعر بأن كتابها كانوا يطلبون من أنفسهم إحكامها ، حتى لا يفلت من بين أصابعهم شيء ، ويطلبون إنجازها ، حتى لا ترى فيها موصفا لإطراب ، فأنت تشعر فيها بنوع من الدقة والتحرز والحرص . يظهر هذا في رسالة عبد الملك بن مروان إلى ولده يعاتبه فيها <sup>(١)</sup> :

« أما بعد ،

فإني أمرُك بأمرٍ فأتيتَ غيره ، ووصيتُك بوصية فأتيتَ إلا عصيانتها ، وخفتُ أنك بمنزلة الصبي الذي إذا أمر بشيء أباه ، وإذا نهى عن شيء أتاه ، فيحتملُ له فيما ينفعه بأن يُنهى عنه ، وفيما يضره بأن يؤمر به ، ويا سوءَ قى لمن هذه حاله !

والسلام »

(١) أحمد صفوت : الجمهرة ٢ : ٢٤٢ .



وتظهر في هذه الرسالة ثمرة التفكير الطويل في طريقة العتاب ، وإيلام المعاتب بما لا يخرج عن الأدب ، بعكس الحال في رسالة معاوية . فهي عتاب ساخر مصور ، يشبه الرسم « الكاريكاتوري » ، لا سباب فيه ولا شتم .

ونرى ظاهرة أخرى في رسالة بشر بن مروان ، التي يعتذر فيها لأخيه عبد العزيز<sup>(١)</sup> :

« بسم الله الرحمن الرحيم .

نولا المهفوة لم أحتج إلى العذر ، ولم يكن لك في قبوله مني الفضل . ولو احتمل الكتاب أكثر مما ضمنته لذت فيه ، وبقية الأكابر على الأصاغر من شيم الأكارم ، ولقد أحسن مسكين الدارمي حيث يقول :

أخاك أخاك إن من لا أخاله كساع إلى الهيجاء بغير سلاح  
وإن ابن عم المرء - فاعلم - جناحه وهل ينهض البازي بغير جناح »

إذ نرى في هذه الرسالة ، إلى جانب الإيجاز والإحكام والاهتمام بالأسلوب وتوازن الألفاظ في الأكابر والأصاغر والأكارم ، نرى فيها إلى جانب كل هذا تفكيراً عقلياً يخرج بها إلى حد الغموض القليل ، ونرى فيها أيضاً نوعاً آخر من التحلية ، أعني الاقتباس من الشعر .

وتأخذ هذه الرسائل الإخوانية في التقدم ، إلا أنها تصاب بنكسة عند عمر ابن عبد العزيز ، فترجع إلى حالها الأول لا ترمي إلا إلى الإفهام ، ولا تأبه لزينة أو جمال ، وإنما تصدر عنه بسيطة خالصة صريحة . يظهر هذا في رسالته إلى عمر ابن عبد الله بن عتبة يعزيه في أبيه<sup>(٢)</sup> :

---

(١) أحمد صفوت : الجهرة ٢ : ٢٧٠ . (٢) نفس المرجع ٣٥٦ .



» أما بعد ،

فإننا قومٌ من أهل الآخرة سَكَنَّا الدنيا ، أمواتُ أبناءِ أموات ، فالعجب كل العجب لميت ، يكتب إلى ميت ، يعزيه عن ميت .

والسلام »

ويظهر هذا أيضا في رسالته إلى مؤدب ولده ، وإن كانت أعلى من الأولى أسلوبا (١) :

» من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى سهل موله .

» أما بعد ،

فإني اخترتُك على علمٍ مني بك لتأديب ولدي ، فصرقتهم إليك عن غيرك من موالِي وذوي الخاصة بي ، فخذهم بالجفاء فهو أَمَنٌ لإفدامهم ، وتركِ الصحبة ، فإن عاداتها تُكسِبُ الغفلة ؛ وقلة الضحك ؛ فإن كثرتُه تُميت القلب . وليكن أول ما يعتقدون من أدبك بغضُ المَلاهي التي بدؤوها من الشيطان ، وعاقبتها سخط الرحمن ، فإنه بلغني من الثقات من أهل العلم أن حضورَ المعازف ، واستماع الأغاني ، واللهجَ بها يُنبِتُ النفاقَ في القلب ، كما ينبت العشبُ الماء ، ولعمري لتَوَقَّى ذلك بتركِ حضورِ تلك المَواطِنِ ، أيسرُ على ذِي الذَّهْنِ من الثبوتِ على النفاقِ في قلبه . . . . »



وتظهر هذه النسكسة في رسائله جميعها على اختلاف أنواعها ، ولكنهم لا تعدى شخص عمر ، فهذا الحسن البصرى ، في عهده . ، يتصل به أن مكحولاً فقيه الشام توفي فيجزن عليه ، ثم يتصل به بطلان ذلك فيفرح ، ويكتب إليه <sup>(١)</sup> :  
« أما بعد ، أبا عبد الله ،

كان الله لنا ولك في المحيا والممات ، وقضى لنا ولك بخير في الدنيا والآخرة ، ويسر لنا ولك حسن المال والمنقلب .

فإيه أتابنا عنك ما راعنا ، ثم أنى بعده ما كذب به ، فلعمرو الله لقد سررنا وإن كان السرور بما سررنا به وشيك الانقطاع ، ذاهباً عما قليل إلى الخبر الأول . فهل أنت - عاهك الله ووقفنا وإياك لصالح العمل - كرجل ذاق الموت ، وعان ما بعده ، وسأل الرجعة فأجيب إليها وأعطى ما سأل ، بعد أن عان ما فاته ، فتأهب في نقل جهازه إلى دار قراره ، لا يرى أن له من ماله إلا ما قدم أمامه ومن عمله إلا ما كتب له ثوابه .

والسلام »

فهذه الرسالة على الرغم من اختلافها عن رسائله الأخرى الدينية ، تخالف كتب عمر بن عبد العزيز ، فهي تتدفق بالشعور الجميل ، الذي يعقد على الألفاظ جمالا ، ويكسب الأسلوب فصاحة وبلاغة .

ويرجع الإيجاز والإحكام في التعبير ، والتفكير العقلي إلى الظهور ثانية في رسالتي سالم مولى هشام . وهالك رسالته إلى بعض إخوانه :

« أما بعد ،

فقد أصبحت عظيم الشكر لما سلف إلى منك ، جسيم الرجاء فيا بقى لي عندك ،



قد جعل الله مستقبل رجائي منك عوناً لي على شكرك ، وجعل ماسلف إلى منك عوناً على مؤتلف الرجاء فيك <sup>(١)</sup> .

ويلاحظ على هذه الرسالة توازن جملها وتقابلها ، بل تقابل ألفاظ كل جملة بألفاظ الجملة التي تليها .

وإلى جانب هذا الإيجاز تيار آخر ، هو تيار الإطناب ، الذي يظهر عند عقال ابن شبة وعبد الحميد الكاتب . فقد كتب عقال إلى خالد بن عبد الله القسري في شفاعته : « إن الله انتخبك من جوهرة كرم ، ومنبت شرف ، وقسم لك خطراً شهرة العرب ، وتحدث به الحاضرة والبادية ، وأعان خطرَك بقدره مبسوطة ، ومنزلة ملحوظة ، فجميع أكتفائك من جواهر العرب يعرف فضلك ، ويسرّه ما خار الله لك ، وليس كلهم أداله الزمان ، ولا ساعده الحظ ، وأحق من تعطف على أهل البيوتات ، وعاد لهم بما يبقى لهم ذكره ، ويحسن به نشره ، مثلك .

وقد وجهت إليك فلانا ، وهو من دنية قرابتي ، وذوي الهيئته من أسرتي وعرف معروفك ، وأحببت أن تلبسه نعمتك ، وتصرفه إلي ، وقد أودعتني وإياه ما تجده باقيا على النشر ، جميلاً في القب <sup>(٢)</sup> .

فهذه الرسالة فيها إطناب ، آت من ترادف الجمل ، الذي تعمد به الكاتب ليوفر لرسالته نوعاً من التوازن ، الذي يحدث جرساً موسيقياً عند القراءة ، وفيها أيضاً فكر يحسن التصرف في الشفاعه ، يبدأ بمدح المشفوع إليه وبيان خطره ، وينتهي بالشفع فيه وجدارته ، ويختتم بالأثر الحميد لقضاء هذه الشفاعه .

أما الإطناب عند عبد الحميد فيظهر في رسالته إلى أخيه يعرفه بمولوده الجديد <sup>(٣)</sup> :

(١) أحمد صفوت : الجمهرة ٢ : ٤٣١ . مؤتلف : مستأنف .

(٢) نفس المرجع ٤١٦ . انتجب : اختار . والخطر : القدر وأدال : نصر . والقب : العاقبة .

(٣) نفس المرجع ٥٤٩ .



« أما بعد ،

فإني ما أنعمتُ من مواهب الله نعمة خُصِّصتُ بِمِزْنَتِهَا، وَأَصْفِيَتْ بِخُصِيصَتِهَا  
كانت أسرتُ من هبة الله لي ولداً سمَّيته « فلانا » ، وأملتُ ببقائه بعدى حياة ذكري ،  
وحسن خلافة في حُرْمَتِي ، وإشراكه إياي في دَعَائِهِ ، شافعاً لي إلى ربه عند  
خَلَوَاتِهِ في صَلَاتِهِ ، وَحُجَّتِهِ ، وكلِّ موطنٍ من مواطن طاعته . فإذا نظرتُ إلى  
شخصه تحرك به وَجْدِي ، وظهر به سروري ، وتعطفت عليه مني أنسة الولد ، وتولت  
عني به وَحْشَةُ الْوَحْدَةِ ، فأنا به جَذَلٌ في مَغِيْبِي وَمَشْهَدِي ، أحاول مسَّ جَسَدِهِ  
بيدي في الظلم ، وتارة أعانقه وأرشفه ، ليس يعذله عندي عظيماُ الفوائد ،  
ولامُنْفَسَاتِ الرغائب ، سَرَّتَنِي به واهبُهُ لي على حين حاجتي ، فشدَّ به أزرِي ، وحلَّنِي  
من شكري فيه ، ما قد آدَنِي بِثَقَلِ حَمْلِ النِّعَمِ السالفة إلىَّ به ، المقرونة سَرَائِرِهَا  
في الْعَجَبِ ، بتارات ما يَدْرِكُنِي به من رقة الشفقة عليه ، مخافة مجاذبة المنايا إياه ،  
وَوَجَلًا من عواصف الأيام عليه ... » ولا شك أن القارئ يشعر بإطنا به ، الذي  
يأتني من ترادف الجمل ، وتفصيله في الكلام . ويشعر أيضاً بأن الطفل مائل أمامه ،  
وقد رفعه والده على يديه ، حانيا عليه ، ملاعباً إياه ، حين يقرأ قوله « فإذا نظرتُ  
إلى شخصه تحرك به وجدِي ، وظهر به سروري ، وتعطفت عليه مني أنسة الولد ،  
وتولت عني به وحشة الوحدة ، فأنا به جَذَلٌ في مَغِيْبِي وَمَشْهَدِي ، أحاول مسَّ  
جسده بيدي في الظلم ، وتارة أعانقه وأرشفه » . وهذه قدرة عبد الحميد على  
التشخيص والتصوير .

وكانت ثمرة تطور كتابة الرسائل الإخوانية في هذه العصور تلك الرسالة الجامعة  
التي كتبها عبد الحميد في وصف الإخاء ذاته . يقول عبد الحميد<sup>(١)</sup> :

(١) أحمد صفوت : الجمهرة ٢ : ٤٣٤ .



« فَإِنَّ أَوْلَى مَا اعْتَزَمَ عَلَيْهِ ذَوُو الْإِخَاءِ ، وَتَوَاصَلَ عَلَيْهِ أَهْلُ الْمَوَدَّاتِ ، مَا دَعَا أَسْبَابَهُ صَدَقُ التَّقْوَى ، وَبُنِيَتْ دَعَائِمُهُ عَلَى أَسَاسِ الْبِرِّ ، ثُمَّ أَنْهَدَ الْبِنَاءَ حَرِيزُ التَّوَاصُلِ ، وَشَيَّدَهُ مَسْتَعِزُّ الْعَشْرَةِ ، فَادَّعَمَ قَوِيًّا ، وَصَفَا مُوْنِقًا ، وَأَخْلَصَتْهُ الْمَقَّةُ مَنْعُطَةً ، وَسَكَنْتْ بِهِ الْقُلُوبُ أَنْيَسَةً ، وَسَمَتْ مِنْ مُوَاصَلَةِ الْهِمَمِ مُسْتَعْلِيَةً عَنْ كُلِّ زَائِفٍ مَعْتَقٍ ، وَخَوْفٍ عَارِضٍ <sup>(١)</sup> . »

ويظهر في هذه الفقرة توازن الجمل وترادفها اللذان يعمدهما عبد الحميد . ويظهر فيها أيضاً ميله للسير المنطقي ، فهو يمثل الإخاء ببناء تجتمع له الأسس من التقوى والبر ، ويرفع ببناء التواصل والعشرة العذبة ، ويدعمه ويصفيه ، ثم تجمله المقة والمحبة ، وأخيراً تسكنه القلوب مستأنسة . ونرى في هذا السير المنطقي حب التجسيم والتجسيد ، يجعلنا نتصور البناء ، في جميع أطواره ، ماثلاً أمام أعيننا كأننا لمسناه بأيدينا . ويظهر هذا الميل للتجسيد والتصوير في تركيب الجمل ، التي توحى بالتجسيد أو تكسب الكلام البروز والوضوح كقوله . « فَأَنَا مُصَيِّخُ السَّمْعِ لِلنَّفْثِ ، عَقْلُ الْعَقْلِ عَنْ سِوَى أَمْرِهِ ، مُحْتَضِرُ الذَّهْنِ فِي تَدْيِيرِهِ ، ذَهْلُ الْقَلْبِ عَنْ تَفْنِينِ الْقَوْلِ » . ولعل هذا الميل للتجسيد والتصوير هو الذي ساقه إلى الإكثار من الحال ، التي نعرف أنها تحدد الأمور وتوضحها ، وتعطيها صوراً ماثلة أمام ذهن المستمع ، فهو يقول في العبارة السابقة « فَادَّعَمَ قَوِيًّا ، وَصَفَا مُوْنِقًا ، وَأَخْلَصَتْهُ الْمَقَّةُ مَنْعُطَةً ... » ويقول أيضاً في نفس الرسالة : « وَكَشَفَ لِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ، مُظْهِرًا أَعْلَامَهُ ، مُبْدِيًا فَيْنَتَهُ ، طَارِحًا قَنَاعَ سِرِّهِ ، مُعْلِنًا مَكْنُونَ ضَمِيرِهِ » . وتكرر عنده - غير الحال - بعض الصيغ الأخرى مثل المفعول لأجله في قوله . « وَبَثَّ فِي الْحَقَبِ مِنَ الْمَسْكَارِمِ »

(١) أنهد : رفع . وحريز : حصين . والمقة : المحبة .



قياماً لهم بالنصرة ، وحيّاً للمودة ، وترغبنا في العشرة » . ونحن ندرك أن ذكر الأسباب مما يُحدّد الأمور ، ويجلّي الظروف المحيطة بها . وتكرر عنده أيضاً صيغة التفضيل يليها المضاف إليه أو التمييز مثل قوله : « فكان أكهف لجأ ، وأحرز حصن ، وأحصف جنة ، وأعون ظهير ، وأبقى ذخيرة ، وأعظم فائدة ، وأشرف كنز ، وأفخر صنعة ، وآثق منظر ، وأبنع زهرة ، أكثر الأشياء ريعاً ، وأماها وصلاً ، وأمدّها سبباً ، وأقواها أيداً ، وأحلاها ذوقاً ، وأدعمها ثباتاً ، وأرساها ركناً <sup>(١)</sup> » وهذا التكرار يكسب كتابته جملاً موسيقياً ملحوظاً ، فوق تحديده ما يريد من المعاني . وهكذا نرى عبد الحميد يوفر كل هذه الخصائص لإخوانياته مما يضيف عليها جمالاً وفناً ، ويجعلها جديرة بزعامة العصر الأموي .

#### الخلاصة

وجملة القول أن الرسائل الإخوانية الخالصة التي لا وعظ فيها ، بدأت بسيطة خالصة صريحة ، ليس فيها شيء من الفن ، واستمرت كذلك مديدة في العهد الأموي ، بخلاف الرسائل السياسية ، التي سارت في طريق الفن منذ أواخر صدر الإسلام وأوائل العهد الأموي . ولكن الإخوانيات ما لبثت أن تطورت سريعاً ، فسارت في اتجاهين : اتجاه الإيجاز والإحكام والدقة عند عبد الملك بن مروان وأخيه بشر وسالم ، واتجاه الإطناب وترادف الجمل وتوازنها الموسيقي عند عقّال وعبد الحميد . وكان الاتجاهان كلاهما لا يرضيان بما يعطيه العقل للوهلة الأولى ، وإنما يفكران ، ويعمقان الفكر ، في سبيل الوصول إلى الأمر الجديد البديع . ونستطيع أن نقول إن تفنن الكتابة الإخوانية تأخر قليلاً عن الكتابة السياسية ، ولكن الإخوانيات سرعان ما أدركت السياسيات ، وسارت بجوارها غير متخلفة عنها ، ولا متقدمة عليها .

(١) أكهف : أحسن وأمنع . وأحصف : أحكم . والجنة : كل ما بقي . وراع : يريع ريعاً : نما وزاد . والأيد : القوة .



## الباب الثالث

### الرسائل الدينية

## الفصل الأول

### الرسائل الوعظية

من المستحسن أن نبين ما نريده بهذه الرسائل قبل أن نتكلم عنها ، فهي ما أرسله كبار رجال الدين والوعاظ والزهاد إلى الخلفاء والأمراء ، والأصدقاء أحيانا ، لوعظهم ، وتوجيههم الوجهة الدينية التي يريدون ، وإظهار رأى الدين في المشكلات التي أمامهم .

ولو أردنا أن نفصل بين هذه الرسائل والأنواع الأخرى السابقة ، ما استطعنا في كثير من الأحيان ، وقد رأينا ذلك من قبل في تعزية الرسول صلى الله عليه وسلم معاذ بن جبل ، وفي رسالة عمر بن الخطاب لابنه ، وفي الرسائل المتبادلة بين أبي الدرداء وسلمان الفارسي ، وغيرها من الرسائل ، التي نستطيع أن ندخلها في باب الرسائل الإخوانية أو الدينية دون حرج . وتظهر الصلة الشديدة بين الرسائل الدينية والسياسية كل ظهور في رسائل الخلفاء إلى عمّالهم ، وخاصة رسائل عمر بن عبدالعزيز . وليس ذلك بالأمر الغريب لأن الخليفة كان الرئيس الديني والرئيس السياسي في نفس الوقت . وقد يتضح السبيل أمامنا حين تغلب على الرسالة صبغة الوعظ الديني ، أو تكون رسالة إلى أحد الخلفاء أو الأمراء .



وعند ما نبحث هذا النوع من الرسائل نجد أنه يختلف عن الأنواع الأخرى. فهو صادر عن عاطفة دينية لا تريد الإيهام أو الإخبار فحسب ، وإنما تريد دفع المرسل إليه إلى العمل بما في هذه الرسائل من مواعظ . وإذن فمجرد الإيهام غير مطلوب منها ، وإنما يطلب منها أيضاً أن تؤثر في قارئها ، وتدفعه إلى تغيير وجهة نظره في الحياة ، وإلى أن يقوم بأعمال قد يكون غير معتاد لها من قبل . وإذن يجب على الكاتب أن يراعى هذه المسألة ، ويبحث عن الأمور التي تأتي له بهذه الثمرة . ومن هنا يبحث عن تحميل ألفاظه شحنات من عاطفته الدينية المثيرة المتدفقة ، كي تثير هذه العاطفة شعور القراء . وما تستطيع الألفاظ جميعاً أن تحمل هذه العواطف ، وتؤديها الأداء الجميل ، ولذلك يضطر الكاتب إلى اختيار ألفاظه واختيار جملة ، واختيار أسلوبه . وهو قد يفعل كل ذلك دون أن يتنبه له ، وإنما بدافع من عاطفته القوية المثيرة ، وقد يفعله وهو جد واع له . ولكن الثمرة واحدة في الحالتين ، إذ ستخرج رسائله سامية الأسلوب ، عذبة الألفاظ ، موسيقية العبارات ، زاخرة بالمشاعر . وهذا ما نلاحظه على هذا النوع من الرسائل في مجملها منذ البداية .

وقد رأينا في باب الرسائل الإخوانية ما كانت تتحلى به رسالة عمر ، ورسائل أبي الدرداء وسلمان الفارسي من خصائص ، فليست بحاجة إلى تكرار الكلام عنها . ولما كان صدر الإسلام لم يصل إلينا منه رسائل غيرها ، فإننا سننتقل من فورنا إلى العصر الأموي .

فإذا ما انتقلنا إلى ذلك العصر ، وجدنا أنه بقي لنا منه أكثر مما بقي من الإخوانيات ، ويرجع أغلب رسائله إلى عهد عمر بن عبد العزيز ، وكثير منها إلى قلم الحسن البصري ، تلك الشخصية الدينية الرائعة التي ظلت مثلاً بارزاً للورع



والتقوى طوال القرون السابقة حتى اليوم ، والتي كانت المحور الذى دارت عليه قصص دينية جميلة ، محقة ومبطلّة .

وإذا ما جمعنا هذه الرسائل أماننا ، وأخذنا نمعن النظر فيها لتبين خصائصها ، وجدنا الخاصة الأولى التى تشيع فيها توازن الجمل الموسيقى . نرى هذا فى رسالة عمر بن عبد العزيز إلى أحد أصدقائه <sup>(١)</sup> :

« يا أخى ، إنك قد قطعتَ عَظْمَ السفر وبقى أَقْلُهُ ... وإياك أن تُعْرِكَ الدنيا ، فإن الدنيا دارٌ من لا دارَ له ، ومالٌ من لا مالَ له ، يا أخى ، إن أَجَلَكَ قد دَنَا ، فَكُنْ وصىَّ نَفْسِكَ ، ولا تجعل الرجال أوصياءك » .

ونرى هذا التوازن الموسيقى فى أغلب الرسائل الباقية ، ولعل القارئ سيلاحظ ذلك فى الأمثلة الأخرى التى سنذكرها فيما يلى .

ومن الخصائص التى تبين عنايتهم بالفاظهم ، ذلك الزواج الذى يفشوف معظم رسائلهم ، والذى إن أخلى مكانه ، فإنما يخلّيه للسجع . يقول عمر بن عبد العزيز للوراق لأبى بكر بن خُزَم والى المدينة <sup>(٢)</sup> :

« إن الطَّالِبِينَ الَّذِينَ أُنجَحُوا ، والتَّجَارَ الَّذِينَ رَجَحُوا ، هم الذين اشتروا الباقي الذى يدوم ، بالفانى المذموم . فَاغْتَبَطُوا بِنَيْعِهِمْ ، وَأَحْمَدُوا عَاقِبَةَ أَمْرِهِمْ . قالَ اللهُ وَبَدَنُكَ صَحِيحٌ . وَقَلْبُكَ مُرِيحٌ . قَبْلَ أَنْ تَنْقُضَى أَيَامُكَ ، وَيَنْزَلَ بِكَ حِمَامُكَ . فَإِنَّ الْعَيْشَ الَّذِى أَنْتَ فِيهِ يَتَقَلَّصُ ظِلُّهُ ، وَيَفَارِقُهُ أَهْلُهُ . فَالسَّعِيدُ الْمُؤَفَّقُ مِنْ أَكُلٍ فِي عَاجِلِهِ قَصْدًا ، وَقَدَّمَ لِيَوْمٍ فَقَرَهُ ذُخْرًا ، وَخَرَجَ مِنَ الدُّنْيَا مَحْمُودًا ، قَدْ انْقَطَعَ عَنْهُ عِلَاجُ أُمُورِهَا ، وَصَارَ إِلَى الْجَنَّةِ وَسُرُورِهَا » .

(١) أحمد صفوت : الجمهرة ٢ : ٣٥٥ . (٢) نفس المرجع ٣٠٦ .



ويقول الحسن البصري في رسالته لعمر بن عبد العزيز التي يصف فيها الإمام العادل <sup>(١)</sup> : « اعلم ، يا أمير المؤمنين ، أن الله جعل الإمام العادل قوام كل مائل ، وقصد كل جائر ، وصلاح كل فاسد ، وقوة كل ضعيف ، ونصفة كل مظلوم ، ومفرع كل ملهوف » . ويظهر في هذه الرسالة ترادف الجمل وتوازنها ظهوراً بيناً . ويظهر السجع والازدواج في رسالة الحسن الأخرى إلى عمر بن عبد العزيز <sup>(٢)</sup> : « فانظر ، يا أمير المؤمنين ، إليها [ إلى الدنيا ] نظر الزاهد الفارق ، ولا تنظر نظر المبغى العاشق . واعلم أنها تُزيل الثاوي الساكن ، وتفجع المترف فيها الآمين ، ولا ترجع ما تولى وأدبر ، ولا بد مما هوأت منها يُنتظر ، ولا يتبع ما صفا منها إلا كدر ، فاحذرْها فإن أمانيتها كاذبة ، وأمالها باطلة ، وعيشها نكد ، وصفوها كدر » .

ومن الخصائص التي تنتشر في هذه الرسائل الاقتباس من القرآن ، يقول غيلان بن مسلم الدمشقي لعمر بن عبد العزيز <sup>(٣)</sup> :

« وربما نجت الأمة بالإمام ، وربما هلكت بالإمام ، فانظر أي الإمامين أنت . فإنه تعالى يقول : ( وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا ) . فهذا إمام هدى ، ومن اتبعه شريك . وأما الآخر ، فقد قال تعالى : ( وجعلناهم أئمة يذعون إلى النار ، ويوم القيامة لا ينصرون ) ولن تجد داعياً يقول : تعالوا إلى النار . إذن لا يتبعه أحد ، لكن الدعاة إلى النار هم الدعاة إلى معاصي الله » .

وقد يُضَمَّن القرآن تضميناً لطيفاً دون أن ينص عليه ، كما في رسالة الحسن البصري لعمر بن عبد العزيز <sup>(٤)</sup> :

(١) أحمد صفوت : الجمهرة ٢ : ٣٧٨ . (٢) نفس المرجع ٣٨٣ .

(٣) نفس المرجع ٣٩٢ . (٤) نفس المرجع ٣٨٠ .



« واعلم ، يا أمير المؤمنين ، أن لك منزلاً غير منزلك الذى أنت فيه ، يطول فيه ثوابك ، ويُفارقك أحبابك ، ويُسلمونك فى قعره فريداً وحيداً . فتزود له ما يصحبك يوم يفر المرء من أخيه ، وأمه وأبيه ، وصاحبته وبنيه . واذكر ، يا أمير المؤمنين ، إذا نُعثر ما فى القبور ، وحُصِّل ما فى الصدور ، فالأسرارُ ظاهرة ، والكتبُ لا يغادر صغيرةً ولا كبيرةً إلا أحصاها . »

ومن الخصائص الظاهرة فيها أيضاً الاقتباس من الحديث . يقول عمر بن عبد العزيز فى رسالته لعبد الملك <sup>(١)</sup> :

« أما بعد ،

فإنك راج ، وكلُّ راجٍ مسئولٌ عن رعيته . حدثني أنس بن مالك أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « كل راجٍ مسئول عن رعيته » ، « الله لا إله إلا هو ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه ، ومن أصدق من الله حديثاً . »  
ويظهر هذا الاقتباس من الحديث واضحاً فى رسالة أبى الدرداء إلى سلمان الفارسى ، وهى ترجع إلى صدر الإسلام <sup>(٢)</sup> :

« يا أخى ، اغتنم صحتك وفراغك ، قبل أن ينزل بك من البلاء ما لا يستطيع العباد رده ، واغتنم دعوة المبتلى . ويا أخى ، ليسكن المسجد بيتك ، فإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن المساجد بيت كل تقى . »  
وقد ضمن الله عز وجل لمن كانت المساجد بيوتهم بالروح والراحة والجواز على الصراط إلى رضوان الرب عز وجل . ويا أخى ، ارحم اليتيم وأذن منك ، وأطعمه من طعامك ، فإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول — وأتاه رجل يشتكى

(١) أحمد صفوت : الجمهرة ٢ : ٢٤١ .

(٢) أبو نعيم الأصبهاني : حلية الأولياء ١ : ٢١٤ .



قساوة قلبه — فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أَتُحِبُّ أَنْ يَلِينْ قَلْبُكَ ؟ فقال : نعم قال : أَذَنْ الْيَتِيمِ مِنْكَ ، وَامْسَحْ رَأْسَهُ ، وَأَطْعِمْهُ مِنْ طَعَامِكَ ، فَإِنْ ذَلِكَ يُبَلِّغُ قَلْبَكَ ، وَتَقْدِرُ عَلَى حَاجَتِكَ » . ويا أخى ، لا تجمع ما لا تستطيع شكره ، فإننى سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « يُجَاءُ بِصَاحِبِ الدُّنْيَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ الَّذِي أَطَاعَ اللَّهَ تَعَالَى فِيهَا ، وَهُوَ بَيْنَ يَدَيِّ مَالِهِ ، وَمَالِهِ خَلْفَهُ ، كُلُّهُ تَكْفَأُ بِهِ الصُّرَاطُ قَالَ لَهُ مَالُهُ : « امْضِ ، فَقَدْ أَدَيْتَ الْحَقَّ الَّذِي عَلَيْكَ » . قال : « وَيُجَاءُ بِالَّذِي لَمْ يُطِيعِ اللَّهَ فِيهِ ، وَمَالُهُ بَيْنَ كَتِفَيْهِ ، فَيُعْثَرُهُ مَالُهُ وَيَقُولُ لَهُ : « وَبَيْتُكَ ، هَلَا عَمِلْتَ بِطَاعَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي ؟ فَلَا يَزَالُ كَذَلِكَ حَتَّى يَدْعُو بِالْوَيْلِ » . ويا أخى ، إِنِّى حَدَّثْتُ أَنَّكَ اشْتَرَيْتَ خَادِمًا ، وَإِنِّى سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ : « لَا يَزَالُ الْعَبْدُ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مِنْهُ ، مَا لَمْ يُخْدَمْ ، فَإِذَا خُدِمَ وَجِبَ عَلَيْهِ الْحِسَابُ ... » .

فإن لم تقتبس الرسائل نص الأحاديث ، فإنها تقتبس منها أفكارها ، بل ألفاظها أحياناً ، وذلك أمر طبعى لا ندهش لحدوثه . وقد رأيناها فى الرسائل السابقة ، وخاصة رسائل أبى الدرداء وسلمان الفارسى وعمر ، ونراه فى رسالة سالم بن عبد الله ابن عمر بن الخطاب إلى عمر بن عبد العزيز <sup>(١)</sup> :

« أما بعد ،

فإن الله عز وجل خلق الدنيا لِمَا أَرَادَ أَنْ يَخْلُقَهَا لَهُ ، فجعل لها مُدَّةً قَصِيرَةً ، كَأَنَّ مَا بَيْنَ أَوَّلِهَا وَآخِرِهَا سَاعَةٌ مِنْ نَهَارٍ ، ثُمَّ قَضَى عَلَيْهَا وَعَلَى أَهْلِهَا الْفَنَاءَ ، فقال : « كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ، لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ » .

(١) أحمد صفوت : المجهرة ٢ : ٣٧٥ .



ونرى خاصة أخرى في الرسائل الطويلة ، وهي القصص الوعظية ، أو بالأحرى خيال الوعاظ الذين يصورون ما يريدون من أفكار في صور واقعية ، يقول سالم ابن عبد الله في رسالته السابقة لعمر بن عبد العزيز :

« إن استطعت ألاّ تُخسِرَ نفسك وأهلك يوم القيامة فافعل ، فإنه قد كان قبلك رجالٌ عملوا ما عملوا ، وأحيوا ما أحيوا من الباطل ، وأماتوا ما أماتوا من الحق ، حتى ولد في ذلك رجالٌ ونشئوا فيه ، وظنوا أنها السنة ، فسدّوا على الناس أبواب الرخاء ، فلم يسدّوا منها باباً إلا فتّح الله عليهم باب بلاء . . . فإنهم [ الموتى من خلفاء بني أمية ] قد عاينوا هول المظلم ، وعالجوا نزغ الموت الذي كانوا منه يفرّون ، فانشقّت بطونهم التي كانوا لا يشبعون بها ، وانفقت أعينهم التي كانت لا تنقطع لذتها ، واندقت رقابهم في التراب غير مؤسّدين ، بعدما تعلم من تظاهر الفرش والمرافق والشُرر والخدم ، فصاروا جيفاً في بطون الأراضى تحت مهادها ، والله لو كانوا إلى جانب مسكين لتأذى بريحهم ، بعد إنفاق ما لا يُحصى عليهم وعلى خواصهم من الطيب . »

وتوجد هذه الظاهرة أيضاً في رسالة يونس بن عبيد إلى جعفر بن برقان ، حين سأله كتابةً : « يا أخى ، اكتب إلى بما أنت عليه . » فكتب إليه يونس <sup>(١)</sup> : « أتأني كما بُك تسألني أن أكتب إليك بما أنا عليه ، وأخبرك أني عرضت على نفسي أن تحب للناس ما تُحبُّ لها ، وتكره لهم ما تكره لها ، فإذا هي من ذاك بعيد . ثم عرضت عليها مرة أخرى ترك ذكرهم إلا من خير ، فوجدت الصوم في اليوم الحارّ الشديد الحرّ ، بالهواجر بالبصرة ، أيسرَ عليها من ترك ذكرهم . هذا أمرى ، يا أخى . والسلام »

(١) أبو نعيم الأصبهاني : حلية الأولياء ٣ : ١٨ .



ونرى في كثير من هذه الرسائل تكراراً لبعض الألفاظ ، التي لها أهميتها الخاصة في الدلالة على الانفعال والشعور الثائر ، كما نرى في رسالة عمر بن عبد العزيز السابقة إلى أحد إخوانه <sup>(١)</sup> :

« يا أخى ، إنك قد قطعتَ عَظْمَ السفر وبقى أَقْلُه ، فاذا كَرُ ، يا أخى ، المصادرَ والموارد ، فقد أَوْحَى إلى نبيك صلى الله عليه وسلم في القرآن أنك من أَهْلِ الوُرُود ... يا أخى ، إن أَجَلَكَ قد دَنَا ، فَكُنْ وَصِيَّ نَفْسِكَ ... »

فهذا التكرار لكلمة « يا أخى » ومخاطبته بصيغة الخطاب فيه ، ما يشعر بحنان عمر بن عبد العزيز عليه ، وأنه يريد خيره بهذه النصيحة ، وأنها صادرة عن قلب محب وفى ، مما يجعل قارئها يتأثر بها سريعاً ، وذلك ما يأمله عمر ، وتكرر هذه الكلمة نفسها في رسالة سلمان الفارسي في حلية الأولياء <sup>(٢)</sup> .

ويظهر هذا التكرار أيضاً في رسالة الإمام العادل للحسن البصرى ، يقول <sup>(٣)</sup> :

« والإمامُ العَدْلُ ، يا أمير المؤمنين ، كالزاعى الشقيقِ على إربله ، الرفيق الذى يَرْتَاد لها أَطْيَبَ المَرْعى ، وَيَذُودُهَا عن مَرَاتِعِ الهَلَكَةِ ... والإمامُ العَدْلُ ، يا أمير المؤمنين ، كالأبِ الحَانِي على وَلَدِهِ ، يسعى لهم صغارا ، ويعلمهم كبارا ... والإمامُ العَدْلُ ، يا أمير المؤمنين ، كالأمِ الشفِيقَةِ البَرَّةِ الرَفِيقَةِ بولدها ، حملته كَرَاهًا ، ووضعته كَرَاهًا ، وربته طفلاً ... والإمام العَدْلُ ، يا أمير المؤمنين ، وصيُّ اليتامى ، وخازنُ المساكين ... والإمام العَدْلُ ، يا أمير المؤمنين ... » .

(١) أحمد صفوت : الجمهرة ٢ : ٣٥٥ .

(٢) أبو نعيم الأصبهاني : حلية الأولياء ١ : ٢١٤ .

(٣) أحمد صفوت : الجمهرة ٢ : ٣٧٩ .



ويظهر هذا التكرار أيضاً في رسالة طاووس إلى عمر بن عبد العزيز التي يقول فيها <sup>(١)</sup> :

« سلامٌ عليك يا أمير المؤمنين .

فإن الله عز وجل أنزل كتاباً ، وأحلّ فيه حلالاً ، وحرم فيه حراماً ، وضرب فيه أمثالا ، وجعل بعضه محكما ، وبعضه متشابها . فأحلّ حلال الله ، وحرم حرام الله ، وتفكر في أمثال الله ، واعمل بمحكمه ، وآمن بمتشابهه . والسلام عليك »

فهو يؤكّد كلمة « الله » و « الحلال » و « الحرام » وغيرها ، ويكررها ، ويضغط عليها ليفرى بالابتعاد عن حرام الله والأخذ بحلاله . وهذا الأسلوب شائع في حلقات الوعظ ، في الكتابة أو الحديث . يتضح هذا في حديث الحسن البصري مع عمر بن هبيرة إلى العراق حين سأل : أُطِيع أَمْرَ الخليفة ويعصى الله؟ <sup>(٢)</sup> :

« يا عمر بن هبيرة ، يُوشِكُ أَنْ يَنْزَلَ بِكَ مَلَكٌ مِنْ ملائكة الله تعالى ، فَظٌّ ، غَلِيظٌ ، لَا يَعِصِي اللَّهَ مَا أَمَرَهُ ، فَيُخْرِجُكَ مِنْ سَعَةِ قَصْرِكَ إِلَى ضَيْقِ قَبْرِكَ . يا عمر بن هبيرة ، إِنْ تَتَّقِ اللَّهَ بِعِصْمَتِكَ مِنْ عَبْدِ الْمَلِكِ [ الخليفة ] وَلَا بِعِصْمَتِكَ مِنْ عَبْدِ الْمَلِكِ مِنْ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ . يا عمر بن هبيرة ، لَا تَأْمَنْ أَنْ يَنْظُرَ اللَّهُ إِلَيْكَ عَلَى أَقْبَحِ مَا تَعْمَلُ فِي طَاعَةِ يَزِيدَ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ ... يا عمر بن هبيرة ، لَقَدْ أَدْرَكَتْ نَاسًا ... يا عمر بن هبيرة ... »

ويتضح هذا أيضا في حديث عون بن عبد الله لنفسه في بكائه <sup>(٣)</sup> :

(١) نفس المرجع ٣٩١ . (٢) أبو نعيم الأصبهاني : الحلية ٢ : ١٤٩ .

(٣) نفس المرجع ٤ : ٢٥٥ .



« وَيَحْيَى ، يَا مَيِّمَى ، لَمْ أَغْصِرْ رَبِّى . وَيَحْيَى ، إِنَّمَا عَصِيَّتُهُ بِنِعْمَتِهِ عِنْدَى ، وَيَحْيَى ... » .

وآخر الأمر يوضح لنا القرآن ذاته أن الوعظ والنصح يستمتع التكرار في بعض الألفاظ ، ويظهر هذا في تكرار كلمة « يا بنى » في صورة لقمان في أثناء النصح . ويشيع في هذه الرسائل أيضاً الطباق الذى نجده في رسالة الحسن إلى عمر التى يقول فيها <sup>(١)</sup> :

« واعلم ، يا أمير المؤمنين ، أن الصبر — وإن أذاقك تعجيل مرارته — فلننعم ما أعقبك من طيب حالاته ، وحسن عاقبته ، وأن الهوى — وإن أذاقك طعم حالاته — فلبئس ما أعقبك من مرارته وسوء عاقبته » .

ويظهر الطباق في غيرها من الرسائل أيضاً . وهناك خصائص أخرى متناثرة لا نستطيع أن نحكم بعمومها في جميع الرسائل لقلة المصادر مثل الاقتباس من الشعر ، الذى نجده في رسالة الحسن البصرى إلى عمر ، التى يقول فيها <sup>(٢)</sup> :

« والدنيا — وأيم الله ، يا أمير المؤمنين — حلم ، والآخرة يقظة ، والمتوسط بينهما الموت ، والعباد فى أضغاث أحلام ، وإنى قائل لك ، يا أمير المؤمنين ، ما قال الحكيم :

فإن تَنَجُّجَ منها تَنَجُّجٌ من عَظِيمَةٍ وإلا فإنى لا إخالكَ ناجياً  
ومثل هذا اللعب اللفظى الفكرى ، فى رسالة غيلان الدمشقى إلى عمر <sup>(٣)</sup> :

(١) أحمد صفوت : المجهرة ٢ : ٣٨٦ . (٢) نفس المرجع ٢ : ٣٨٥ .

(٣) نفس المرجع ٣٩٣ .



« فهل وجدت ، يا عمر ، حكيمًا يَعِيبُ ما يصنع ، أو يَصْنَعُ ما يَعِيبُ ، أو يُعَذِّبُ على ما قَضَى ، أو يَقْضِي بما يَعَذِّبُ عليه ؟ » ، ومثل التفكير الصوفي في رسالة الحسن إلى عمر التي يقول فيها <sup>(١)</sup> :

« أما بعد ،

فإن رَأْسَ ما هو مُصْلِحُكَ ، ومُصْلِحٌ به على يدك : الزهدُ في الدنيا ، وإنما الزهد باليقين ، واليقين بالتفكير ، والتفكير بالاعتبار . فإذا أنت تفكرت في الدنيا لم تجدها أهلاً أن تبيع بها نفسك ، ووجدت نفسك أهلاً أن تسكرها بهوان الدنيا فإنما الدنيا دار بلاء ، ومنزل غفلة » .

ولا يسود على هذه الرسائل تيار واحد من الإيجاز أو الإطناب ، بل نجد رسائل موجزة غاية في الإيجاز ، مثل رسالة عمر بن عبد العزيز إلى بعض أهل بيته <sup>(٢)</sup> :

« أما بعد ،

فإنك إن استشعرت ذكر الموت في ليلك ونهارك بُعِثَ إليك كلُّ فان ، وحُبِّبَ إليك كل باق .

والسلام »

ونجد رسائل أخرى مسهبة تستغرق الصفحات ، مثل الرسائل التي أشرنا إليها واقتبسنا منها من قبل .

وهناك ظاهرة جديدة بالعناية الشديدة لدلالاتها على ارتقاء فن الوعظ في ذلك العصر ، الارتقاء البعيد ، تلك الظاهرة هي تأليف الكتب الوعظية . فهذا أبو محمد

---

(١) أحمد صفوت : الجمهرة ٢ : ٣٨٨ .

(٢) نفس المرجع ٣٥٦ .



ابن خير الوراق الأسباني <sup>(١)</sup> ينسب إلى وهب بن منبه المؤرخ المعروف المتوفى عام ١١٠ هـ موعظة مدونة ، وكتاباً في الحكمة ، كما ينسب إليه ابن سعد الكتاب الأخير <sup>(٢)</sup> . ولم يصل إلينا الكتابان كلاهما ، ولكننا نظن أن كتاب الحكمة كتاب وعظي أيضاً ، بمعنى أنه يشتمل على الأقوال السائرة والأمثال والحكم ، التي تحاول إرشاد الإنسان وتسدّد خطاه . وعلى الرغم من ضياع هذين الكتابين نجد بعض المواعظ والحكم المنسوبة لوهب في الكتب المختلفة . ونحن إذا جمعنا هذه المواعظ وأحببنا التعرف على بعض خصائص وهب نجد مثلاً بالإنشائيات تأثراً كبيراً . فهو قد قرأ الكتب المنزلة ، وأخذ منها ، كما يصرح قائلاً : « وجدت في بعض الكتب ، أوقرات في بعض الكتب <sup>(٣)</sup> » . وقد ذكر أحياناً اسم التوراة صراحة ، فقال <sup>(٤)</sup> : « قرأت في التوراة أربعة أسطر متواليات : من قرأ كتاب الله فظن أنه لا يغفر له فهو من المستهزئين بآيات الله ، ومن شكّا مصيبة فإنما يشكّر ربه ، ومن أسف على ما في يد غيره سخط قضاء ربه عز وجل ، ومن تضعف لغنى ذهب ثلثا دينه » .

ويغلب في مواعظه ذكر أنبياء بني إسرائيل وأخبارهم وروايتهم ، يقول <sup>(٥)</sup> : « إن رجلاً من بني إسرائيل صام سبعين أسبوعاً ، يفطر في كل سبعة أيام يوماً ، وهو يسأل الله تعالى أن يريه كيف يغوى الشيطان الناس . فلما أن طال ذلك عليه ولم يجب قال : « لو أقبلت على خطيئتي وعلى ذنبي ، وما بيني وبين ربي ، لكان خيراً لي من هذا الأمر الذي أطلب » . فأرسل الله تعالى إليه ملكاً فقال : « إن الله عز وجل أرسلني إليك وهو يقول لك : إن كلامك هذا الذي تكلمت به أعجب إلى مما مضى من عبادتك ، وقد فتح بصرك

(١) المكتبة الأندلسية ٦ : ١٢٩ ، ٢٩٤ . (٢) ابن سعد : الطبقات ٧ : ٩٧ .

(٣) أبو نعيم الأصبهاني : الحلية ٤ : ٢٦ ، ٢٧ ، ٣٢ ، ٣٣ ، ٣٨ .

(٤) أبو نعيم الأصبهاني : الحلية ٤ : ٣٨ . (٥) نفس المرجع ٣٢ .



قال : « فنظر ، فإذا أحبولة لإبليس قد أحاطت بالأرض ، وإذا ليس أحد من بني آدم إلا وحوله شياطين مثل الذباب ، فقال : أي رب ، من ينجو من هذا؟ » قال : « الورع اللين » .

وقد سيطرت الإسرائيليات على وهب في كل مكان وزمان ، حتى ليلقيها على سائليه في الطريق . قال عطاء الخراساني <sup>(١)</sup> : « لقيت وهب بن منبه في الطريق فقلت : « حدثني حديثاً أحفظه عنك في مقامى ، وأوجز » . قال : « أوحى الله إلى داوود : يا داوود ، أما وعزتي وعظمتي لا يشعر بي عبد من عبادي دون خلقي ، أعلم ذلك من نيته ، فكسده السماوات السبع ومن فيهن ، والأرضون السبع ومن فيهن ، إلا جعلت له منهن فرجا ومخرجاً . أما وعزتي وعظمتي لا يعتصم عبد من عبادي بمخلوق دوني ، أعلم ذلك من نيته إلا قطعت أسباب السماوات من يده ، وأرضخت الأرض من تحته ، ولا أبالي في أي واد هلك » .

ويورد وهب في مواعظه بعض الحكم والمواعظ العربية الأصل ، يقول <sup>(٢)</sup> : « قال لقمان لابنه : يا بني أعقل عن الله ، فإن أعقل الناس عن الله أحسنهم عقلاً ، وإن الشيطان ليفر من العاقل وما يستطيع أن يكايده » . ونضيف إلى ذلك النوع المواعظ الإسلامية الصبغة . وقد نرى في هذا النوع العربي الأصل آثاراً فارسية ، يقول <sup>(٣)</sup> : قال لقمان لابنه : « يا بني ، إن مثل أهل الذكر والغفلة كمثل النور والظلمة » فالنور والظلمة آتيان من الفرس ، ولـكننا لا نجد هذا الأثر كثيراً . وهذه شذرات من مواعظه تمثل لنا هذه الخصائص . يقول <sup>(٤)</sup> :

« إن الله عز وجل حين فرغ من خلقه ، نظر إليهم حين مشوا على وجه الأرض ،

(١) نفس المرجع ٣٠ .

(٢) نفس المرجع ٢٥ .

(٣) نفس المرجع ٣٨ .

(٤) نفس المرجع ٣٤ .



فقال : « أنا الله الذي لا إله إلا أنا ، الذي خلقتك بقوتي ، وأتقنتك بحكمتي ، حقّ قضائي ، ونافذ أمرى ، أنا أعيدك كما خلقتك ، وأفنيك بحكمتي ، حتى أبقى وحدي ، فإن الملك والخلود لا يحق إلا لي ، أدعو خلقي ، وأجمعهم لقضائي ، يوم يخسر أعدائي ، وتبجل القلوب من خوفي ، وتجب الأقدام من هيبتى ، وتبرا الآلهة ممن عبدها دونى » .

ويقول <sup>(١)</sup> : « يابن آدم ، إنما جمعت من منافع هذا اليوم لدفع ضرر الجلالة عنك ، وإن ما أوقدت فيه مصابيح الهدى ليمته يحزبك . . . يابن آدم ، إنه لا أقوى من خالق ، ولا أضعف من مخلوق ، ولا أقدر من طليته في يده ، ولا أضعف ممن هو في يد طالبيه . يابن آدم ، إنه قد ذهب منك ما لا يرجع إليك ، وأقام معك ما سيذهب ، فما الجزع مما لا بد منه ؟ وما الطمع فيما لا يرتجى ؟ وما الحيلة في بقاء ما سيذهب ؟ يابن آدم . . . يابن آدم . . . ؟ » .

من هذه الفقرات المقتطفة من وهب ، يرى أن أسلوبه في القصص بسيط صريح لا يميل إلى تجويد أو تحبير ، ولكنه يعنى بالتجويد في غير القصص ، حتى ليسجع ويوازن بين العبارات ، وتسكاد تظهر فيه خصائص الرسائل الدينية الوعظية الكبيرة . ونرى عنده من تلك الخصائص القصص الخيالية ، والتكرار ، وأسلوب الخطاب ، إلى جانب السجع والموازنة .

#### الخلاصة

وخلاصة الرأي أننا نرى هذه الرسائل الوعظية تحيى بالعاطفة الشائنة ، التي



تسوق كتابها إلى العناية بأسلوبها ، فيخرج مختار الألفاظ عذبتها ، متوازن العبارات موسيقيا ، مزدوجها أو مسجعها ، وقد لبس وشيا من القرآن والحديث والشعر والتعابير المكررة ، وغير ذلك من الحلى التى تكسب الأسلوب جمالا طبيعيا موسيقيا فى أغلبه . ولكن هذه الحلى ، التى فيها الصنعة ، لم تخرج بأسلوب هذه الرسائل إلى درجة التكلف ، وإنما هى وحي الخاطر ، ودفع العاطفة . وتحالف هذه الرسائل الإخوانيات فى ازدهارها وكثرتها فى عهد عمر بن عبد العزيز ، الذى انتكست على يده الإخوانيات ، وتحالف السياسيات والإخوانيات معا فى أنها سبقتهما إلى ميدان الفن والصنعة والجمال .



## الفصل الثاني

### الرسائل الجدلية

وجد في هذا العصر نوع آخر من الرسائل الدينية لم أعثر إلا على أربع منها ، ولكن يستحب أن نقرده بالذكر ، لانفراده ببعض الخصائص . هذا النوع هو الرسائل الدينية الجدلية ، وأعني بها الرسائل التي تجادل فريقاً من الفرق الدينية ، أو مذهباً خاصاً من المذاهب الإسلامية .

#### الرسالة الأولى

تنسب أولى هذه الرسائل إلى الحسن بن علي بن أبي طالب، أرسلها إلى أهل البصرة يناقش فيها مشكلة القدر ، قال <sup>(١)</sup> :

« من لم يؤمن بالله وقضائه وقدره فقد كفر ، ومن حمل ذنبه على ربه فقد فجر ، إن الله لا يطاع استكراها ، ولا يعصى لقلبة ، لأنه المليك لما ملكهم . والقادر على ما أقدرهم عليه ، فإن عملوا بالطاعة لم يحل بينهم وبين ما فعلوا ، وإن عملوا بالمعصية فلو شاء حال بينهم وبين ما فعلوا ، فإذا لم يفعلوا فليس هو الذي أجبرهم على ذلك . فلو أجبر الله الخلق على الطاعات لأسقط عنهم الثواب ، ولو أجبرهم على المعاصي لأسقط عنهم العقاب ، ولو أهملهم لكان عجزاً في القدرة . ولكن له فيهم المشيئة التي غيَّبها عنهم ، فإن عملوا بالطاعات كانت له المنة عليهم ، وإن عملوا بالمعصية كانت له الحجة عليهم . . . » .

(١) أحمد صفوت : الجمهرة ٢ : ٢٥ .



ويرى الناظر في هذه الرسالة أنها تبين وجهة نظر واحدة ، وأغنى بذلك أنها تحاول إقامة الدليل على حرية الإرادة الإنسانية مع الإيمان بقضاء الله وقدره ، دون التفات إلى رأى المخالف ، وتفنيده أقواله ، ونقض أدلته . وإذن فهي ليست جدلية بالمعنى المعروف ، ولذلك نرى فيها كثيراً من التحلية التي لم يكن يتحلى بها الأسلوب الجدلى في ذلك العهد — كما نراه في الرسائل التالية — مثل السجع الخفيف . ونرى في أسلوبها سمواً ، وفي عباراتها إحكاماً ، وفي ألفاظها عناية واختياراً ، ولعلها أكثر مما يوجد في الرسائل الجدلية الأخرى الآتية ، ما عدا رسالة ابن عباس .

ونحن لا نستطيع أن نطمئن إلى صدق هذه الرسالة أو كذبها ، لأن الكلام عن مشكلة القدر يبدو أنه ظهر عند المسلمين في زمن مبكر جداً . إذ أننا عندما نقرأ تراجم الصحابة والتابعين نرى هذه المشكلة شائعة في أوائل عهد هؤلاء وأواخر عهد أولئك ، مما يجعلنا نظن أنها كانت موجودة فعلاً في زمن الحسن . ولكن قد يؤدي بنا أسلوب الرسالة ، أو السجعة الأولى منها ، التي تبدو ، في نظري على الأقل — قلقة ، إلى استنكارها ؛ وخاصة أن أصحاب المذاهب فيما بعد كانوا يحاولون دعمها بالأقوال التي يضعونها على أفواه من سبقهم من الصحابة والتابعين ، بل الرسول أيضاً . ولكننا لا نستطيع الجزم بشيء ، وإنما هو التردد والحيطة .

### الرسالة الثانية

وأما الرسالة الثانية فكتبها عبد الله بن عباس إلى مجبرة الشام ، قال (١) :

« أما بعد ،

---

(١) أحمد صفوت : الجمهرة ٢ : ٢٥٠ .



أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالتَّقْوَىٰ وَبِكُمْ ضَلَّ الْمُتَقُونَ، وَتَنْهَوْنَ النَّاسَ عَنِ الْمَعَاصِي وَبِكُمْ ظَهَرَ الْعَاصُونَ؟ يَا أَبْنَاءَ سَلَفِ الْمُقَاتِلِينَ، وَأَعْوَانَ الظَّالِمِينَ، وَعُمَّارِ مَسَاجِدِ الْفَاسِقِينَ، وَخُزَّانِ مَلَفِ الشَّيَاطِينِ. هَلْ مِنْكُمْ إِلَّا مُفْتَرٍ عَلَى اللَّهِ يَحْمِلُ أَجْرَاهُ عَلَيْهِ، وَيَنْسِبُهَا عَلَانِيَةً إِلَيْهِ. . . .

ويرى قارىء هذه الرسالة منذ النظرة الأولى ذلك السجع الغالب عليها، الذى قد يخلى مكانه فى آخرها للازدواج. ويرى فيها الجمل متوازنة توازنًا موسميًا نتيجة ترادفها. ويرى الرسالة خالية من الجدل والنقاش بالرأى أو الدليل، وإنما هى سب وشتم وتقبيح لأعمالهم دون محاولة لإقناعهم ببطلانها. وتلك هى جملة خصائص هذه الرسالة التى نرى فيها صنعة وعناية وفنا، وهى خصائص تبعدها كل البعد عن الرسالة السابقة، بل تجعلها نسيج وحدها كما سنرى بعد.

### الرسالة الثالثة

ونرى الأسلوب الجدى الحق، حين ننظر فى الرسالة الثالثة، التى أرسلها الحسن البصرى، أستاذ وأصيل بن عطاء رأس المعتزلة، إلى عبد الملك بن مروان، عن طريق الحجاج، يعرفه فيها برأيه فى القدر<sup>(١)</sup>. ويبدأ الحسن رسالته ببيان مسلك الصحابة وعدم خوضهم فى هذه المشكلة، وأنه ما دفعه إلى الكلام فيها إلا خوض الناس وإنكارهم للقدر، فيقول بعد السلام والحمد والدعاء لأمير المؤمنين:

« وقد أدر كننا، يا أمير المؤمنين، السلف الذين عملوا بأمر الله، ورووا

(٢) نفس المرجع ٢٦٨. ورسالة الحسن البصرى، مخطوطة فى دار الكتب المصرية تحت رقم ٥٢٢١ أدب.



حكمته ، واستثنوا بسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، فكانوا لا يشكرون حقاً ، ولا يحقون باطلاً ، ولا يُدحِقون بالرب تبارك وتعالى إلا ما ألحق بنفسه ، ولا يحتجون إلا بما احتج الله به على خلقه في كتابه . فإن الله تبارك وتعالى يقول ، وقوله الحق : « وما خلقت الجن والانس إلا ليعبدون . ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون » . فأمرهم الله بعبادته التي لها خلقهم ، ولم يكن ليخلقهم لأمرهم يحول بينهم وبينه ، لأنه تعالى ليس بظلام للعبيد . ولم يكن أحد ممن مضى من السلف ينكر هذا القول ، ولا يجادل فيه ، لأنهم كانوا على أمر واحد متفقين . . . وإنما أحدثنا الكلام فيه لما أحدث الناس النكرة له ، فلما أحدث المحدثون في دينهم ما أحدثوه ، أحدث الله للمتمسكين بكتابه ما يبطلون به المحدثات ، ويحذرون به من المهلكات . ثم يأخذ الحسن في تفنيد أقوالهم بالآيات القرآنية ، فيقول :

« فافهم أيها الأمير ما أقوله ، فإن ما ينهى الله عنه فليس منه ، لأنه لا يرضى ما يسخطه من العباد ، لأنه تعالى : يقول : « ولا يرضى لعباده الكفر » . فلو كان الكفر من قضائه وقدره لرضى عنه عمله .

« ولو كان الأمر كما قال المخطئون لما كان لتقدم حقدنا على متأخر لوم ، ولقال تعالى : « جزاء بما عملت أيديهم » ولم يقل : « جزاء بما كانوا يعملون » . « إن أهل الجهل قالوا : « إن الله يضل من يشاء ، ويهدي من يشاء » . ولو نظروا إلى ما قبل الآية وما بعدها ، لتبين لهم أن الله تعالى لا يضل إلا بتقدم الفسق والكفر لقوله تعالى : « ويضل الله الظالمين » أى يحكم بضلهم » . ويستمر الحسن على هذا المنوال من تفنيد آرائهم بالأدلة القرآنية .

وهكذا لا نجد في هذه الرسالة شتماً أو سباً ، غير تسميته للمخالفين بأهل الجهل



والخطئين والخالفين لكتاب الله ، ولكن كل هذا لا يعادل ما في رسالة ابن عباس القائمة على هذا النوع من القول . وإنما نجد فيها أسلوباً جديلاً بسيطاً جميلاً ، يعتمد على الأدلة والبراهين المأخوذة من الآيات القرآنية . وهى تقارب رسالة الحسن ابن علي إلا أن الحسن البصرى يعتمد على الأدلة القرآنية على حين يعتمد الحسن ابن علي على الأدلة العقلية ، ولا يستشهد في رسالته بشيء من القرآن .

#### الرسالة الرابعة

وأخيراً نصل إلى الرسالة الرابعة التى تتناول مشكلة القدر أيضاً ، وذلك مما يؤكد قول بعض العلماء الذين يذهبون إلى أن الكلاميين الأمويين كانت جل همهم ، إن لم يكن كله ، منصبا على هذه المشكلة وحدها . وقد كتب هذه الرسالة عمر بن عبد العزيز إلى نفر كذبوا بالقدر ، فقال <sup>(١)</sup> :

« أما بعد ،

فإنكم كتبتم إلى بما كنتم تسترون منه قبل اليوم ، فى رد علم الله والخروج منه إلى ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتخوف على أمته من التكذيب بالقدر . وقد علمتم أن أهل السنة كانوا يقولون : « الاعتصام بالسنة نجاة » ، وسيقبض العلم قبضا سريعاً » ، وقول عمر بن الخطاب وهو يعظ الناس : « إبه لا عذر لأحد عند الله بعد البينة بضلالة ركبها حسبها هدى ، ولا فى هدى تركه حسبه ضلالة ، قد تبينت الأمور ، وثبتت الحجة ، وانقطع العذر . . . »

ثم يأخذ فى مناقشتهم ، مبتعداً عن الشتم ، ومستعيناً بالأدلة القرآنية :

---

(١) أبو نعيم الأصبهاني : حلية الأولياء ٥ : ٣٤٦ .



« وإني أكرّم أني بلغكم أني أقول : « إن الله قد علم ما العباد عاملون ، وإلا لم هم صائرون » ، فأنا كرتم ذلك على ، وقتتم : « إنه ليس يكون ذلك من الله في علم ، حتى يكون ذلك من الخلق عملا » . فكيف ذلك كما قلتم ، والله تعالى يقول : « إنا كاشفوا العذاب قليلا إنيكم عائدون » يعني عائدون في الكفر ، وقال تعالى : « ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه ، وإنيهم لكاذبون » . ويناقشهم أيضا بالأدلة العقلية مع القرآنية . فيقول :

« فزعمتم بجهلكم في قول الله تعالى « فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر » أن المشيئة في أي ذلك أحببتكم فعلتم ، من ضلالة أو هدى ، والله تعالى يقول : « وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين » فبمشيئة الله لهم شاءوا ، ولو لم يشأ لم يبالوا بمشيئتهم من طاعته شيئا قولا ولا عملا ، لأن الله تعالى لم يملك العباد ما بيده ولم يفوض إليهم ما يمنه من رسله ، فقد حرصت الرسل على هدى الناس جميعا ، فما اهتدى منهم إلا من هداه الله ، ولقد حرص إبليس على ضلالتهم جميعا ، فما ضل منهم إلا من كان في علم الله ضالا » .  
ويظهر الجدل العقلي في قوله أيضا :

« وزعمتم بجهلكم أن علم الله تعالى ليس بالذي يضطر العباد إلى ما عملوا من معصيته ، ولا بالذي صدرهم عما تركوه من طاعته ، ولكنه بزعمكم « كما علم الله أنهم سيعملون بمعصيته » كذلك علم أنهم يستطيعون تركها » فجعلتم علم الله لغوا ، تقولون : « لو شاء العبد لعمل بطاعة الله ، وإن كان في علم الله أنه غير عامل بها ، ولو شاء ترك معصيته ، وإن كان في علم الله أنه غير تارك لها » . فأنتم إذا شئتم أصبتموه ، وكان علما ؛ وإذا شئتم ردّتموه ، وكان جهلا . وإن شئتم أحدثتم من أنفسكم علما ليس في علم الله ، وقطعتم به علم الله » .

ولا يكتفى بالأدلة القرآنية والعقلية ، بل يستنبط الأدلة أيضا من الأخبار والآثار يقول :  
« إن الله لم يجعل فضله ورحمته هملا بغير قسم منه ولا اختيار ، ولم يبعث رسله بإبطال



ما كان في سابق علمه . . . فسميتم نفاذ علم الله في الخلق حيفا . وقد جاء الخبر « إن الله خلق آدم ، فنثر ذريته في يده ، فكتب أهل الجنة وما هم عاملون ، وكتب أهل النار وما هم عاملون » .

وإذا ما نظرنا في الصياغة الأدبية لهذه الرسالة ، وجدنا أسلوبها بسيطا يجري دون تكلف أو تجمل ، فهي جدل عادي صريح ، وأما رسالة الحسن البصري فاسمى منها أسلوبا ، وأكثر منها عناية بالألفاظ واختيارها . وقد كان ذلك شأن الحسن وعمر أيضاً في النوع الأول من الرسائل الدينية والرسائل الإخوانية .

#### المقدمة

وصفوة القول أننا نرى هذه الرسائل جميعها تتناول مشكلة القدر<sup>(١)</sup> ، كما نرى ثلاثاً منها تؤيد حرية الإرادة الإنسانية ، وهي رسائل الحسن بن علي وابن عباس والحسن البصري . فأما رسالة ابن عباس فيمكن إغضاء النظر عنها ، وإلحاقها بالنوع الأول من الرسائل الدينية ، لأنها ليست من الجدليات في شيء . وأما رسالة الحسن ابن علي فهي جدلية تمتاز بكشف النقاب عن رأى صاحبها ، والتدليل العقلي عليه ، دون أدنى نظر إلى الآراء المخالفة له . وأما رسالة الحسن البصري ففيها الجدل

---

(١) ينسب ياقوت كتاباً في هذه المشكلة إلى وهب بن منبه المتوفى عام ١١٠ هـ ، والذي كان يقول بالقدر ثم رجع عن ذلك . ولم يصل إلينا هذا الكتاب ، ولا أية شذرات منه لنستطيع استنباط خصائصه ، وإن كنا نظن أنه لا يعدو أن يكون رسالة صغيرة تتمتع بما تتمتع به كتابات وهب الأخرى .







## البَابُ الرَّابِعُ

### الكتاب

## الفصل الأول

### حلقة سالم

لعلنا الآن نستطيع أن نتصور أنواع كتابة الرسائل تصوراً صحيحاً واضحاً ،  
ولسنا بحاجة إلا إلى معرفة بعض الأعلام البارزين ، حتى تمثل الصورة أمام أعيننا  
كاملة شاملة . وقد ورد في أثناء الحديث بعض أسماء ، ولكن المراجع الخاصة بهم  
ناقصة قليلة ، لا تمدنا بالمواد التي يستطاع تصوير شخصية حية منها . كما أننا كتابة  
الرسائل تتخذ صورتها النهائية عند جماعة الموالى الذين رأسوا ديوان الرسائل منذ  
عهد هشام ، وأعنى بهم سالما مولى هشام وتلاميذه ، ولذلك نخصهم بالدراسة هنا . وعلى  
الرغم من ذلك لم يصل إلينا من أخبار سالم إلا القليل الذي لا يمكننا من معرفته  
معرفة واضحة .

سالم :

هو سالم أبو العلاء ، مولى هشام بن عبد الملك وكاتبه ، وختن عبد الحميد بن  
يحيى السكاتب وأستاذه . ويعدّه ابن النديم أحد الفصحاء البلغاء <sup>(١)</sup> ، أو أحد  
البلغاء العشرة الأول عند العرب <sup>(٢)</sup> . وكان يعرف اللغة اليونانية ، وترجم منها

(١) ابن النديم : الفهرست ١١٧ . (٢) نفس المرجع ١٢٦ .



بعض رسائل أرسطو إلى تلميذه الإسكند المقدوني<sup>(١)</sup>. وذكر ابن الفديم أن رسائله جمعت في مجلد يبلغ مئة ورقة<sup>(٢)</sup>، ولكن مما يؤسف له أن هذا المجلد قد ضاع، ولم يصل إلينا من سالم غير رسالتين إخوانيتين قصيرتين. ومن الطبيعي أننا لا نستطيع أن نحكم على كاتب من رسالتين، وخاصة أن كلا منهما لا تزيد على ثلاثة أسطر. وقد تناولنا إحداهما من قبل، ونحاول هنا أن نتبين مزايا الأخرى.

### رسائل سالم

كتب إلى أحد إخوانه يعتذر<sup>(٣)</sup> :

« أمتعتك الله وأمتع بك ، لولا أنه إذا ضاق على المخرج لك، وسِعَ عذري، بسطت لسان لا أمتي في تركك لأمتي فيما خالف هواك » .

ونرى في مفتتحها لعباً بالألفاظ، ونجده يفكر في طريقة الاعتذار قبل تدوينه وكيف يأتي بالجديد المبدع حتى لا يكون اعتذاراً عادياً بسيطاً. ولعل هذا يشعرنا بأنه كان يتروى أيضاً في ألفاظه وأساليبه، ويحاول أن يجدد فيها.

ويورد الطبري<sup>(٤)</sup> رسالة مجهولة المؤلف، صادرة من ديوان هشام بن عبد الملك إلى خالد بن عبد الله القسري وإلى العراق. ونحن نناقشها هنا، لأنها توضح الخصائص التي كانت تتجلى بها دائرة الكتاب المحيطة بهشام، والتي كانت تتألف من سالم وتلاميذه، وربما كانت الرسالة صادرة من سالم نفسه، كما يرجح

(١) نفس المرجع ١٧ . (٢) نفس المرجع ١٧ .

(٣) أحمد صفوت: الجهرة ٢ : ٣١ .

(٤) تاريخ الطبري ٢ : ١٦٤٢ .



أستاذي الدكتور شوقي ضيف<sup>(١)</sup> . ذكر الطبري أن ابن عمرو بن سعيد بن العاص دخل على خالد القسري فاستخف به وعضه بلسانه ، فشكاه ابن عمرو إلى هشام ، فأرسل إليه هذه الرسالة يوبخه فيها ، قال :

« أما بعد ،

فإن أمير المؤمنين — وإن كان أطلق لك يدك ورأيك فيمن استرعاك أمره ، واستحفظك عليه ، للذي رجا من كفايتك ، ووثق به من حسن تدبيرك — لم يفرشك غرة أهل بيته ، لتطأه بقدمك ، ولا تحد إليه بصرك ، فكيف بك وقد بسطت على غرتهم بالعراق لسانك بالتوبيخ ؟ ! تريد بذلك تصغير خطره ، واحتقار قدره . . . »

والرسالة طويلة تستطيع أن تعطينا شيئاً من تلك المزاي والخصائص التي يريدها . ولعل أول ما لاحظنا على الفقرة التي ذكرتها سابقاً ، ذلك الاعتراض الطويل الذي يندر أن نرى مثله في الأسلوب العربي الخالص ، وإنما نراه في الأساليب الفارسية واليونانية . ثم إننا إذا دققنا النظر في الرسالة وجدنا فيها ميلاً ظاهراً للسبب والمنطق والعقل ، ولعل ذلك من تأثير أرسطو في هذه الدائرة . ويظهر لنا هذا الميل في سيرها الطبيعي المتسلسل في أفكارها ، وفي ميلها لتوضيح كل معنى تأتي به . وقد أدى ذلك إلى كثرة استعمال الحال فيها ، كثرة لانراها في الرسائل الأخرى ، اللهم إلا رسائل حلبة هشام ، تقول :

« زعمت بالنصفة منه ، حتى أخرجك ذلك إلى الإغلاظ في اللفظ عليه في مجلس العامة ، غير متحلل له — حين رأيته مقبلاً — عن صدر مهادك ، الذي

---

(١) الدكتور شوقي ضيف : الفن ومذاهبه في النثر العربي ٣٨ ، ٤١ .



مهمله الله ، وفي قومك من يهلك بحسبك ، ويغمر بك بأوليته ، فملت مهادك بما رفع به آل عمرو من ضمتك خاصة ، مساوين بك فروع غرر القبائل وقرومها قيل أمير المؤمنين ، حتى حلت هضبة أصبحت تنحوبها عليهم مفتخراً ، هذا إن لم يدهده عك قلة شكرك متحطاً وقيداً ، فهلا — يا ابن مجرشة قومك — أعظمت رجلهم بليك داخلا ، ووسعت مجلسه إذ رأته إليك مقبلاً ، وتجايفت له عن صدر فراشك مكرماً ، ثم فاوضته مقبلاً عليه ببشرك إكراماً للأمير المؤمنين ، فإذا أطمأن به مجلسه نازعته بحبي السرار ، معظماً لقربته ، عارفاً لحقه <sup>(١)</sup> .

وقد أدى إكثاره من استعمال الحال ببعض الباحثين إلى القول بأن سالماً كان على اتصال باللغة اليونانية ، التي يستعمل فيها الحال للتوضيح والتدقيق استعمال سالم وحليته له . ومن مظاهر ميل هذه الرسالة للتوضيح تدقيقها في ذكر الأسباب والعلل في كل خطواتها ، فالكاتب يذكر خالداً بأمر من الأمور ، ثم يورد سبب هذا الأمر ، وهلم جراً . ولذلك يكثر فيها أسلوب العلة ، من ذكر لام التعليل وفاء السببية وما إلى ذلك ، مما يبدو في الفقرتين اللتين ذكرتهما وفي غيرها من الفقرات . وكان هذا الميل للوضوح والدقة سبباً في إطنابها ، وتكرار بعض عباراتها ، مع تغيير الألفاظ ، فأدى ذلك — مع العناية الظاهرة فيها بالألفاظ — إلى توازن الجمل ، وتلاؤم موسيقى العبارات . ومن الخصائص التي تفتأثر فيها السجع الخفيف القليل ، بل النادر ، كما تمتاز بتقابل الألفاظ في العبارات المتجاورة وتآلفها .

(١) تنجوهنا : أى تشرف وتطل . ويدهده : يدحرج . والوقيد : الصريع . والمجرشة : الماشطة . والسرار : المسارة .



### عبد الله بن سالم

ويبدو أن سالماً بث خصائصه في تلاميذه ، حتى غلبت عليهم ، نرى ذلك عند ابنه عبد الله وتلميذه عبد الحميد . وقد وصلنا من عبد الله بن سالم رسالة على لسان هشام بن عبد الملك لخالد بن عبد الله القسري ، يلومه لضربه سهيل بن حسان النبطي وإفراطه في الدالة على هشام <sup>(١)</sup> ، يقول :

« بسم الله الرحمن الرحيم .

أما بعد ،

فقد بلغ أمير المؤمنين عنك أمر ، لم يحتمله لك إلا لما أحب من ربّ الصنيعة قبلك ، واستتمام معروفه عندك . وكان أمير المؤمنين أحق من استصلح ما فسد عليه منك ، فإن تعد لثقل مقاتلك ، وما بلغ أمير المؤمنين عنك ، رأى في معاجلتك بالعقوبة رأيه . إن النعمة إذا طالت بالعبد ممتدة أبطرت ، فأساء حمل الكرامة ، واستقل العافية ، ونسب ما في يديه إلى حيلته ، وحسبه ، وبيته ، ورهطه وعشيرته . فإذا نزلت به الغير ، وانكشطت عنه عماية النعي والسلطان ، ذل منقاداً وندم حسيراً ، وتمكن منه عدوه قادراً عليه ، قاهراً له . . . وتوجيهك أخاك أسداً إلى خراسان مظهراً العصبية بها ، متحاملاً على هذا الحى من مضر ، قد أتت أمير المؤمنين - بتصغيره بهم ، واحتقاره لهم ، وركوبه إياهم - الثقات » .

ونرى في هذه الرسالة إطناباً بتكرار المعنى الواحد في الجملة والجملةتين ،

---

(١) أحمد صفوت : الجمهرة ٢ : ٤٠٣ ، المبرد : الكامل ٢ : ٢٩٧ .

وانظر التشابه بين هذه الرسالة وسابقتها .



وتسكرر الألفاظ المترادفة ، وتأكيده معنى الجملة الأولى بما يقرب من معناها في  
الجملة الثانية . ويبرز فيها الحال قريبا من بروزه في الرسالة الأولى . ونستطيع أن  
نوجز، فنقول إن روح الرسالتين متقارب، مما يجعلنا نميل إلى أن خصائص الرسالتين  
كانت تتحلل بها مدرسة سالم كلها . ولعل سالما بث في تلاميذه أسلوبه الكتابي  
وحبه للثقافة اليونانية ، وربما وجههم جميعا إلى تعلمها ، فظهر هذا الأثر واضحا  
جليا فيهم .



## الفصل الثاني

عبد الحميد بن يحيى

يعتبر عبد الحميد بن يحيى مولى الأمويين أو العامريين أشهر كتاب العصر الأموي . وتكثر الأخبار المضطربة التي يناقض بعضها بعضا عن عبد الحميد، منذ ولادته حتى مماته . ولكننا لا نتعرض لسكل هذه الأقوال التي تخبط في دياجير الظلام ونسكتفي بما تكاد تجمع عليه الروايات . فهو من أصل فارسي<sup>(١)</sup> ، من الأنبار ثم سكن الرقة<sup>(٢)</sup> ، واشتغل في أول أمره بتعليم الصبيان ، وأخذ يتنقل في البلدان المختلفة<sup>(٣)</sup> ، ثم التحق بديوان الرسائل في عهد هشام بن عبد الملك في القالب ، وتلذذ لرئيسه وخنته سالم<sup>(٤)</sup> . وأخيرا صار كاتب مروان بن محمد، قبل أن يتولى الخلافة أيام ولايته على أرمينية . فلما تولى الخلافة تقلد رياسة الديوان له وبقى مخلصا وفياله ، حتى قتل معا في بلدة بوصير بمصر<sup>(٥)</sup> .

ويبدو أن عبد الحميد كان مرضى الأخلاق ، وفيما ، كريما ، ذا مروءة ورأى ، حتى كثرت حوله الأفاصيص الصحيحة والموضوعة . يقول الجهمشياري<sup>(٦)</sup> : «ولما

(١) الإصطخري : مسالك . المالك ١٤٥ . (٢) ابن خلكان الوفيات ١ : ٣٠٧ .

(٣) نفس المرجع ، وابن النديم : الفهرست ١٧ .

(٤) ابن خلكان : نفس الموضوع . والجهمشياري : الوزراء والكتاب ٦٢ .

(٥) ابن خلكان : نفس الموضوع . أما الروايات الأخرى القائلة بهرويه في الجزيرة أو غيرها ، وقتله هناك ، فلا تقوم على دعامة قوية ، وإنما مات عبد الحميد في مصر ، بدليل أنه كان له عقب بها ، لم يكن في أوائلهم ذو نباهة ، ولكن لما جاء أحمد بن طولون إلى مصر ، اتصل به أربعة نفر من ولده يعرفون ببني المهاجر ، وإن كان ارتفاع نجمهم لم يستمر طويلا . ( الجهمشياري : الوزراء والكتاب ٨٢ . )

(٦) نفس المرجع ٧٩ . والمسعودي : مروج الذهب ٣ : ١٧٨ .



قوى أمر بنى العباس وظهر ، قال مروان لعبد الحميد : « إنا نجد في الكتاب أن هذا الأمر زائل عنا لا محالة ، وسيضطر إليك هؤلاء القوم — يعني ولد العباس — فصر إليهم . فإني أرجو أن تتمكن منهم فتتفعلنى في مُحَلِّقَى ، وفي كثير من أسبابي فقال له : « وكيف لي بأن يعلم الناس جميعاً أن هذا عن رأيك ، وكلهم يقول : إني غدرت وصرت إلى عدوك » . وأنشد :

أَسِرُّ وفاء ثم أَظْهِرُ غَدْرَةً      فَمَنْ لي بعذر يوسع الناس ظاهِرُهُ ؟  
وأنشد أيضاً :

فدني ظاهراً لا عيب فيه      للأنمة وعذري بالمعيب  
فلما سمع ذلك مروان علم أنه لا يفعل . ثم قال له عبد الحميد : « الذي أمرتني به أنفع الأمرين لك ، وأقبحهما بي ، لك على الصبر معك إلى أن يفتح الله عليك أو أقتل معك » .

### رسائل عبد الحميد : رسالة إلى الكتاب

علينا الآن أن نقف عند بعض رسائل عبد الحميد قليلاً ، لنتملى من خصائصه وتبرز أمامنا مزاياه . والرسالة الأولى التي أكتب الكلام عنها رسالته إلى الكتاب <sup>(١)</sup> . وهي تقع في قريب من أربع صفحات من كتاب صبيح الأعشى . ويرمى فيها عبد الحميد إلى تبليغ الكتاب ما يحتاجون إليه من ثقافة ، ومن أخلاق ، ولذلك تزخر بالوصايا والنصائح . وقد اكتسبت أهمية خاصة حتى صارت دستوراً يرجع إليه الكتاب ليستوحوها ، ويتحلوا بفضائلها :

(١) أحمد صفوت : الجهرة ٢ : ٥٣٤ .



يبدأ عبد الحميد رسالته بمخاطبة الكتاب ، ويبين لهم أن الله عز وجل جعل الناس بعد الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، ومن بعد الملوك المكرمين ، أصنافاً وأنه جعل « معشر الكتاب في أشرف الجهات ، أهل الأدب والمروءة ، والعلم والرواية » .

ثم يبين حاجتهم « إلى إجماع خلال الخير المَحْمُودَة ، وخصال الفضل المذكورة المَعْدُودَة . . . فإن الكاتب يحتاج من نفسه ، ويحتاج منه صاحبه الذي يثق به في سَهَمَاتِ أموره : أن يكون حليماً في موضع الحلم ، فهيماً في موضع الحكم ، مقدماً في موضع الإقدام ، مخجماً في موضع الإحجام . . . قد نظر في كل فن من فنون العلم فأحسكه ، فإن لم يحسكه أخذ منه بمقدار ما يكتفي به » إلى آخر الصفات المحمودة التي يرى أنه ينبغي أن يتصفوا بها .

ثم يذكر لهم العلوم والآداب التي يجب أن يعرفوها ويتنافسوا فيها ، فيقول : « وَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ ، وَابْدَءُوا بِعِلْمِ كِتَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، وَالْقِرَائِضِ ، ثُمَّ الْعَرَبِيَّةِ ، فَإِنَّهَا تَقْفُ أَسْنَنَكُمْ ، ثُمَّ أَجِيدُوا الْخَطَّ فَإِنَّهُ حِلْيَةُ كُتُبِكُمْ ، وَارْزُقُوا الْأَشْعَارَ ، وَاعْرِفُوا غَرِيبَهَا وَمَعَانِيَهَا ، وَأَيَّامَ الْعَرَبِ وَالْعَجَمِ ، وَأَحَادِيثَهَا وَسِيَرَهَا ، فَإِنَّ ذَلِكَ مُعِينٌ لَكُمْ عَلَى مَا تَسْمُو إِلَيْهِ هِمَمَكُمْ ، وَلَا تُضَيِّعُوا النَّظَرَ فِي الْحِسَابِ ، فَإِنَّهُ قَوَامُ كُتَابِ الْخُرَاجِ » .

ويسمو بهم على الرذائل ، والأخلاق الذميمة ، فينصحهم : « وَارْغَبُوا بِأَنْفُسِكُمْ عَنِ الْمَطَامِعِ ، سَتِيهَا وَدَرِيهَا ، وَسَقَسَافِ الْأُمُورِ وَتَحَاقِرِهَا فَإِنَّهَا مَذَلَّةٌ لِلرَّقَابِ ؛ مَفْسَدَةٌ لِلْكِتَابِ . وَنَزَّهُوا صِنَاعَتَكُمْ عَنِ الدَّنَائَاتِ ، وَارْبُتُوا بِأَنْفُسِكُمْ عَنِ السَّعَايَةِ وَالنَّمِيمَةِ وَمَافِيهِ أَهْلُ الْجَهَالَاتِ . وَإِيَّاكُمْ وَالْكِبَرِ وَالصَّلَفَ وَالْعُظْمَةَ ، فَإِنَّهَا عِدَاوَةٌ مُجْتَلِبَةٌ مِنْ غَيْرِ إِحْنَةٍ » .



ويحضهم على التحاب والتعاون فيما بينهم ، فإن « نبا الزمانُ برجلٍ منكم فاعطفوا عليه وواسوه ، حتى يرجع إليه حاله ، ويثوب إليه أمره . وإن أقعد أحدكم الكبكر عن مكسبه ولقاء إخوانه ، فزوروه ، وعظموه ، وشاوروه » .

ويحثهم على الوفاء لأوليائهم وساداتهم ، والإخلاص لهم ، فإن « الرجل منكم إذا صحبه الرجل [ الخليفة أو الأمير ] يبدل له من نفسه ، ما يجب له عليه من حقه ، فواجب عليه أن يعتقد له من وفائه وشكره ، واحتماله وصبره ، ونصيحته ، وكتان سره ، وتدير أمره ، ما هو جزاء لحقه » .

وآخر الأمر يشرح لهم ما يجب عليهم من حسن السياسة وبعد النظر حين ولايتهم « فإذا ولي الرجل منكم ، أو صير إليه من أمر خلق الله وعباله أمر ، فليراقب الله عز وجل ، وليؤثر طاعته ، وليكن على الضعيف رفيقاً ، وللمظلوم منصفاً . فإن الخلق عيال الله ، وأحبهم إليه أرققهم بعباله ، ثم ليكن بالعدل حاكماً ، وللأشراف مكرماً ، وللغنى مؤثراً ، وللبلاد عامراً ، وللرعية مثاقفاً ، وعن إيذائهم متخلفاً ، وليكن في مجلسه متواضعاً حليماً ، وفي سجات خراجهم واستقصاء حقوقه رفيقاً » .

« وإذا صحب أحدكم رجلاً فليختبر خلائقه ، فإذا عرف حسنها وقيمتها ، أعانه على ما يوافقه من الحسن ، واحتال لصرفه عما يهواه من القبيح ، بالطف حيلة ، وأجل وسيلة . وقد علمتم أن سائس البهيمة إذا كان بصيراً بسياستها التمس معرفة أخلاقها . فإن كانت رموحاً لم يزعجها إذا ركبها ، وإن كانت شبوباً اتقاها من قبل يديها ، وإن خاف منها شردوا توقاها من ناحية رأسها ، وإن كانت حرؤناً قمع برقي هواها في طريقها ، فإن استمرت عطفها يسيراً ، فيسلس له » .



قيادها . وفي هذا الوصف من السياسة دلائل لمن ساس الناس وعاملهم ،  
وجربهم وداخلهم .

ويستمر في تبين السياسة التي يجب اتباعها من الاعتدال وتجنب السرف :  
« ولا يُجاوِزَنَّ الرجلُ منكم — في هيئته مجلسه ، وملبسه ، ومركبه ،  
ومطعمه ، ومشربه ، وبنائه ، وخدمه ، وغير ذلك من فنون أمره — قدرَ حقِّه ...  
واستعينوا على عفافكم بالقصد في كل ما ذكرته لكم ، وقصصته عليكم .  
واحذروا متآلف السرف ، وسوء عاقبة الترف ، فإنهما يُعقِبان الفقر ، ويُذِلَّان  
الرقاب ، ويُفضِخان أهلها . »

ثم ينبههم إلى تجنب الإكثار من الكلام والوصف :

« واعلموا أنَّ للتدبير آفةً مُتلفَةً ، وهي الوصفُ الشاغل لصاحبه عن إنفاذ  
عمله ورويته . فليَقْصِدِ الرجلُ منكم في مجلسه قَصْدَ الكافي من منطق ، ولْيُوجِزْ  
في ابتدائه وجوابه ، ولْيَأْخُذْ بِمَجَامِعِ حُجَجِهِ ، فإن ذلك مصلحةٌ لفعله ، ومدفعةٌ  
للتشاغل عن إكثاره . »

ويختم الرسالة بالإشارة إلى التواضع وعدم الغرور :

« ولا يَقُلْ أَحَدٌ منكم إنه أَبْصَرُ بِالْأُمُورِ ، وأَحْلَى لِعِبِّ التَّدْبِيرِ ، من  
مُرافِقِهِ في صناعته ، ومُصاحِبِهِ في خدمته . فإن أَعْقَلَ الرجلين عند ذوى الألياب  
من رمى بالعُجْبِ وراء ظهره ، ورأى أنَّ صاحِبَهُ أَعْلَى مِنْهُ ، وأَحْمَدُ في طريقته . »

« وأنا أقولُ في كتابي هذا ما سبق به المثل « مَنْ يَلْزَمِ النَّصِيحَةَ يَلْزَمُهُ  
الْعَمَلُ » ، وهو جوهر هذا الكتاب ، وغُرَّةُ كلامه ، بعد الذي فيه من ذكر الله  
عز وجل . فلذلك جعلته آخره ، وتممته به . تولانا الله وإياكم يا معشرَ الطَّلَبَةِ



والكتبة بما يتولى به من سبق علمه بإسعاده وإرشاده ، فإن ذلك إليه وبيده .  
والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته » .

ولعل هذه الرسالة لا تكشف عن كثير من خصائص عبد الحميد السلوية  
على الرغم من أنها تظهر فيها عنايته الفائقة بالفاظه ، وأنه كان أحياناً يأتي بالجمع  
الجميل غير المتكلف ، يقول :

« بكم تنتظم للخلاف محاسنها ، وتستقيم أمورها ، وبنصائحكم يصلح الله  
للخلق سلطانهم ، وتعمر بلادهم . لا يستغنى الملك عنكم ، ولا يوجد كافٍ إلا  
منكم . فوقكم من الملوك موقع أسماعهم التي بها يسمعون ، وأبصارهم التي بها  
يُبصرون ، وألسنتهم التي بها ينطقون ، وأيديهم التي بها يَبطِشون ، فأمتعكم الله  
بما خصكم من فضل صناعتكم ، ولا نزع عنكم ما أضفاه من النعمة عليكم » .  
كما تظهر فيها موسيقية أسلوبه وجمال عباراته .

ولكن الرسالة إذا كانت فقيرة في هذه الناحية فإنها تكشف لنا عن نواح  
أخرى هامة في شخصية عبد الحميد . فنحن عندما ننظر إليه ، وهو يصف سياسة  
الدابة الرموح والشبوب والشرود والحرون ، رامتاً بذلك إلى سياسة الكتاب  
للحاكم ، ندرك تمام الإدراك قوة عبد الحميد في الوصف ، وحبه للتصوير ، ومقدرته  
على إبراز الموصوف أجمل إبراز .

وتكشف الرسالة أيضاً عن تأثر عبد الحميد بالثقافات والنظم الفارسية . يظهر  
ذلك واضحاً في الآداب التي يوصي السكتاب بالتزامها . ويكفيها لمعرفة ذلك أن  
ننظر إلى ما كان يقوله كشتاسب لكتابه <sup>(١)</sup> : « الزموا العفاف ، وأدوا الأمانة

---

(١) الجهبشاري : الوزراء والسكتاب ٨ .



في كل ما يُفَوِّض إليكم ، واجتمعوا على غرائزكم وعقولكم سماع الأدب بما طُبِعَت عليه عقولكم ، وليكن اجتماعكم بالقسط والمعدلة ، ولا تزيّنوا لنا ما لا تليق بنا الأحدث به ، والإيثار له « ؛ وأن ننظر إلى مقاله أبر ويز لوزيره <sup>(١)</sup> : « اكتم السر ، وصدق الحديث ، واجتهد في النصيحة ، واحترس بالخطر .

ولسكن هذه الرسالة ذات أهمية كبيرة في نظر دارس الأدب العربي ، وخاصة حركة التأليف . فهذه الرسالة تشمل — كما ظهر لنا — جل ، إن لم يكن كل ، ما يطلب من الكتاب ، كأنما تضع القوانين التي يجب أن تسود على ديوان الرسائل ويخضع لها من يريدون دخوله . فهي ترسم لهم الآداب الخلقية التي يجب أن يتحلوا بها ، ثم ترسم لهم الآداب الثقافية ، فتقسمها إلى ثقافة خاصة بالدين والفقه والتاريخ والحساب . وقد أثرت هذه النظرية في المؤلفين بعد عبد الحميد . فمنهم من أخذ فرعاً من هذه الثقافة فألف فيه ، مثل ابن قتيبة الذي تناول الناحية اللغوية في « أدب الكاتب » ؛ ومنهم من تناول الثقافة الخاصة ، مثل الصولي في « أدب الكاتب » ؛ ومنهم من تناول الثقافتين العامة والخاصة ، مثل الفويري في « نهاية الأرب في فنون الأدب » ؛ ومنهم من تناول الآداب الثقافية والآداب الأخلاقية جميعاً ، مثل القلقشندي في « صبح الأعشى في صناعة الإنشا » . ويصرح القلقشندي في الفصل الذي عقده لآداب الكتاب الخلقية فيقول <sup>(٢)</sup> : « أصل هذه الآداب الذي ترجع إليه ، وينبوعها الذي تفجرت منه ، رسالة عبد الحميد بن يحيى الكاتب ، التي كتبها إلى الكاتب يوصيهم فيها » . ولسكننا نقول إن هذه الرسالة ينبوع هذا الفصل ، والفصول الأخرى الباقية في كتابه ، أعني ينبوع جميع ما احتوته تلك الكتب التي

(١) نفس المرجع ٨ . (٢) القلقشندي : صبح الأعشى ١ : ٨٥ .



ألفها الأدباء في بيان ما يحتاج إليه الكتاب ، وإن كانوا في الحقيقة أصابوا بعض العلوم التي لم يفكر فيها عبد الحميد ، مثل الجغرافية والفلك وغيرها ، واسكن كل تلك العلوم كانت من إحياء عبد الحميد أيضا .

### رسالة ولي العهد

وكتب عبد الحميد رسالة عن مروان بن محمد إلى ابنه عبد الله ، حين وجهه لمحاربة الضحاك بن قيس الشيباني الخارجي<sup>(١)</sup> . وهي تقع في قريب من أربعين صفحة من كتاب « صبح الأعشى » ، ولذلك نجد خصائص عبد الحميد تنبسط فيها وتنتشر ، فتظهر واضحة ماثلة . وعبد الحميد في هذه الرسالة ذو تفكير منظم منطقي ، يقسم كلامه فقرات منفصلة ، كل منها يؤدي فكرة منفصلة عن الأخرى ، وإن جمع هذه الأفكار السياق العام . فنراه يبدأ بمقدمة يبين فيها غرض الرسالة وما يتعلق به ، ثم يقسم الرسالة إلى قسمين كبيرين : يتناول الأول الآداب والأخلاق التي يجب أن يتحلل بها ولي العهد في سيرته عامة ، ويتناول الثاني سياسة ولي العهد في الجيش وتنظيمه . ثم يأخذ القسم الأول فيقسمة قسمين : يعالج الأول منهما آداب ولي العهد وعاداته ، ويعالج الثاني آدابه في حاشيته ، وآداب الحاشية ذاتها وكذلك يقسم القسم الثاني إلى جزئين : الأول منهما في سياسة الجيش العامة ، والثاني في تنظيمه الداخلي .

(١) أحمد صفوت : الجمهرة ٢ : ٤٧٣ ، وابن طيفور : اختيار المنظوم والمنثور

١٢ : ٢٠١ ، والقلقشندي : صبح الأعشى ١٠ : ١٩٥ .



تبدأ المقدمة بقوله :

أما بعد .

فإن أمير المؤمنين — عندما اعتزم عليه من توجيهك إلى عدو الله الخلف الجافي الأعرابي المتسكع في خيرة الجهالة ، وظلم الفتنه ، وهماوى الهلـكة ، ورعايه الذين عاثوا في أرض الله فسادا ، وانتهمكوا حرمة الإسلام استخفافا ، وبدلوا نعم الله كفرا ، واستحلوا دماء أهل سلمه جهلا — أحب أن يعهد إليك في لطائف أمورك ، وعوام شئونك ، ودخائل أحوالك ، ومصطف تنقلك ، عهدا يحملك فيه أدبه ، ويشرع لك به عظته ، وإن كنت — والحمد لله — من دين الله وخلافته بحيث اصطنعك الله لولاية العهد ، مختصا لك بذلك دون أحميتك وبني أهلك .

وتظهر في هذه الفقرة تلك الموسيقى التي يؤلفها استعمال عبد الحميد المفعول المطلق والمفعول لأجله «فسادا» ، واستخفافا، وكفرا ، وجهلا» في آخر جملة ، وتلك الأضواء التي تشع من هذه الألفاظ فتميز أركان العبارات ، وتسبع عليها الإشراق والوضوح اللذين يطلبهما عقل عبد الحميد المنطقي .

ويحاف عبد الحميد أن يغضب ولي العهد من نصحه ، فيبين له أن الناس في حاجة إلى التأديب والوعظ ، وإن كبروا وعظموا وعرفوا الفاضل والمردول : «ولولما أمر الله تعالى به دالا عليه ، وتقدمت فيه الحكماء أمرين به : من تقديم العظة ، والتذكير لأهل المعرفة ، وإن كانوا أولى سابقة في الفضل ، وخصيصاء في العلم ، لاعتمد أمير المؤمنين منك على اصطناع الله إياك ، ولو كان المؤدبون أخذوا العلم من عند أنفسهم ، أو لقنوه إلهاماً من تلقائهم ، ولم يتعلموا شيئا من عند غيرهم ، لفحلناهم علم الغيب ، ووضعناهم بمنزلة قصر فيها عنهم خالقهم المستأثر بعلم الغيب . . . »



وتنتهى المقدمة فيبدأ الجزء الأول من القسم الأول بقوله : « اعلم أن للحكمة مسالك تُقضى مضائقُ أوائلها بمن أمها سالكا ، وركب أخطارها قاصداً إلى سعة عاقبتها ، وأمن سرحها ، وشرف عزها ، وأنها لا تعار بسخف الخفة ، ولا تنشأ بتفريط الغفلة ». ثم يأخذ يعدد له الصفات التي يجب أن يتحلى بها ، والتي تراها تجمع بين الأخلاق الإسلامية ، والعادات الفارسية ، فيقول : « واعلم أن احتواءك على ذلك ، وسبقك إليه ، بإخلاص تقوى الله في جميع أمورك مؤثراً لها ، وإضمار طاعته منظوياً عليها ، وإعظام ما أنعم الله به عليك شاكراً له ، مرتبطاً فيه للمزيد ، بحسن الحياطة له ، والدَّبُّ عنه ، من أن تدخلك منه سامة ملال ، أو غفلة ضياع ، أو سنة تهاون ، أو جهالة معرفة . فإن ذلك أحق ما بدى به ونظريه ، معتمداً عليه عليه بالقوة والآلة والعدة والانفراد به من الأصحاب والحامة . فتمسك به لاجئاً إليه ، واعتمد عليه مؤثراً له ، والتجىء إلى كنفه متحيزاً إليه ، فإنه أبلغ ما طلب به رضا الله وأنجح مسأله ، وأجزله ثواباً ، وأعوده نفعاً وأعمه صلاحاً ». ورمى في هذه الفقرة بعض الصيغ التي يجب عبد الحميد أن يكررها ، مثل الحال وصيغة التفصيل مع التمييز ، مما يكسب أسلوبه جمالا موسيقيا مع توضيح المعنى وتجليته .

ويستطرد في التعداد فيقول : « ثم اجعل الله في كل صباح ينعم عليك ببلوغه ، ويظهر منك السلامة في إشرافه ، من نفسك نصيباً تجعله لله ، شاكراً على إبلاغه إياك يومك ذلك بصحة جوارح ، وعافية بدن ، وسبوغ نعمة ، وظهور كرامة ، وأن تقرأ فيه من كتاب الله — تعالى وتبارك جزءاً تردد رأيك في آيه وتزين لفظك بقراءته ... ثم تعهد نفسك بمجاهدة هواك ، فإنه مغلاق الحسنات ومفتاح السيئات ، وخضم العقل . واعلم أن كل أهوائك لك عدو يحاول هلكتك ويعترض غفلتك لأنها خدع إبليس ، وخواتل مكره ، ومصايد مكيدة . فاحذرها مجاناً لها ، وتوقها محترساً منها ... فحاول بلوغ غايتها [ منزلة أهل الحجا ]



محرزاً لها بسبق الطلب إلى إصابة الموضع ، محصناً أعمالك من العُجب ، فإنه رأس الهوى ، وأول الغواية ، ومقادير الملكة ، حارساً أخلاقك من الآفات المتصلة بمساوئ العادات وذميمة إشارها . ويلاحظ في هذه الفقرات توازن الجمل الناتج عن ترادفها مما يعطى الأسلوب توازناً موسيقياً ، ويلاحظ فيها الحال أيضاً . أما الآداب التي يوصى بها فيلاحظ عليها الطابع الإسلامي ، ولكنه لا يقصر نفسه على الآداب الإسلامية ، فيأخذ عن الآداب الفارسية والهلينية ، التي كانت سائدة في الشرق في ذلك الوقت ، فيقول : « من ذلك أن تَمْلِكَ أمورك بالقصد ، وتُدَارِي جندك بالإحسان ، وتَصُون سِرَّك بالسكمان ، وتُدَاوِي حقدك بالإنصاف ، وتُدَلِّل نفسك بالعدل ، وتُحَصِّن عيوبك بتقويم أودك ، وتمنع عقلك من دخول الآفات عليه بالعُجب المُردى ، وأنا تَك فوقها للملال وفوت العمل ، ومضاء تَك فذرهما روية النظر واكنفها بأناة الحلم ، وخَلَوْتَ فاحرُسها من الغفلة واعتماد الراحة ، وصمتك فأنف عنه عيِّ اللفظ ، وخف فيه سوء القالة ، واستمعك فأرعه حُسن التفهم ، وقوه بإشهاد الفكر ، وعطاءك فامهّد له بيوتات الشرف وذوى الحسب ، وتحرّز فيه من السرف واستهالة البذخ وامتنان الصنعة ، وحياءك فامنعه من الخجل وبلادة الحصر ، وحلمك فزعه عن التهاون ، واحضره قوة الشكيمة ، وعقوبتك فقصر بها عن الإفراط ، وتعهد بها أهل الاستحقاق ، وعفوك فلا تدخله تعطيل الحقوق ، وخذ به واجب المفترض ، وأقم به أود الدين ، واستئناسك فلمنع منه البذاء وسوء المناقشة ، وتعهدك أمورك فحدّه أوقاتا ، وقدره ساعات لا تستفرغ قوتك ، ولا تستدعي سأمك ، وعزّ ماتك فأنف عنها عجلة الرأي ولجاجة الإقدام ، وفرحاتك فاشككنها عن البطر ، وقيدّها عن الزهو ، وروعاتك فحطّها من دهش الرأي ، واستسلام الخضوع ، وحذرَاتك فامنعها من الجبن واعمد بها للحزم ، ورجاءك فقيده بخوف الفأنت ، وامنع من أمن الطلب . »



ويبدو في هذه الفقرة ظاهرة غريبة هي هذا المفعول به المقدم في صدر الجمل ، الذي يضاف على الفقرة كلها موسيقية واضحة ، ولعل هذا الأسلوب من تأثير الثقافة اليونانية في عبد الحميد .

ويتمهي بهذا حديثه عن الآداب الخاصة الفردية ، فيختم هذا القسم بقوله :

« هذه جوامعُ خلال ، دَخَّالُ النقص منها واصلُ إلى العقل بلطائفُ أبنه ،  
وتصاريفُ حويله ، فاحكمها عارفا بها ، وتقدم في الحفظ لها ، مُعَزِّمًا على الأخذ  
بمراسيدها ، والانتهاء منها إلى حيث بلغت بك عظة أمير المؤمنين وأدبه إن شاء الله .  
وقد تشعر هذه الخاتمة بأنه قد جمع له هذه الآداب من المصادر المتفرقة ،  
عربية وفارسية ويونانية .

وربما لم يظهر الأثر الفارسي بوضوح في القسم السابق ، ولكنه يتضح كل  
الوضوح في هذا القسم الذي يتناول آداب الحاشية ، والذي يبدو بقوله : « ثم  
لتسكن بطانتك وجلسائك في خلواتك ، ودخلائك في سررك ، أهل الفقه والورع  
من خاصة أهل بيتك ، وعامة قوادك ممن قد حنكته السن بتصاريف الأمور ،  
وخبطته فصاها بين فراسن البزل منها ، وقلبته الأمور في فنونها ،  
وركب أطوارها » .

ويأخذ في تعداد الآداب ، فيقول : « ثم أحضرهم من نفسك وقاراستدعي  
لك منهم الهيبة ، واستثناسا يعطف إليك منهم المودة ، وإنصاتا يقل إفاضتهم  
عندك بما تسكره أن ينشر عنك من سخافة الرأي ، وضياح الحزم ... وإياك  
أن يغمر فيك أحد من حامتك وبطانة خدمك ، بضعة يجد بها مساعا إلى النطق  
عندك بما لا يعز لك عييه ، ولا تخلو من لائمه ... ثم إياك أن يفاض عندك بشيء



من الفكاهات والحكايات والمزاح والمضاحك التي يستمتع بها أهل البطالة ، ويتسرع نحوها ذوو الجهالة .. مع ما في ذلك من نقص الرأي ، ودَرَن العرض ، وهدم الشرف وتأثيل الغفلة ، وقوة طباع السوء الكامنة في بني آدم كُمون النار في الحجر الصلد ، فإذا قُدِحَ لاح شرُّه ، وتلهب وميضه ، ووقد تضرُّه ... »

ويظهر في الفقرة الأخيرة ولم عبد الحميد ببعض الصيغ لجلب الموسيقى ، إذ نراه يكثر من صيغه التفضيل يليها التمييز .

ثم يبين له السعايات والوشايات والأخبار وكيفية تلافي أضرارها : « واعلم أن أقواما سيُسرعون إليك بالسَّعاية ، ويأتونك من قِبَل النصيحة ، ويستميلونك بإظهار الشفقة ليجمعوا لك لهم ذريعة إلى استنفال العامة ، بموضعهم منك في القبول منهم ، والتصديق لهم على من قرفوه بتهمة ، أو أسرَعوا بك في أمره إلى الظنَّة ، فلا يصلنَّ إلى مُشافهتك ساعٍ بشبهة ، ولا معروف بتهمة ، ولا منسوب إلى بدعة ... وليكنَّ صاحبُ شُرطتك ، ومن أحببت أن يتولَّى ذلك من قوَّادك إليه إنهاء ذلك ، وهو المنصوب لأولئك ، والمستمع لأقاويلهم ، والفاحص عن نصائحهم . ثم لينهِّدك إليك على ما يُرفع إليه منه لتأمره بأمرك فيه ؛ وتقفه على رأيك ، من غير أن يظهر ذلك للعامة ، فإن كان صوابا نالتك حظوته ، وإن كان خطأ أقدم به عليك جاهل ، أو فرطه سى بها كاذب ... لم يعصِب ذلك الخطأ بك ، ولم تُنسَب إلى تقريظ ... وتقدم إلى من تولى ذلك الأمر وتعتمد عليه فيه ، ألا يُقدِّم على شيء ناظرا فيه ، ولا يحاول أخذ أحد طارِقا له ، ولا يعاقب أحدا مُنكلا به ، ولا يُخلِّي سبيل أحد صالحائه ، لإصْحارِ براءته ، وصحة طريقتة ، حتى يرفع إليك أمره ، ويُنهى إليك قضيَّته ، على جهة الصدق ، ومَنجى الحق ، ويقين الخبر ... ثم يالك وأن يصل إليك أحد من جُنْدك وجُنَّسائك وخاصتك وبطانتك بمسألة يكشفها لك أو حاجة يبدِّهك بطلبها ، حتى يرفعها قبل ذلك إلى كاتبك الذي أهدفتُه



لذلك ونصّبته له ، فيعرضها عليك مُنهيًا لها على جهة الصدق عنها ، وتكون على معرفة من قدرها ، فإن أردت إسعافه بها ، ونجاح مآسأل منها أذنت له في طلبها ، باسطا له كنفك ، مقبلا عليه بوجهك ، مع ظهور سرورك بمآسالك ، وفسحة رأى ، وبسطة ذرع ، وطيب نفس . وإن كرهت قضاء حاجته ، وأحببت رده عن طلبه ونقل عليك إجابته إليها وإسعافه بها ، أسررت كاتبك فصفعه عنها ، ومنعه من مواجهتك بها ، فحقت عليك في ذلك المؤنة ، وحسن لك الذكر .

ويأخذ عبد الحميد في ذكر بعض الآداب العامة فيقول : « احذر تضييع رأيك ، وإهمالك أدبك في مسالك الرضى والغضب ، واعتوارها إليك ، فلا يَزْدَهِينَكَ إفراطُ عُجْبٍ تستخفك روائعه ، ويستهويك منظره . . . وامنع أهل بطانتك وخاصة خدمك وعامة رعيتك من استلحام أعراض الناس عندك بالغيبة والتقرب إليك بالسعاية ، والإغراء من بعض ببعض ، والتميمة إليك بشيء من أحوالهم المستترة عنك . . . وأملك نفسك عن الانبساط في الضحك والانهفاق ، وعن القُطوب بإظهار الغضب وتَنَحُّله ، فإن ذلك ضعفٌ عن مَلِكِ سورة الجَهل . . . إذا كنت في مجلس مَلِكٍ وحيث حضور العامة مجلسك ، فإياك والرَّمَى ببصرك إلى خاصٍّ من قوادك ، أوذى أثره عندك من حشمتك ، وليكن نظرك مقسوما في الجميع ، وإعارتك سمعك ذا الحديث بدعة هادئة ، ووقار حسن ، وحضور فهم مستجمع ، وقلة تضجر بالحدّث . ثم لا يبرح وجهك إلى بعض قوادك وحرصك متوجها بنظر ركين ، وتفقد محض ، فإن وجه إليك أحدٌ منهم نظره محدقا ، أو رماك ببصره مُلِحًا ، فاخفض عنه إطراقا جميلا باتداعٍ وسكون . . . »

ويكثر في هذا النصيح ، حتى إذا ما انتهى منه صرح بذلك ، ودعا لولي العهد ، فقال : « هذه جوامع خصال قد تلخصها لك أمير المؤمنين مُفسِّرا ، وجمع



لك شواذها مؤلفا ، وأهداها إليك مرشدا ، فقف عند أوامرها ، وتناه عن زواجها ، وثبت في مجامعها ، وخذ بوثائق عراها ، تسلم من معاطب الردى ، وتذل أنفك الحظوظ ، ورغيب الشرف ، وأعلى درج الذكرك ، وتؤئل سطوة العز . والله يسأل لك أمير المؤمنين حسن الإرشاد ، وتتابع المزيد ، وبلوغ الأمل ... »  
ويظهر في هذه الخاتمة كثير من مزايا أسلوب عبد الحميد : من الزواج ، والسجع الخفيف ، وتوازن الجمل ، وترادفها ، واستعمال الحال ، وغيرها .

ثم يبدأ الجزء الأول من القسم الثاني من الرسالة ، وهو القسم الحزبي ، بقوله : « فإذا أفضيت نحو عدوك ، واعتزمت على لقائهم ، وأخذت أهبة قتالهم فاجعل دعامتك التي تلجأ إليها ، وثقتك التي تأمل النجاة بها ، وركنك الذي ترجى به منالة الظفر ، وتكثف به لمعالي الخذر ، تقوي الله عز وجل ، مستشعرا لها بمراقبته ، والاعتصام بطاعته ، متبعا لأمره ، محتبيا لخطه ، محتذيا سنته ، والتوقي لمعاصيه في تعطيل حدوده ، وتعدى شرائعه ، متوكلا عليه فيما صمدت له ، واثقا بنصره فيما توجهت نحوه ، متبرئا من الحول والقوة فيما نالك من ظفر ، وتلقاك من عز ، راغبا فيما أهاب بك أمير المؤمنين إليه من فضل الجهاد ، ورمى بك إليه ، محمود الصبر فيه عند الله عز وجل من قتال عدو الله للمسلمين ، أكتبه عليهم وأظهره عداوة لهم ، وأفدحه نقلا لعامتهم ، وآخذه بريقهم ، وأعلاه عليهم بغيا ، وأظهره فيهم فسقا وجورا ، وأشدّه على فيئهم »

ويكثر عبد الحميد في هذه الفقرة من استعمال الحال في بدايتها ، وصيغة التفضيل في نهايتها ، مما يوفر لعبارة كثيرا من الموسيقى .

ويشرع بحدد له سياسة الجيش ، فيقول « ثم خذ من معك من تباك وجندك بكف معرتهم ، ورد مستعلي جورهم ، وإحكام خللهم ، وضم منتشر قواصيمهم ، ولم شعث



أطرافهم ... ثم اصمد لعدوك المتسمى بالإسلام خارجا من جماعة أهله ، المنتحل ولاية الدين مستحلا لدماء أوليائه ، طاعنا عليهم ، راغبا عن سنته ، مفارقا لشرائعه » .  
ويظهر في هذه الفقرة أيضا ولع عبد الحميد بالمتراذفات ، واستعمال الحال ، وعنايته بتوازن جملة .

ويقول : « حصّن جندك واشكّم نفسك بطاعة الله في مجاهدة أعدائه ، وارجُ نصره ... فإن طاعتك إياه فيهم ، ومراقبتك له ، ورجاءك نصره مُسهِّلٌ لك نصره ، مسهل لك وُغوره ، وعاصمك من كل شبهة ، ومنجيك من كل هُوة ، وناعشك من كل صرعة ، ومُقيِّمك من كل كبوة ، ودارئُ عنك كل شبهة ، ومُذهِبُ عنك الطعنة كل شك ، ومُقوِّيك بكل أيد ومكيدة ، ومُعزِّك في كل معترك قتال ، ومؤيدك في كل مجمع لقاء ، وكالثك عند كل فتنة مغشية ، وحافظك من كل شبهة مردية . »  
وتظهر في هذه الفقرة صيغة جديدة غير الصيغ السابقة ، وهى اسم الفاعل الذى يتردد في كل جملة من جمل الفقرة .

ويقول . « اعلم أن الظفر ظفران ، أحدهما - وهو أعمُّ منفعةً ، وأبلغُ في حسن الذِكرِ قالةً ، وأحوطه سلامة ، وأتمه عافية ، وأعوّده عاقبة ، وأحسن في الأمور مَوْرِدًا ، وأعلاه في الفضل شرفا ، وأصحّه في الروية حزما ، وأسلمه عند العامة مصدرا - مانيل بسلامة الجنود ، وحسن الخيلة ، ولطف المكيدة . »  
ويعود إلى الظهور في هذه الفقرة صيغة التفضيل التى يليها التمييز . ثم يبين له كيف يحتال على جيش العدو ليهرمه دون إزهاق الأرواح .

وفي آخر هذا الجزء يشرح له ما يجب عليه في نظام الجواسيس المعقد : « ثم أدك عيونك على عدوك ، متطلعا لعلم أحوالهم التى يتقلبون فيها ، ومنازلهم التى هم بها ، ومطامعهم التى قد مدوا أعناقهم نحوها ، وأى الأمور أدعنى لهم إلى الصلح وأقوِّدها لرضاهم إلى العافية ... احفظ من عيونك وجواسيسك ما يأتونك به من



أخبار عدوك ، وإياك ومعاوية أحد منهم على خبر إن أتاك به اتهمته فيه ، أوسؤت به ظنا ، وأتاك غيره بخلافه ، أو أن تُسكذَّ به فيه فتردَّ عليه ؛ ولعله أن يكون قد تحضك النصيحة ، وصدَّقك الخير ، وكذَّبك الأول ... واعلم أن جواسيسك وعيونك ربما صدَّقوك ، ورَ بما غشَّوك ، وربما كانوا لك وعليك ، فنصحوا لك وغشوا عدوك ، وغشوك ونصحوا عدوك ، وكثيرا ما يصدِّقونك ويصدقونه ، فلا تبدرن منك فرطة عقوبة إلى أحد منهم ... واستنزل نصائحهم بالمياحة والمنالة ... واعلم أن لعدوك في عسكرك عيونا راصدة ، وجواسيس كامنة ، وأنه لن يقع رأيه عن مكيدتك بمثل ما تسكايده به ، وسيحتال لك كاحتياالك له ، ويعد لك كإعدادك له فيما تزاوله منه . . . واحذر أن يعرف بعض عيونك بعضا ، فإنك لا تأمن تواطؤهم عليك ، ومآلاتهم عدوك ، واجتماعهم على غشك ، وتطابقهم على كذبك ، وإصفاقهم على خيانتك ... »

وبانتهاء الكلام عن الجواسيس ينتهى الجزء الأول من القسم الثانى .  
ويبدأ عبد الحميد الجزء الثانى من القسم الثانى بقوله : « فإذا أحكمت ذلك ، وتقدمت فى إتقانه ، واستظهرت بالله وعونه ، فولَّ شرطتك وأمر عسكرك أوثق قوادك عندك ، وأظهرهم نصيحة ، وأنفذهم بصيرة فى طاعتك ، وأقوامهم شكيمة فى أمرك ، وأمضاهم صريمة ، وأصدقهم عفافا ، وأجزأهم غنا ، وأكفاهم مئونة وأصحهم ضميرا ، وأرضاهم فى العبادة دينا ، وأحمدهم عند الجماعة خلقا ، وأعطفهم على كافتهم رافة ، وأحسنهم لهم نظرا ، وأشدهم فى دين الله وحقه صلابة ... »

وبهذه الفقرة التى تسكثز فيها صيغة التفصيل مع التمييز يبدأ تنظيم الجيش وهو يبدأ فى هذه الفقرة بالقائد الأعلى .



ثم يتناول الأحراس من الجند ، فيقول : «واعلم أن مواضع الأحراس من معسكرك ، ومكانها من جندك ، بحيث الغناء عنهم ، والرد عليهم ، والحفظ لهم ، والكلاءة لمن بغتهم طارقا ، أو أرادهم مخاتلا .. »

ثم يعالج قضاء العسكر ، فيقول : «ثم اعلم أن القضاء من الله بمكان ليس به شيء من الأحكام ، ولا يمثل محله أحد من الولاة ، لما يجري على يديه من مغاليل الأحكام ومجاري الحدود ، فليكن من توليه القضاء في عسكرك من ذوى الخير في القناعة والعفاف والنزاهة والفهم والوقار والعصمة والورع ، والبصر بوجوه القضايا ومواقعها ، قد حنسكته السن ، وأيدته التجربة ، وأحكته الأمور .»

ثم يتناول الطلائع ، فيقول : « ثم تقدم في طلائعك ، فإنها أول مكيدتك ، ورأس حربك ، ودعامة أمرك ، فانتخب لها من كل قادة وصحابة رجالا ذوى نجدة وبأس ، وصرامة وخبرة ، حمة كفاة ... وإياك أن تقبل من دوابهم إلا إناث الخيل ملهوبة ، فإنها أسرع طلبا ، وأنجى مهربا ، وألين معظفا ، وأبعد في الحقوق غاية ، وأصبر في معترك الأبطال إقداما ، وخذهم من السلاح بأبدان الدروع ، ماذية الحديد ، شاكّة النسيج ، متقاربة الخلق ، متلاحمة المسامير ، وأسوق الحديد مموهة الركب ، محكمة الطبع ، خفيفة الصوغ ، وسواعد طبعها مهندى . وصوغها فارسي ... ثم انتخب للولاية عليهم رجالا بعيد الصوت ، مشهور الاسم ، ظاهر الفضل ، نبيه الذكر ، له في العدو وقعات معروفة ، وأيام طوال ، وصولات متقدمات .»

ثم يذكر الشرطة الحربية ، فيقول : «ولّ دراجة عسكرك ، وإخراج أهله إلى مصافهم وصراكرهم ، رجالا من أهل بيوتات الشرف ، محمود الخبرة ، معروف النجدة ، ذاسن وتجربة ، لين الطاعة ، قديم النصيحة ... واضمم إليه عدة نفر من ثقات جندك وذوى أسنانهم ، يكونون شرطة معه ، ثم تقدم إليه في إخراج



المصاف ، وإقامة الأحرار ، وإذكاء العيون ، وحفظ الأطراف ... »  
ثم يتناول سلطات القواد : « فوض إلى أمراء أجنادك وقواد خيلك أمور  
أصحابهم ، والأخذ على قافية أيديهم ، رياضة منك لهم على السمع والطاعة  
لأمرائهم ... واعلم أن في استخفافهم بقوادهم ، وتضييعهم أمر رؤسائهم ، دخولا  
للضياح على أعمالك ، واستخفافا بأمرك الذي ياتمرون به ... وأوغز إلى القواد ألا  
يقدم أحد منهم على عقوبة أحد من أصحابه إلا عقوبة تأديب ، وتقويم ميل ،  
وتثقيف أوده ... »

ثم المؤخرة : « وإياك والمسير إلا في مقدمة وميمنة وميسرة وساقة ، شهروا  
الأسلحة ، ونشروا البنود والأعلام ، وعرف جندك مراكرهم ؟ سائرين تحت  
ألويتهم ، قد أخذوا أهبة القتال ... ثم اجعل على ساقيتك أوثق أهل عسكريك  
في نفسك صرامة ونفاذا ، ورضى في العامة ، وإنصافا من نفسه في الرعية ، وأخذا  
بالحق في المعدلة ... »

« ثم اكتب معك الجمع ، وأيده بالقوة ، وقوه بالظهر ، وأعنه بالأموال ... اجعل  
خلف ساقيتك رجلا من وجوه قوادك جليدا ماضيا ، عفيفا صارما ، شهيم الرأي  
شديد الحذر ... في خمسين فارسا من خيلك ، يحشر إليك جندك ، ويلحق بك  
من يتخلف عنك ، بعد الإبلاغ في عقوبتهم ، والنهك لهم . »

وأخيرا بعض النصائح الحربية العامة : « لَيْسَ كُنْ رَحِيمُكَ إِبَانَا وَاحِدًا ، ووقتنا  
معلوما ، لتخف المثونة بذلك على جندك ، ويعلمون أوان رحيلهم ، فيقدموا فيما  
يريدون من معالجة أطعمتهم ، وأغلاف دوابهم . . . فإذا انتهيت إلى منهل أردت  
نزوله ، أو هممت بالمعسكر به ، فإياك ونزوله إلا بعد العلم بأهله ، والمعرفة بمراقبه  
ومر صاحب طليعتك أن يعرف لك أحواله ، ويستشير لك علم دقيقتيه ، ويستبطن



علم أموره . . . إياك أن يكون منزلُك إلا في خندق ، وحصن تأمن فيه بيّات  
عدوك وتَسْتَنِم فيه إلى الحزم من مكيدتك . . . »

ويرجع إلى تنظيم الجيش مرة أخرى ، فيقول : « ثم وَلَّ على كل مئة رجل  
منهم رجلاً من أهل خاصَّتِكَ ونُصَحائِكَ ، له صيتٌ في الرياسة ، وقدمٌ في السابقة  
وأوَّلِيَّة في المشايمة » . ويرى بعض النقاد المحدثين <sup>(١)</sup> أن هذه الفقرة تكشف  
عن تأثر عبد الحميد بالثقافة الهلينية وتنظيم الجيش البيزنطي ، إذ كان يتكون هذا  
الجيش من وحدتين : اللجيو ، وتتكون من ستة آلاف رجل ؛ والسنتريو ، وتتكون  
من مئة رجل ، ويعرف رئيس هذه المئة بالسنتريونس . وليس ذلك بغريب ، فقد  
رأينا سالماً وحلقته كلها متأثرة بالثقافة الهلينية . وربما عرف عبد الحميد هذا الجيش  
عن طريق اتصاله بالروم في الشام وآسيا الصغرى .

ويقول أيضاً : « وَكَلَّ بخزائنك ودواوينك رجلاً ناصحاً أميناً ذا ورع  
حاجز ، ودين فاضل ، وطاعة خالصة ، وأمانة صادقة ، واجعل معه خيلاً يكون  
مسيرها ومنزلها وترحلها مع خزائنك وحولها ، وتقدّم إليه في حفظها ،  
والتوقي عليها . . . » .

وينهى الرسالة ببعض النصائح العامة : « اعلم أن أحسن مكيدتك أضراراً  
في العامة ، وأبعدها صيتاً في حسن القالة ، ما نلت الظفر فيه بحزم الروية ،  
وحسن السيرة ، ولطف الحيلة . . . إذا تدانى الصفتان ، وتوافق الجمعان ،  
واحتضرت الحرب ، وعيَّنت أصحابك لقتال عدوم ، فأكثر من قول « لا حول  
ولا قوة إلا بالله » ، والتوكل على الله عز وجل . . . ومُر جندك بالصمت ، وقلة  
التلفت عند المصاولة ، وكثرة التكبير في نفوسهم ، والتسبيح بضمائرهم . . . »

(١) طه حسين : من حديث الشعر والنثر ص ٦٧ .



ويختتمها بقوله : « أيدك الله بالنصر ، وغلب لك على القوة ، وأعانك على الرشد ، وعصمك من الزَّيغ ، وأوجب لمن استشهد معك ثواب الشهداء ، ومنازل الأصفياء . والسلام عليك ورحمة الله وبركاته » .

هذه هي رسالة عبد الحميد ، بل كتابه إلى ولي العهد ، وإنها لذات أهمية كبيرة في تاريخ حركة الكتابة والتأليف في الأدب العربي . فهي تبين لنا جميع مزايا عبد الحميد الكتابية . وأول ما يظهر فيها عقله المنطقي الذي يقسم الموضوع إلى أفكار جزئية ، ويخص كل فكرة بقرة خاصة من الكلام . ويظهر فيها تأثر عبد الحميد بالثقافة اليونانية والفارسية . وليس ذلك بالأمر العجيب . فنحن نعرف أن أستاذه كان يترجم من اليونانية ، وأنه هو نفسه كان يترجم من الفارسية <sup>(١)</sup> . فلعل أستاذه علمه يونانية ، أو تأثر بها هو عن طريق فارسيته . وربما كان هذا العقل المنطقي طبيعة فطر عليها ، دون أثر من يونان أو فارس . وإن لم يكن الأمر كذلك ، فقد صار طبيعة فيه . صبغت كتابته بخصائص كثيرة ، ترجع كلها إلى ذلك العقل المنطقي ، الذي يأبى إلا النظام والوضوح والدقة . ومن الأمور التي تضيف على هذه الرسالة أهمية زائدة دلالتها على ثقافة مؤلفها الواسعة الشاملة ، المتشعبة الأنحاء ، التي توحى إلينا بما كان معروفا في المجتمع الإسلامي من آداب وثقافات ومعارف ، من استنباطهم ، أو من الجداول الخارجية التي شرعت تتدفق على العالم الإسلامي ، وكانت إرھاصاً بالسيول المنهمرة المتدافعة في العصر العباسي الذهبي .

وقضلا عن هذه الأفكار ، يظهر فيها عناية شديدة باختيار الألفاظ والأسلوب ، حتى تتوافر الموسيقى فيها توافراً شديداً ، آتيا عن توازن الجمل وازدواجها

(١) الجاحظ : البيان والتبيين ٣ : ١٦ .



أو سجعها ، وعن مراعاة عبد الحميد لبعض الصيغ الخاصة في الفقرة الواحدة ،  
المفعول به ، أو صيغة التفضيل ، أو التمييز ، أو اسم الفاعل ، أو الحال . وكذلك  
تأتيه الموسيقى من تقابل ألفاظ الجمل المتجاورة وتألفها . وينتج ذلك عن حبه  
للترادف وإكثاره منه . فعبد الحميد في هذه الرسالة إمام من أئمة الكتاب ،  
يعنى بأفكاره فيستجلبها من الثقافات المختلفة ، ويدقق فيها ويوضحها ، بالإضافة  
إلى ترتيبها . ويعنى بأسلوبه فيوفر له الجمال الموسيقى ، الذي يثير اللذة في القارئ ،  
والإعجاب بالكاتب .

وهذه الرسالة لها أهمية أخرى في تاريخ الكتابة الفنية العربية ، إذ تقف  
وحدها علماً بين العهود التي قبلها ، والتي بعدها . ونحن إذا ما جمعنا عهود الصدر  
الأول من الإسلام مثلاً ، وأنعمنا النظر فيها ، نجدتها مختصرة موجزة لا تعدو  
النصائح الدينية . فهذا النبي صلى الله عليه وسلم يقول في عهده لعمر بن حزم  
حين ولاه اليمن <sup>(١)</sup> :

« بسم الله الرحمن الرحيم .

هذا بيان من الله ورسوله « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ » ، عقد من  
محمد النبي رسول الله لعمر بن حزم حين بعثه إلى اليمن . أمره بتقوى الله في أمره  
كله ، « إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا ، وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ » ، وأمره أن يأخذ بالحق  
كما أمر به الله ، وأن يُبَشِّرَ الناس بالخير ويأمرهم به ، « وَيُعَلِّمُ النَّاسَ الْقُرْآنَ ،  
وَيُفَقِّهَهُمْ فِي الدِّينِ ، وَيَنْهَى النَّاسَ فَلَا يَمَسَّ أَحَدٌ الْقُرْآنَ إِلَّا وَهُوَ طَاهِرٌ ، وَيُنْذِرُ  
النَّاسَ بِالَّذِي لَهُمْ وَبِالَّذِي عَلَيْهِمْ ، وَيَلِينُ لِلنَّاسِ فِي الْحَقِّ ، وَيَشْتَدُّ عَلَيْهِمْ فِي الظُّلْمِ ،

(١) أحمد صفوت : الجماهرة ١ : ٦٢ .



فإن الله عز وجل كره الظلم ونهى عنه ، وقال : « أَلَا تَعْنَهُ اللَّهُ عَلَى الظَّالِمِينَ » ،  
 ويبشر الناس بالجنة وبعمَلِهَا ، ويُنذِر بالنار وبعمَلِهَا ، ويستألف الناس حتى  
 يتفقوها في الدين ، ويعلم الناس معالم الحج وسُنَّتِهِ وفَرِيضَتِهِ . . . »

فهى مجرد نصائح دينية بعضها بجوار بعض . بل العهود الحربية نفسها لم تكن  
 تتعدى هذه النصائح الدينية أيضاً . وهذا عهد أبى بكر لأمرأء جيوش الردة <sup>(١)</sup> :

« بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ .

هذا عهدٌ من أبى بكر خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم لفلان . . . حين  
 بعثه فيمن بعثه لقتال من رجع عن الإسلام ، عهدٌ إليه أن يتقى الله ما استطاع  
 في أمره كله ، سرّه وعَلَانِيَتِهِ ، وأمره بِالْجِدِّ في أمر الله ، ومُجَاهِدَةٍ من تَوَلَّى عنه ،  
 ورجع عن الإسلام إلى أُمَانِي الشيطان بعد أن يُعْذِر إليهم ، فيدعوهم بداعية  
 الإسلام ، فإن أجابوه أَمْسَكَ عنهم ، وإن لم يُجِيبوه شَنَّ غَارَتَهُ عَلَيْهِمْ حتى يُقِرُّوا له ،  
 ثم يُنَبِّئَهُم بالذى عليهم والذى لهم ، فيأخذ ما عليهم ، ويُعْطِيَهُم الذى لهم ،  
 لا يُنْظِرُهُمْ ، ولا يرد المسلمين عن قتال عدوهم ، فمن أجاب إلى أمر الله عز وجل  
 وأقر له ، قَبِلَ ذلك منه ، وأعانهُ عليه بالمَعْرُوف ، وإِنَّمَا يُقَاتِلُ من كفر بالله ،  
 على الإقرار بما جاء من عند الله . فإذا أجاب الدعوة لم يكن له عليه سبيل ،  
 وكان الله حَسْبِيهِ بعدُ فيما اسْتَسَرَّ به . ومن لم يُجِبْ داعية الله قُتِلَ وقُوَّتِلَ حيثُ  
 كان ، وحيثُ بَلَغَ مُرَاغَمَهُ ، لا يقبل من أحد شيئاً أعطاه إلا الإسلام . فمن أجابه  
 وأقر به قَبِلَ منه وعَلِمَهُ . ومن أبى قَاتَلَهُ . فإن أَظْهَرَ الله عليه قَتَلَ فيهم كل قِتْلَةٍ  
 بالسلاح والنَّيْرَانِ ، ثم قَسَمَ ما أفاء الله عليه إلا الخمس فإنه يُبَلِّغُهُنَّاهُ ، وأن يمنع



أصحابه العجلة والفساد ، وأن لا يُدخل فيهم حشوا حتى يعرفهم ، ويعلم ما هم ،  
لئلا يكونوا عُيونا ، ولئلا يُؤتَى المسلمون من قِبَلِهِمْ ، وأن يَقْصِدَ بالمسلمين ،  
وَيَرْفُقَ بِهِمْ فِي السَّيْرِ وَالْمَنْزِلِ ، وَيَتَّقِدْهُمْ وَلَا يُعْجِلْ بَعْضُهُمْ عَنْ بَعْضٍ ، وَيَسْتَوْصِي  
بِالمسلمين فِي حَسَنِ الصَّحْبَةِ وَلِينِ الْقَوْلِ . . . . » . فهذا العهد وإن كان يَحْتَوِي عَلَى  
بَعْضِ النَّصَائِحِ غَيْرِ الدِّينِيَّةِ إِلَّا أَنَّهَا قَلِيلَةٌ بِجَانِبِ الدِّينِيَّةِ .

وهذا عمر يَهْدِي إِلَى عُتْبَةَ بْنِ غَزْوَانَ حِينَ وَجَّهَهُ إِلَى الْبَصْرَةِ ، فيقول <sup>(١)</sup> :  
« وَاتَّقِ اللَّهَ فِيمَا وُتِّيتَ ، وَإِيَّاكَ أَنْ تَفَازَكَ نَفْسُكَ إِلَى كِبَرٍ يُفْسِدُ عَلَيْكَ  
إِخْوَتَكَ ، وَقَدْ صَحِبْتَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَعَزَزْتَ بِهِ بَعْدَ الذَّلَّةِ ،  
وَقَوَّيْتَ بِهِ بَعْدَ الضَّعْفِ ، حَتَّى صَرْتَ أَمِيرًا مُسَلِّطًا ، وَمَلِكًا مُطَاعًا ، تَقُولُ  
فَيُسْمَعُ مِنْكَ ، وَتَأْمُرُ فَيُطَاعُ أَمْرُكَ ، فَيَأْخُذُ نِعْمَةً إِنْ لَمْ تَرْفَعْكَ فَوْقَ قَدْرِكَ  
وَتُبْطِرَكَ عَلَى مَنْ دُونَكَ ، احْتَفِظْ مِنَ النِّعَةِ احْتِفَاطَكَ مِنَ الْمَعْصِيَةِ ، وَلَهِيَ  
أَخَوُفُهُمَا عِنْدِي عَلَيْكَ أَنْ تَسْتَدْرِكَ وَتَخْذَعَكَ ، فَتَسْقُطَ سَقَطَةً تَصِيرُ بِهَا إِلَى جَهَنَّمَ .  
أَعِيذُكَ بِاللَّهِ وَنَفْسِي مِنْ ذَلِكَ . إِنْ النَّاسُ أَسْرَعُوا إِلَى اللَّهِ حِينَ رُفِعَتْ لَهُمُ الدُّنْيَا  
فَارَادُوهَا ، فَأَرَادَ اللَّهُ وَلَا تُرِدِ الدُّنْيَا ، وَاتَّقِ مَصَارِعَ الظَّالِمِينَ » .

ولكن عمر كانت له نصائح حربية أيضا ، يظهر ذلك في رسائله لسعد بن  
أبي وقاص ، وهو يحارب الفرس <sup>(٢)</sup> :

« أما بعد ،

فإني آمرك ومن معك من الأجناد بتقوى الله على كل حال ، فإن تقوى الله  
أفضلُ العُدَّةِ عَلَى الْعَدُوِّ ، وَأَقْوَى الْمُسْكِنَةِ فِي الْحَرْبِ ، وَأَمْرُكَ وَمَنْ مَعَكَ أَنْ

(١) أحمد صفوت : الجمهرة ١ : ٢٤٥ . (٢) نفس المرجع ٢٣٣ .



تسكونوا أشد احتراساً من المعاصي منكم من عدوكم ، فإن ذُنُوب الجيش أخوفُ عليهم من عدوهم ، وإنما يُنصَر المسلمون بمعصية عدوهم لله ، ولولا ذلك لم تسكن لنا بهم قوة ، لأن عدَدنا ليس كعدَدهم ، ولا عدَدتنا كعدَّتهم . فإن استويوا في المعصية ، كان لهم الفضل علينا في القوة ، وإلا نُنصَر عليهم بفضْلنا لم نقلبهم بقوتنا . فاعلموا أن عليكم في سيركم حَفَظَةُ من الله يعلمون ما تفعلون ، فاستحيوا منهم ، ولا تعملوا بمعاصي الله وأنتم في سبيل الله ، ولا تقولوا : « إن عدُوَّنا شرٌّ منا ، فإن يُسلِّط علينا » . فَرُبَّ قوم سلَّط عليهم شرٌّ منهم ، كما سلَّط على بني اسرائيل — لما عملوا بمساخطِ الله — كفار المَجُوس ، فجاسوا خلال الديار ، وكان وعد مفعولا . واسألوا الله العون على أنفسكم ، كما تسألونه النصر على عدوكم ، أسأل الله تعالى ذلك لنا ولكم ... »

ويظهر في هذه الفقرة الروح الإسلامي ، ولكن الروح الحربى يظهر في الفقرة التالية :

« وَتَرَفَّقَ بِالْمُسْلِمِينَ فِي مَسِيرِهِمْ ، وَلَا تُجَسِّمُهُمْ مَسِيرًا يُتَعَبُهُمْ ، وَلَا تُقَصِّرْ بِهِمْ عَنْ مَنْزِلٍ يَرْفُقُ بِهِمْ ، حَتَّى يَبْلُغُوا عَدُوَّهُمْ ، وَالسَّفَرُ لَمْ يَنْقُصْ قُوَّتَهُمْ ، فَإِنَّهُمْ سَاطِرُونَ إِلَى عَدُوِّ مَقِيمٍ ، حَامِيَ الْأَنْفُسِ وَالْكَرَاعِ ، وَأَقِمَّ بَيْنَ مَعَكَ فِي كُلِّ جُمُعَةٍ يَوْمًا وَلَيْلَةً ، حَتَّى تَكُونَ لَهُمْ رَاحَةٌ يُحْيُونَ فِيهَا أَنْفُسَهُمْ ، وَيَرْمِثُونَ أَسْلِحَتَهُمْ وَأَمْتَعَتَهُمْ . وَنَحِجَّ مَنَازِلَهُمْ عَنْ قَرَى أَهْلِ الصُّلْحِ وَالذِّمَّةِ ، فَلَا يَدْخُلُهَا مِنْ أَصْحَابِكَ إِلَّا مَنْ تَشَقَّ بِدِينِهِ ، وَلَا يَرْزَأُ أَحَدًا مِنْ أَهْلِهَا شَيْئًا . فَإِنْ لَهُمْ حُرْمَةٌ وَذِمَّةٌ ابْتُلَيْتُمْ بِالْوَفَاءِ بِهَا ، كَمَا ابْتُلُوا بِالصَّبْرِ عَلَيْهَا ، فَمَا صَبَرُوا لَكُمْ فَتَوَلَّوْهُمْ خَيْرًا ، وَلَا تَسْتَنْصِرُوا عَلَى أَهْلِ الْحَرْبِ بِظُلْمِ أَهْلِ الصُّلْحِ . »



وإذا وطئت أرض العدو فأذكِ العيون بينك وبينهم ، ولا يخفَ عليك أمرهم ، وليكن عندك من العرب أو من أهل الأرض من تطمئن إلى نصحه وصدقه ، فإن السكذوب لا ينفَعُك خبره ، وإن صدقت في بعضه ، والغاشَّ عَيْنُكَ عليك وليس عينا لك . وليسكن منك عند دنوك من أرض العدو أن تكثر الطلائع ، وتَبَثَّ السرايا بينك وبينهم ، فتقطع السرايا أمدادهم ومراقبهم ، وتتبع الطلائع عوراتهم ، وتَمَقَّ للطلائع أهل الرأي والبأس من أصحابك ، وتَخَيَّرَ لهم سوابق الخيل ، فإن لَقُوا عدوا كان أول مآلتقاهم القوة من رأيك ، واجمل أمر السرايا إلى أهل الجهاد ، والصبر على الجلاء ، ولا تخص بها أحدا بهوى ، فتضيع من رأيك وأمرك أكثر مما حابيت به أهل خاصتك ؛ ولا تَبَعَثْ طليعة ، ولا سرية في وجه تَتَخَوَّفُ فيه غلبة أو ضيعة أو نسكاية . فإذا غابت العدو فاضمهم إليك أقاصيدك وطلائعك وسراياك ، واجمع إليك مكيدتك وقوتك ، ثم لا تعاجلهم المناجزة ، ما لم يستكرهك قتال ، حتى تُبَصِّرَ عَوْرَةَ عدوك ومقاتله ، وتَعْرِفَ الأرض كلها كمعرفة أهلها ، فتصنع بعدوك كصنعه بك . ثم أذكِ أحراسك على عسكرك ، وتيقظ من البيات جهنك ، ولا تُؤْتِ بِأسير ليس له عَقْدٌ إلا ضربت عنقه ، لَتُرْهَبَ به العدو الله وعدوك . والله وَلِيُّ أمرك ومن معك ، وَوَلِيَّ النصر لَكُمْ على عدوكم . والله المستعان .

وهذا العهد ذو أهمية بالغة ، بل هو أهم عهد في الصدر الأول من الإسلام ، فهو يحتوى على جل الأفكار التي عنى عبد الحميد بيسطها والإطناج في الكلام عنها ، من نظام الجيش والجواسيس والطليلة والتحذير من البيات وغيرها . ولا يخامرنا كثير من الشك في قراءة عبد الحميد لهذا العهد وتأثره به ، وإن كان عبد الحميد أدخل أشياء جديدة أتت بها من عصره



ومن ثقافته .

أما عثمان فيكتفي في عهوده إلى عماله بالإشارة إلى عهود عمر ووجوب العمل بها ، كتب إلى عماله <sup>(١)</sup> :  
« أما بعد

فقوموا على ما فارقتم عليه عمر ، ولا تبدّلوا ، ومهما أشكل عليكم فردّوه إلينا نجتمع عليه الأمة ثم نردّه عليكم . وإياكم وأن تُغيّروا ، فإنني لست قابلاً منكم إلا ما كان عمر يقبل . »

كما كان عثمان يتعهدهم بالنصائح الدينية من عنده أيضا ، يقول في عهد آخر <sup>(٢)</sup> :

« أما بعد :

استمعينوا على الناس أو كل ما ينوبكم بالصبر والصلاة ، وأمر الله أقيموه ، ولا تذهبنوا فيه ، وإياكم والعجلة فيما سوى ذلك ، وارضوا من الشر بأيسره ، فإن قليل الشر كثير . واعلموا أن الذي ألف بين القلوب هو الذي يفرقها ، ويباعد بعضها من بعض . سيروا سيرة قوم يريدون الله لثلاث تكون لهم على الله حُجَّة . »

ويقتفي على أثر من قبله في عهوده ، ولكنه له عهد هام إلى زياد بن النضر وشريح بن هانئ في الحرب يقول : <sup>(٣)</sup>

« واعلموا أن مقدّمة القوم عيونهم ، وعميون المقدمة طلائعهم ، فإذا أنتما خرجتما من بلاد كما فلا تشأما من توجيه الطلائع ، ومن نفخ الشعاب والشجر والخمر

(١) أحمد صفوت : الجمهرة ١ : ٢٩٣ . (٢) نفس المرجع ٢٩١ .

(٣) نفس المرجع ٤٦٠ .



في كل جانب ، كي لا يفتركم عدو أو يكون لهم كمين ، ولا تُسيرن الكتائب والقبائل من لدن الصباح إلى المساء إلا على تعبئة . فإن دهمكم عدو أو غشيكم مكروه ، كنتم قد تقدمتم في التعبئة . فإذا نزلتم بعدو أو نزل بكم فليكن معسكركم في قُبل الأشراف ، وأسفاح الجبال ، وأثناء الأنهار ، كيما يكون ذلكosكم رذءا ، وتسكون مُقاتلتكم من وجه واحد أو اثنين ، واجعلوا رقباءكم في صياصي الجبال ، وبأعلى الأشراف ، ومناكب الأنهار ، يروُن لكم ، لا يأتيكم عدو من مكان مخافة أو أمن . وإياكم والتفرق ، فإذا نزلتم فانزلوا جميعا ، وإذا رحلتم فارحلوا جميعا ، فإذا غشيكم الليل فنزلتم فحفظوا عسكركم بالرماح والترسَة ولتسكن رُماتكم من وراء تراسكم ورماحكم ، يلونهم . وما أقمتم فكذلك فافعلوا ، كيلا يصاب لكم غفلة ، ولا يُلفى لكم غرة ، فاقوم يحفون عسكرهم برماحهم وترسهم من ليل أو نهار ، إلا كانوا كأنهم في حصون ، واخرُسا عسكركم بأنفسكم . . . وليكن كل يوم عندي خبركم ، ورسول من قبلكم ، فإني - ولا شيء إلا ما شاء الله - حثيث السير في إثركم . وعليكم في جريكم بالثَّودة ، وإياكم والمجلة إلا أن تمكنكم فرصة بعد الإعذار والحجة . وإياكم أن تقانلا حتى أقدم عليكم إلا أن تبدآ ، أو يأتيكما أمرى إن شاء الله .

ولا يبلغ هذا العهد مبلغ عهد عمر ، إلا أننا نجد فيه قليلا من الأفكار التي وردت في عهد عبد الحميد ، ولا شك أنه أخذ بذرته منه ، فإنه كان يحفظ كلام علي بن أبي طالب . وبهذا العهد نرى أن عهود الصدر الأول من الإسلام كانت تغلب عليها الصبغة الدينية ثم الحربية ، وأن عمر وعليا كان لهما من العهود ما شتمل على أصول مجموعة من أفكار عبد الحميد ، إلا أن هذا استخدم هذه الأصول ونماها ، فأتت أكلها على يديه .



وإذا ما انتقلنا إلى العصر الأموي وجدنا نوعاً آخر من العهود . ولست نقابل الكلام عنها نحب أن نشير للمرة الثانية إلى أننا نرفض رسالة معاوية إلى ابنه يزيد ، التي يعنفه فيها تعنيفاً شديداً يحط قدره ، وهي مما يمكن اعتباره من العهود . وبعبارة ذلك نقبل رسالة عبد الملك بن مروان إلى ابنه التي يلومه فيها ، وقد تكلمنا عنها من قبل ، فلا داعي للتكرار . أما هذا النوع الآخر من العهود فليس بجديد ، ولكنه وحيد . وأعني بذلك أن العهود الدينية تختفي ، وتشغل المكان العهود الحربية وحدها ، مما يجعلنا نطمئن إلى الرأي القائل بأن العهد الأموي كان كله عهد حروب وفتن وثورات بين المذاهب الإسلامية المختلفة ، وبين المسلمين ومن جاورهم من الأمم الأخرى . ويتضح ذلك أبلغ وضوح في الرسائل بين عبد الملك بن مروان والحجاج والمهلب بن أبي صفرة . وهاك رسالة من الحجاج إلى المهلب <sup>(١)</sup> :

« أما بعد ،

فإنك تتراخى عن الحرب ، حتى يأتيتك رُسُلِي فيرجعون بعذرِكَ ، وذلك أنك تُمسك حتى تبرأ الجراح ، وتُنسى القتلى ، ويحجم الناس ، ثم تلقاهم فتحتمل منهم مثل ما يحتملون منك من وحشة القتل وألم الجراح ، ولو كنت تلقاهم بذلك الجد لسكان الداء قد حُسم ، والقرن قد قُصم . ولعمري ما أنت والقوم سواء ، لأن من ورائك رجالاً ، وأمامك أموالاً ، وليس للقوم إلا ما معهم ، ولا يدرك الوجيف بالديب ، ولا الظفر بالتعذير » .

ولا تختلف باقي العهود عن هذه الرسالة ، فهي موجزة قصيرة وقتية لا ترتفع



حتى إلى مرتبة عهدى عمر وعلى لا مرتبة عبد الحميد . ولكن يجب أن يقال إن هذه العهود تختفى في عهد عمر بن عبد العزيز ، وتظهر بحاها العهود الدينية التي يرسلها إلى عماله المنتشرين في أنحاء الدولة الإسلامية المختلفة . وهاك كتابه إلى عبد الرحمن بن نعيم عامله بخراسان <sup>(١)</sup> :

« أما بعد ،

فكن عبدا ناصحا لله في عبادته ، ولا تأخذك في الله لومة لائم ، فإن الله أولى بك من الناس ، وحقه عليك أعظم ، فلا تؤلن شيئا من أمر المسلمين إلا المعروف بالنصيحة لهم ، والتوفير عليهم ، وأداء الأمانة فيما استقرى . وإياك أن يكون مملوك ميلا إلى غير الحق ، فإن الله لا يخفى عليه خافية ، ولا تذهبن عن الله مذهبا ، فإنه لا ملجأ من الله إلا إليه » .

وهكذا نخرج من هذا العرض للعهود في الأوقات المختلفة ، قبل عبد الحميد ، بأنه كان ينظر في عهده إلى عهد عمر ثم عهد على . أما غير ذينك فلم يكن يوجد من العهود ما يصح اعتباره أصلا لعهد عبد الحميد . ولكن الفرق شاسع أيضا بين هذين العهدين وعهد عبد الحميد في الأسلوب ، والأفكار ، والغرض منه ، بحيث يقف عهده وحيدا شامخا بين هذه العهود المتضائلة المتخاذلة بجانبه .

ويشدد وضوح مكانة هذا العهد حين تقارنه بما بعده من عهود ، ويكفي أن نعقد مقارنة سريعة بينه وبين عهد طاهر بن الحسين إلى ابنه عبد الله حين ولاه المأمون الرقة ومصر وما بينهما <sup>(٢)</sup> . وكان لعهد عبد الحميد أثر شديد في عهد طاهر

(١) أحمد صفوت : المجهرة ٢ : ٣٤٠ .

(٢) ابن خلدون : المقدمة ٢٤٠ . وأحمد صفوت : المجهرة ٣ : ٤٨٥ .



ويتضح هذا منذ البداية ، إذ يبدأ العهدان بالنصح بالتقوى ، فعبد الحميد يقول بعد ديباجته : « واعلم أن احتوائك على ذلك ، وسبقك إليه ، بإخلاص تقوى الله في جميع أمورك مؤثراً بها ، وإضمار طاعته مُنطوياً عليها » ، وطاهر يقول : « فعليك بتقوى الله وحده لا شريك له ، وخشيته ومراقبته عز وجل ، ومزايلة سخطه ... » . وإن كنا ينبغي علينا أن نتذكر أن البدء بالتقوى كان أمراً مألوفاً في العهود الإسلامية جميعها . ويظهر هذا الأثر في الأفكار الأخرى ، بل يتعدى ذلك إلى بعض العبارات - على الرغم من اختلاف الأسلوبين - فعبد الحميد يقول : « ثم اعلم أن القضاء من الله بمكان ليس به شيء من الأحكام » . وطاهر يقول : « واعلم أن القضاء من الله تعالى بالمكان الذي ليس به شيء من الأمور » . وتكاد العبارتان تكونان عبارة واحدة ، بل لو أخفينا اسم السكتابين لظنناهما من قلم واحد . ولكن هذا الأثر لم يجعل العهدين صورة واحدة ، بل احتفظ كل منهما بمزاياه ، فنجد عهد طاهر أقصر من عهد عبد الحميد ، ويميل للترادف اللفظي ، ويتكلم عن آداب الوالي وحده ، ويكثر من الكلام عن الخراج ، وتغلب عليه السمة الدينية ، على حين نجد عهد عبد الحميد يميل لترادف الجمل ، ويذكر آداب الوالي وآداب البلاط ، ويبين نظام الحكم ، ونظام الجيش ، وسياسة الحروب ، ولا يلج على نظام الخراج . فهما ينفرد كل منهما بخصائصه ، ولكن لا شك أن عهد طاهر كان يأخذ ويقتبس من عهد عبد الحميد في أفكاره وألفاظه .



## رسالة الصيد

وهذه رسالة أخرى من رسائل عبد الحميد تكشف لنا عن نواح أخرى فيه .  
كتب يصف رحلة صيد للخليفة<sup>(١)</sup> :

« أطل الله بقاء أمير المؤمنين مؤيداً بالعزيز ، مخصوصاً بالكرامة ، مُمتعاً بالنعمة . إنه لم يُلقَ أحدٌ من المُقتنِصين ، ولا مُنح مُتَطَرِّفٌ من المُتصيدين إلا دون ما آتانا الله به من اليُمن والبركة ، ومنحنا من الظفر والسعادة في مسيرنا ، من كثرة الصيد ، وحُسن المُقتنِص ، وتمكين الجلاسة ، وقُرب الغاية ، وسهولة المورد . . . »

ويظهر في هذه الفقرة ميل عبد الحميد للإطناب ، وترادف الجمل ، وتوازنها .  
ويبدأ الموضوع الأساسي في الرسالة بقوله : « وإني أخبر أمير المؤمنين أنا خرجنا إلى الصيد بأعدى الجوارح ، وأثقف الضواري ، أكرمها أجناساً ، وأعظمها أجساماً ، وأحسنها ألواناً ، وأحدها أطرافاً ، وأطولها أعضاء ، قد ثَقَّتْ بحُسن الأدب ، وعوَدَتْ شدة الطلب . . . ومعنا من نفائس الخيل المخبورة الفراهة ، من الشهيرة الموصوفة بالنجابة ، والجري والصلابة . . . »

ونراه يلتزم في هذه الفقرة صيغة التفضيل مع التمييز ، مما يسكبها موسيقية متوافرة :

ويظهر في هذه الرسالة ميزة أخرى ، لعلها لا تظهر في رسائله الأخرى بهذا الوضوح ، تلك هي واقعيته ، وتحريره الدقة في وصف الواقع ، حتى لنراه

(١) أحمد صفوت : الجمهرة ٢ : ٥٤٤ .



يصف رحلة الصيد ، وما مر به من أراض في سيره ، والاختلافات التي طرأت على الجو في أثناء طرده ، فيقول :

« فلم نزل بأخفض سَيْر، وأتقف طلب ، وقد أمطرتنا السماء مطراً متداركاً ، فَرَبَتْ منه الأرض ، وزهر البقل ، وسكن القتام من مُثار السَّنايك ، ومُتَشَعِّبات الأعاصير ، مُهَلَّة أن سرنا غَلَوَات ، ثم برزت الشمس طالعةً ، وانكشفت من السحاب مسفرة ، فتلاَّلت الأشجار ، وضحك النوار ، وانجلت الأبصار ، فلم نر منظرأ أحسن حُسْنًا ، ولا مزموقاً أشبه شكلاً ، من ابتسام نور الشمس عن اخضرار زهرة الرياض ، والخيْلُ تَمَرَّح بنا نشاطاً ، وتَجَتَدَبْنَا أعنتها انبساطاً . ثم لم نلبث أن عَلَتْنَا ضباباً تَقْصُرُ طرف الناظر ، وتُخْفِي سُبُل السلام ، تَغْشَاَنَا تارة ، وتُنْكَشِفُ خرى ، ونحن بأرض دَمَّة التراب أشبه الأطراف ، مُعْدَّة الفجاج ، مملوءة صيداً من الطَّيِّاء والتمالب والأرانب ... » .

فهذا إحساس مرهف من الكاتب بالطبيعة حوله ، في حالاتها المختلفة ، وهذا تصوير واقعي صادق ، لما يحس به الكاتب . ويستخدم عبد الحميد هذا الجو الطبيعي ليعزز لنا صورة الطرد والصيد ، ويساعدنا على تمثيل المنظر كاملاً واضحاً .

وهاهم أولاء قد وجدوا الصيد : « فأدانا المسير إلى غابة دونها مآلف الصيد ، ومجتمع الوحش ، ونهاية الطلب ... فإذا نحن برغلة من ظيَاء ، وخِلْفَة آرام بَرَّتْ عَنْ آَنَسَاتٍ ، قد أحالتهن الضبابَةُ عن شَخْصِنَا ، وأَذْهَبْنَ أَرْنِيقَ الرِّياض عن استماع حُسْنًا ، فلم نعبج إلا والضَّوَارِي لَأَمْحَة لهن من بُعْد الغاية ، ومنتهى نظر الشاخص ، ثم مدت الجوارحُ أعنتها ، واجتذبت الضَّوَارِي مَقَاوِدَهَا ، فأمرت بإرسالها على الثَّقة بمُحضَرها ، وسرعة الجوارح في طلبها ، فَرَّتْ تَحْفُ حَفِيفَ



الريح عند هبوبها ، تَسْفُ الأرض سَفَاً ، كاشفة عن آثارها ، طالبة لخيارها ،  
حارشة بأظفارها ، قد مزقتها تمزيق الريح الجراد ، فمن صائح بها وناغر ، وهاتف  
بها وناق ، يدعو الكلب باسمه ، ويُفدِّيهِ بأبيه وأمه ، وراكض تحت مُفره ،  
وخافق يطلبه الرمح ، وطامح يتمتع ، وساح قد عارضه بارح ، قد حيرتنا الكثرة ،  
وألَهَجَّتْنا القُدرة ، حتى امتلأت أيدينا من صنوف الصيد ، والله المنعم  
الوهاب .

فما أصدق الصورة وما أجمل المنظر ، وما أبلغ عبد الحميد الذي يكشف لنا  
عن ثقافة ومعرفة بالشعر في لفظة واحدة « خلفه آرام » . فاعله أنى بهامن معلقة  
زهير من قبيل التظرف والتملح باستخدام الألفاظ الشعرية .

ولم تنته الرحلة بعد ، فإن هناك منظرًا آخر ينتظرنا : « ثم ملنا ، يا أمير  
المؤمنين بهداية دليل قد أحكمته التجارب ، وخبر أعلام المذانب ، إلى غدير  
أفيح ، وروضة خضرة ، مستأجرة بتلاوين الشجر ، ملتفة بصنوف النحر ، مملوءة  
من أنواع الطير . لم يذعرهن صائد ، ولا اقتنصهن قانص ، فخفق لها بطبول ،  
وصفر بنفير الحتف . فتار منها ماملاً الأفق كثرتها ، وراعت الجوارح خفقات  
أجنحتها . ثم انبرت البزاة لها صائدة ، والصقور كاسرة ، والشواهين ضارية ،  
يرفعن الطالب لها ، ويخفضن الظفر بها . حتى سئمنا من الذبح ، وامتلاًنا من  
النضيج ، كأننا كتيبة ظفرت ببغيتها ، وسرية فصرت على عدوها ، وألحقت  
ضعيفها بقويها ، وغلبت محسنها بمسيئها ، لا نملك أنفسنا مرحاً ، ولا نستفيق من  
الجلد بها فرحاً ، بقية يومنا ، والله المنعم الوهاب .

وهذا منظر ثالث : « ثم غدونا ، يا أمير المؤمنين ، إلى أرض وُصف لنا صيدها  
بالكثرة ، ورياضها بالنزهة ، فزل واصفها عن الطريقة ، واعتمد بنا على غير الحقيقة ،



فأتيناها فلم نر صيدا ولا عشباً، ولا نزهة ولا حسناً . فجعلنا نَسْأَلُك منها حزونا ووعورا  
وجدوبا وقفرا ، حتى قَصَّر بنا اليأس عن الطلب ، وقطع بنا عن الطمع النصب .  
فبينما نحن كذلك إذ بدا لنا جأب قد أوفى بنا على حائل بهادل غابة ، من ورانها  
حمير وحش كثيرة . فأمنناها ، فلما تطرفنا مشيا وتقربنا إلى عاناته ، توالت شهيقه  
وكثر شهيقه ؛ فالتفتن إليه ، فرمقن بأعينهن منا ما استكثرن شخصه ، واستهلن  
أمره ، حتى إذا كنا نبرأى ومسمع انجذبين موليات ، وهربن مسييات . فأجهدنا الركض  
في طلبهن ، تتبع آثارهن ، ونستشف بلاء بين أحفار ودكاك وخناذيد ، حتى أشفى  
بنا الطلب على واد هائل سائل بجنبته غابة أشية قد سبقن إليها ، واستخفين  
فيها ، فنظامناها بالخليل نظم الخرز ، ثم أوغلت عدة فرسان في نفصها ومعرفة  
أحوالها ، والطلبول خافقة ، والأصوات شاهقة فكان وكان ؛ والحمد لله على  
كل حال .

وهذه الرسالة في نظري من أهم رسائل عبد الحميد ، فهي تكشف عن خصائصه  
في الأسلوب من إطناب ، وترادف جمل ، وتوازنها ، ومن ازدواج ، وسجع مفتتر ،  
والتزام لبعض الصيغ الموسيقى والإيضاح مثل صيغة التفضيل والحال . ولكن  
أهم من كل ذلك أنها تكشف لنا عن إحساس مرهف عند عبد الحميد ، فنراه  
يحس بالطبيعة إحساسا شديدا ، ويحاول أن يرسمها كما يراها ويحس بها .  
فهو رسم واقعى صادق شامل ملم للأطراف والتفاصيل . وذلك من شأن  
العقول المنطقية التى رأينا أن عبد الحميد لم يكن غريبا عنها . وهكذا نعرف  
من هذه الرسالة عبد الحميد الواقعى المصور الطبيعى المرهف الإحساس  
بالطبيعة ومفاتها .

وقد رأينا أن من أسباب أهمية كتاب عبد الحميد السابق دلالاته على ثقافته



العامة ، ومن العوامل التي تجعل هذه الرسالة الراهنة هامة في نظر دارسي الأدب العربي وعبد الحميد خاصة ، دلالتها على ثقافته العربية . فهي تدل دلالة واضحة على اطلاع واسع على الشعر العربي القديم وطردياته خاصة ، وهضم لأوصاف هؤلاء الشعراء ، ثم مشاركة من عبد الحميد للمطاردين والصيادين . فهذه الرسالة لا يستطيع أن يخرجها إلا من أكثر قراءة الطرديات القديمة ، ولا يستطيع أن يخرجها بهذه الحياة وهذه القوة إلا من عانى الصيد ، ولا في متاعبه وأحواله ، وملأه ومتعه .

#### رسالة إلى العصاة

ولدينا رسالة أخرى لعبد الحميد تظهر فيها خاصة لم تظهر في رسائله الباقية ، تلك الرسالة التي كتبها إلى بعض من خرج عن الطاعة : <sup>(١)</sup> «أما بعد ،

فقد بلغني كتابك تذكر أنك تحمل المرء على الجرء ، فسترد عليك جنود الله المربعون ، وأولياؤه الغالبون ، ويرد عليك مع ذلك حزبه المنصور من السكحول ، على الفحول ، كأشها الوعول ، نخوض الوحول ، طوال السبال ، تحتضب بالجريال ، رجال هم الرجال ، بين رمح وناشب ، ليس معهم إلا كلب محارب ، ولا ينسكلون عن الأصحاب ، فقد ضربوا بضرب الهام ، واعتادوا السكر والإقدام ، ليسو بندي هيئة ولا إحجام ، يقضون بالسيوف ، ويخالطون الزخوف ، في أعنتهم الختوف .

فوجد عبد الحميد في الفقرة السابقة يلتزم السجع التزاما شديدا ، لم نره عنده

(١) محمد كرد علي : أمراء البيان ص ٥٥ . وأحمد صفوت : الجمهرة ٢ : ٤٧١ .



في رسائله الأخرى ، ما قد يجعل شيئاً من الشك يتسرب إلى نفوسنا في صحة نسبة هذه الرسالة إليه ، غير أن هناك بعض الفقرات من الرسائل الأخرى تحد من ازدياد هذا الشك . فإننا نرى هذا السجع الملتزم أو ما يقاربه في رسالته إلى العرب حين فاض العجم من خراسان بشعار العباسيين الأسود <sup>(١)</sup> :

« فَلَا تَمَكَّنُوا نَاصِيَةَ الدَّرَّةِ الْعَرَبِيَّةِ ، مِنْ يَدِ الْفَتَّةِ الْعَجْمِيَّةِ ، وَاثْبُتُوا رِثَا تَنْجِي هَذِهِ الْغَمْرَةِ ، وَنَصَحُوا مِنْ هَذِهِ السَّكْرَةِ . فَسَيَنْضُبُ السَّيْلُ ، وَتُمْحَى آيَةُ اللَّيْلِ ، وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ، وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ » .

بل نجد السجع في القطعة التي يقال إن كتابه إلى أبي مسلم الخراساني بدأ بها <sup>(٢)</sup> : « لَوْ أَرَادَ اللَّهُ بِالْمَلَةِ صِلَاحًا ، لَمَا أَثْبَتَ لَهَا جَنَاحًا » . فإن هذه القطعة لو كانت صحيحة تدلنا على أن عبد الحميد كان يولع بالسجع أحياناً ، وخاصة في كتبه إلى الثوار والخرجين عن الطاعة . أما إذا كانت موضوعية ، فإنها تدلنا على أن واضعها كان يشعر بأن عبد الحميد كان يفرم بالسجع أحياناً ، وذلك مما يجعلنا نطمئن إلى الرسائل المسجوعة المنسوبة إليه . كما نراه يسجع في بعض تكميداته <sup>(٣)</sup> :

« الْحَمْدُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ مَكَانَهُ ، الْمُتَبَرِّكِ بَرَاهَانَهُ ، الْعَزِيزِ سُلْطَانَهُ ، الثَّابِتَةِ كَلِمَاتِهِ ، الشَّافِيَةِ آيَاتِهِ ، الزَّافِذِ قَضَائِهِ ، الصَّادِقِ وَعْدِهِ ... » .

(٢) أحمد صفوت : الجهرة ٢ : ٥٦٩ .

(١) أحمد صفوت : الجهرة ٢ : ٥٦٨ .

(٢) نفس المرجع ٥٥١ .



### مجلد خصائص عبد الحميد

نخرج من هذه الرسائل ، التي حللناها ، وغيرها من الرسائل التي لم نحللها هنا ، مجموعة من الخصائص كان يتحلى بها عبد الحميد . ولعل أول ما نخرج به أنه كان ذا عقل منطقي ، متسلسل الأفكار ، منتظم الخطوات . يظهر هذا في تقسيمه رسائله إلى فقرات ، تتألف كل واحدة منها من فكرة خاصة لا تنعدها إلى الفقرة الأخرى . وتتألف هذه الأفكار الخاصة في الفقرات المنفصلة ، وتترابط ، فيكون منها الموضوع العام أو الرسالة . ويظهر هذا التقسيم أوضح ما يظهر في رسالته إلى ولي العهد . ولذلك يقول عنه الدكتور طه حسين : إن قارئه يستطيع أن يقرأ الفقرة ثم يقف ويستريح عند آخرها ، بل يستطيع أن يطوى الكتاب يوما أو أكثر ثم يعود إلى القراءة دون أن يشعر بانقطاع المعنى <sup>(١)</sup> . وهذا التقسيم للموضوع غريب عن العقل العربي ، لم نعهده فيمن قبل عبد الحميد ، وإنما عهدنا منهم ومن بعدهم استطرادا وخروجا عن الموضوع إلى اليمين والشمال ، ورجوعا إليه متى أحبوا ، بل قد لا يرجعون إليه أبدا . فهذا التقسيم وليد هذا العقل المنطقي .

وظهر تفكيره المنطقي أيضا في ميله إلى الواقعية في التصوير ، فإن هذا اللون من التصوير أشبه ما يكون بذلك التفكير . وقد اتضح لنا هذا في رسالته في الصيد التي نعرف منها أيضا حبه في تصوير المناظر الطبيعية ، بل حبه في التصوير عامة . وقد ظهر لنا ذلك أيضا في رسائله الإخوانية ، وخاصة رسالته عندما أنجب ابنه ، وفي رسالته إلى الكتاب أيضا . وكان من آثار حاسته المصورة هذه استعمال التشبيه

---

(١) طه حسين : من حديث الشعر والنثر ٦٨ .



والاستعارة والتشخيص ، وتظهر هذه الخاصة في رسالته التي يقول فيها (٢) :  
« الناس أصناف مختلفون ، وأطوار متباينون ، منهم علق مضنة لا يباع ، ومنهم  
غل مظنة لا يبتاع » .

وقد دفعه تفكيره المنطقي أيضاً إلى تحرى الدقة في عباراته ، وتوضيح ما يقصده  
من معان ، فأدى به ذلك إلى الإكثار من استعمال الحال كثرة ملحوظة ، لأنجدها  
عند غير مدرسة عبد الحميد وأستاذه من الأدباء . وهي على غرابتها عن اللغة العربية ،  
مألوفة في اللغة اليونانية ، مما جعل بعض المحدثين يربطون بين هذه المدرسة وهذه اللغة ،  
التي نعرف أن سالما كان يعرفها ويترجم منها ، والتي ربما عرفها عبد الحميد ،  
وإن لم يصرحوا لنا بذلك . ولكنه — إن لم يكن عرفها مباشرة — فقد عرفها  
بطريق غير مباشر ، أعنى كتابات أستاذه ، التي تأثر بها ، وتطبع ببعض خصائصها .  
ولكننا نحس ألا نعطي هذه الظاهرة أكثر مما تستحق ، فإن عبد الحميد لا  
يكثر منها وحدها ، بل لعله يأتي ببعض الصيغ الأخرى أكثر مما يأتي بها . فنراه  
يكثر من التفضيل والتمييز والمفعول المطلق ، والمفعول لأجله ، وأساليب العلة .  
ومما لا شك فيه أن صيغة التفضيل مع التمييز أكثر دورانا في كتابته من الحال .  
ولعل تحريره الوضوح هو ما دعاه إلى الإتيان بالطباق في كتابته أحيانا ، إذ من  
المعروف أن الطباق والمقابلة يساعدان على إبراز الفكرة وإيضاحها . ولكن إكثار  
عبد الحميد من هذه الصيغ في العبارات المتجاورة لم يكن يرجع إلى تفكيره المنطقي  
وحده ، بل يرجع إلى مراعاته للموسيقى ، وحبّه توفيراً أكبر قسط منها لكتابته .  
وليس من الغريب أن نقول عن عبد الحميد إنه كان منطقي التفكير ،

---

(٢) الجهبشارى : الوزراء والكتاب ٨٢ .



ما دما قد عرفنا أن أستاذة قد ترجم بعض رسائل أرسطو ، وربما كان مطلعاً على منطقته ، ولعله لقنه تلاميذه أيضاً ، كما أننا رأينا عبد الحميد متأثراً بالثقافة اليونانية في كثير من خصائصه ، وخاصة في رسالته لولى العهد . وقد قلنا قبل إن ذلك العقل المنطقي لا يبعد أن يكون طبيعة فطر عليها ، وترعرعت معه ، فسادت على جميع كتاباته .

ولم تجرُ عناية عبد الحميد بأفكاره ومعانيه على عنايته بألفاظه ، بل كان يُعنى بها عناية شديدة أيضاً . وكان يتأنق في ألفاظه ويتخيرها ، ويحبها جزلة فخمة ، وهو يصرح بذلك ، فيقول <sup>(١)</sup> : « خير الكلام ما كان لفظه فحلاً ومعناه بكرة » . ولم يكن يُعنى بالألفاظ وحدها ، بل بصياغتها أيضاً . فهو ينظم الجمل نظاماً موسيقياً متألّفاً متوازناً . ويعتمد في ذلك على الترادف والتقابل . فيؤدى الفكرة الواحدة في عبارتين أو أكثر ، ولا يؤديها في عبارة واحدة ، طلباً للترادف الصوتي ، والتوازن الموسيقي . إذ تتعادل العبارتان أو العبارات ، فتعطى موسيقى متوازنة متناسقة . وكان من آثار هذا الترادف ميله إلى الإطناب والإسهاب ، اللذين يغلبان على كتبه . وإن كان ذلك لم ينسهِ الإيجاز البليغ الذي يظهر في بعض رسائله كرسالته يوصى بشخص <sup>(٢)</sup> : « حقّ موصل كتابي إليك كحقه على ، إذ جعلك موضعاً لأمله ، ورأى أهلاً لحاجته ، وقد أنجزت حاجته ، فصدّق أمله » . وكان يعنى بالزواج في عباراته ، ويميل إلى السجع أحياناً ، وقد ينسى نفسه فيلتزم هذا السجع ، وخاصة في رسائله

(١) ابن خلكان : وفیات الأعيان ١ : ٣٠٧ .

(٢) أحمد صفوت : الجرة ٢ : ٥٥٤ .



لى الثوار والخارجين على الدولة . وكان ذلك سبباً فى توافر الموسيقى فى كتابته ، كما ساعد على ذلك إكثاره من بعض الصيغ الخاصة فى الجمل المتجاورة مثل التمييز ، والمفعول به المقدم ، واسم الفاعل ، وما إلى ذلك ، حتى لنراه أحياناً يتبع نظاماً خاصاً فى فقرة من فقراته ، ويطبقه فى جميع جملة .

هذه هى خصائص عبد الحميد قد وضحت أمامنا ، فامكانه بين كتاب العربية ؟ إذا رجعنا إلى الأقدمين وجدناهم يرفعون من شأن عبد الحميد ، ويهدون إليه أعظم المدائح ، فينعتونه بأنه « كان فى نهاية الفصاحة والبلاغة <sup>(١)</sup> » وأنه « أول من فتق أكام البلاغة ، وسهل طرقها <sup>(٢)</sup> » وأنه « صاحب الرسائل والبلاغات ، وهو أول من أطال الرسائل ، واستعمل التحميدات فى فصول الكتب ، فاستعمل الناس ذلك بعده <sup>(٣)</sup> » وأنه « عنه أخذ المترسلون ، ولطريقته لزموا ، وهو الذى سهل سبل البلاغة فى الترسل <sup>(٤)</sup> » وأنه « فُتحت الكتابة بعبد الحميد وختمت بابن العميد <sup>(٥)</sup> » ، وغير ذلك من المدائح التى نخرج منها بأنه إمام كتاب العهد الأموى ، وأنه شق الطريق الذى سلكه الكتاب من بعده فى الكتابة .

ونحن نذهب معهم فى ذلك القول ، ولكننا نحترس فلا نعطى به أنه لم توجد كتابة فنية قبله ، بل وجدت ، ووجدت منذ أوائل العصر الأموى ، كما أبنت من قبل . أما عبد الحميد فكان القمة التى وصلت إليها الكتابة الفنية الأموية ،

(١) ابن النديم : الفهرست ١١٨ . (٢) ابن عبدربه : العقد الفريد ٢ : ٢٠٦ .

(٣) السعوى : مروج الذهب ٦ : ٨١ . (٤) ابن النديم : الفهرست ١٧٠ .

(٥) الثعالبي : يتيمة الدهر ٣ : ١٣٧ .



وأخذت عندها صورتها النهائية . وعندما جاء الكتاب من بعده استعملوا  
تقاليدهم الكتابية ، وقواعدهم الفنية من هذا العلم البارز الذي يمثل نفسه ،  
و يمثل الكتابة العربية منذ بدء تطورها إلى ختام هذا الطور الأول . فنستطيع أن  
نقول — دون خطأ — إن قواعد الكتابة الفنية ، التي أعارها عبد الحميد الكتاب  
بعده ، لم تكن من ابتكاره وحده ، وإنما كانت من ابتكار من قبله ، ومن  
تبعه لهذه البذور الأولى ، وإعطائها صورتها النهائية .







المجلد الثاني  
الكتابة التاريخية



## الكتابة التاريخية

### تعريف

التاريخ : تعريف الوقت ، والتورخ مثله . أرخ الكتاب ليوم كذا : وقته ، والوافيه لغة . وزعم يعقوب أن الواو بدل من الهمزة <sup>(١)</sup> . وقد اختلف العلماء في أصل هذا اللفظ ، فذهب به بعضهم إلى العربية الخالصة ، فقال : إن التاريخ مأخوذ من لفظ الأرخ ، بمعنى ولد البقرة الصغير ، لأنه يشبه الشيء الحادث كما يحدث الولد ، فهو حَدَثٌ جديد <sup>(٢)</sup> . وعزاه بعضهم الآخر إلى الفارسية ، فقال : إن أصله «ماه روز» بمعنى «يوم الشهر» فعربوها ، فقالوا «مورخ» وجعلوا المصدر منها «التاريخ» <sup>(٣)</sup> . وهو اشتقاق بعيد ، لا يظهر فيه تقارب بين اللفظين العربي والفارسي .

ويتصل هذا القول - دون شك - بالخبر القائل بأن المسلمين تأثروا بالفرس في أخذهم تاريخ الهجرة تقويمًا لهم ، إذ أشار الهرمزان الفارسي على عمر بن الخطاب بذلك <sup>(٤)</sup> . ولسكننا نرجح الرأي القائل بعربية الكلمة ، وإن كنا لا نشاركهم في أنها مأخوذة من الأرخ ، وإنما هي كلمة عربية قديمة مشتركة في اللغات السامية ، تلوح القرابة بينها وبين كلمتي «يرح» التي معناها «القمر» و «الشهر» في العبرية <sup>(٥)</sup> . ومن المعوف أن الساميين كانوا

(١) لسان العرب ، مادة « أرخ » . (٢) المصدر السابق .

(٣) البيروني : الآثار الباقية ٢٩ ، والحوارزمي : مفاتيح العلوم ٧٩ .

(٤) نفس المرجعين . (٥) جب : دائر المعارف الإسلامية مادة « تاريخ » .



تحددون مشهورهم بالقمر لا بالشمس ، ولذلك كانوا يبنون تاريخهم على الليالى دون الأيام ، كما هو الحال فى التقويم الهجرى الآن . وعلى هذا رأى ترى أن معنى كلمة « التاريخ » فى مبدأ أمرها كان « تحديد الشهر » ، ثم اتسع فصار التوقيت العام أى تحديد عهد أى حادث من الحوادث . ولا زالت اللغة فى تطورها حتى شمل هذا اللفظ رواية الحادث نفسه من جهة ، وتحديدته من جهة أخرى ، وكانت هذه الخطوة الأخيرة فى سبيل بزوغ كلمة التاريخ بالمعنى الاصطلاحي المعروف .

وأطلق لفظ التاريخ فى عهده الأخير على عدة معان متقاربة . فهو بمعنى التاريخ العام ، أى تسجيل أهم الحوادث كما يظهر فى تاريخ الطبرى قبل الإسلام والكتب الأخرى ؛ وهو بمعنى الحوليات ، أى تدوين الحوادث عاما فعاما مثل تاريخ الطبرى بعد الإسلام وتاريخ ابن الأثير وغيرهما ؛ وهو بمعنى تدوين الأخبار مرتبة بحسب العصور ، مثل سيرة معاوية وبنى أمية لعوانة ابن الحكم ؛ وهو بمعنى التراجم ، كما نرى فى كتاب « إخبار العلماء بأخبار الحكماء » لابن القفطى ومعجم ابن خلسكان وغيرهما . وأطلق أيضا على مصنفات تختلف عن المصنفات التاريخية اختلافا كبيرا ، مثل « تاريخ الهند » للبيرونى ، إذ هو أقرب إلى مصنفات البحوث العقلية منه إلى المصنفات التاريخية . ويعنى إلى جانب كل هذه المعانى ، المعنى القوي الأول ، أعنى تحديد بداية الأخبار الخاصة بعصر من العصور ، أو حساب الأزمان وحصرها ، أو تحديد زمن وقوع الحوادث تحديدا دقيقا .



## الفصل الأول

### ظهور الكتابة التاريخية

#### العصر الجاهلي

تكلّمنا - قبل - عن العصر الجاهلي ، وما عرف فيه من كتابة . ولكننا إذا أجهدنا أنفسنا باحثين عن أى نوع من الكتابة التاريخية ، لم نكد نظفر بشيء ، حتى البلدان المتحضرة التي كنا نظن أنها تحرص على تسجيل حياتها ورقمها ، مثل اليمن والحيرة وغسان ، لم يصل إلينا منها كتب تاريخية أيضاً ، وكان تاريخها نسياً منسياً لدى العرب ، سكانها أو غير سكانها ، ولذلك دخلت عليهم الأباطيل والخرافات عند ما أرادوا الكتابة عنها بعد ظهور الإسلام ، وحلق بهم الخيال في الأجواء ، حتى ما نستطيع أن نركن إلى حقيقة مما يقولون . على الرغم من النقوش الموجودة حتى اليوم على الآثار الباقية في اليمن وشمال بلاد الحجاز وجنوب الشام ، مما يدل على جهل المؤرخين العرب بالخط الحميري والخطوط الأخرى في بلاد العرب القديمة . والشيء الوحيد الذي نسمع عنه هو تلك المدونات التاريخية المودعة في أديار الحيرة وكنائسها والتي اطلع عليها السكلي فيما بعد ، وإن كنا لا نعرف عنها شيئاً فيما عدا ذلك <sup>(١)</sup> .

ولا يمكننا الركون كثيراً إلى الوثائق التي تروى في كتب التاريخ الإسلامية



عن هذا العصر ، وإنما نقابلها بالشك الشديد ، الذي تثبته فينا ظروف هذه الوثائق ومثلها الواضح تلك الوثيقة التي يذكرها أبو حنيفة الدينوري في تاريخه أن عمر ابن إبراهيم من ولد أبرهة بن الصباح آخر ملوك اليمن أرسلها إلى السكرماني حسب طلب الأخير<sup>(١)</sup> . وكانت هذه الوثيقة عبارة عن حلف عقد بين بيعة واليمن أمام تبع بن ملسكيكرب . وعبارة الوثيقة مسجوعة ، وفيها عدة إشارات إلى ضروب النسك الوثني ، وإن كانت تبدأ بعبارة إسلامية تقول : « بسم الله العلي الأعظم ، الماجد المنعم » ، وتنتهي بذكر الله وشهادته على الحلف كما كان يفعل المسلمون ، إذ تقول : « وشهد الله الأجل ، الذي ما شاء فعل » . ولا شك أن المرء حين يقع نظره على الرسالة يغمره الشك فيها من جميع الأنحاء .

### الأيام

ولكن العرب — على الرغم من كل ذلك — عرفت نوعاً من التاريخ الشفهي ، فقد كانت القبائل تروى أيامها : حروبها وانتصاراتها ، لتفخر بها على القبائل الأخرى ، سواء كانت ذلك شعراً خالصاً أو نثراً تتخلله الأشعار . ولم تكن الصلة واحدة دوماً بين الشعر والنثر في الأخبار ، فأحياناً يكون النثر مرصعاً للقصيدة ، وأحياناً يكون الشعر مرتجلاً على لسان أحد أبطال الخبر دون أن تربطه صلة بالخبر المنشور . وكان الشعر في كلتا الحالتين هو الذي يحافظ على تناقل الخبر وانتشاره فلما نسيتم هذه الأشعار نسيتم الروايات القديمة ، وابتسرت أشعار جديدة للتنويه بمآثر القبيلة من أفعال مجيدة . وعلى الرغم من كل ذلك فإننا

(٢) أبو حنيفة أحمد بن داود الدينوري : الأخبار الطوال ٣٥٢ .



نستطيع أن نطمئن إليها بعض الاطمئنان ، إذ لا بد أنها تقوم على أساس واقعي ، وإن اصطبغت بالتحيز والمغالاة .

### الأنساب

وكانت كل قبيلة تحفظ نسبها ، وتحفظه أبناءها ، لتظل نقيمة بعيدة عن الشوائب ولتستطيع أن تفخر به على القبائل الأخرى . وسيكون لهذا الفرع من التاريخ مكانته بعد الإسلام .

وهكذا وجدت هذه القصص التاريخية المصبوغة بالخرافات والأساطير لدى القبائل ، وكانت كل قبيلة تعنى بما تعتبره تاريخها ، وترويه لأجيالها القادمة . ولكن عرب الشمال لم يصلوا بعد إلى تاريخ عام لهم ، يشمل كل قبائلهم ، إذ لم يكونوا قد أدركوا معنى الوطن ، ولم تكن وحدتهم الظروف في أمة واحدة .

### تاريخ الأمم المجاورة

وعرف العرب تاريخ من جاورهم من الأمم ، مثل الفُرس والرومان ، حتى يقال إن النضر بن الحارث كان ينافس الرسول ، ويدل عليه بمعارفه عن الفرس . ولكن ذلك التاريخ كان قصصا وخرافات ، لا تختلف عما عند عرب الجنوب والشمال في أغلب الظن .

### ظهور الإسلام

لما جاء الإسلام انتشرت في المملكة الإسلامية في هذا العهد حركة تاريخية أخذت تتسع وتنظم شيئاً فشيئاً ، حتى خلفت لنا ثروة أدبية من أغنى ثروات الأدب العربي ، وكانت أهم العوامل التي بعثت تلك الحركة هي :



(١) احتاج المسلمون في تفسير الآيات القرآنية إلى معرفة مناسباتها ، أعني سبب نزولها ، والموضع الذي نزلت فيه ، والحادثة التي تشير إليها ، وما إلى ذلك مما يسمى ما حول النص . ومن الواضح أن معرفة هذه الأشياء تحتاج إلى بحث تاريخي في حوادث الإسلام ، وهكذا كان التفسير من العوامل التي دعت إلى الكتابة التاريخية .

وقد أكثر القرآن أيضاً من الإشارات إلى الأمم والقبائل والأنبياء في قصصه عن الغابرين فرغب علماء المسلمين في فهم هذه الإشارات وتوضيحها . وكان الإسلام قد أظلم كثيراً من اليهود والنصارى ، فلجأ إليهم المسلمون ليعرفوهم بتلك الإشارات ، فأخذ هؤلاء يحدثونهم بقصص التوراة والإنجيل وشروحهما ، فربطها المسلمون بالتفسير والتاريخ ، واشتهرت هذه الأخبار في العلمين باسم « لأمريليات » . ويتمثل لنا ذلك في كتب الأخبار ( المتوفى عام ٣٤٤ هـ ) ووهب بن منبه ( المتوفى عام ١١٠ هـ ) . ولا تزال آثارهما في كتب التاريخ والتفسير التي وصلت إلينا .

(٢) كان الحديث أيضاً من عوامل ظهور الكتابة التاريخية ، إذ عني المسلمون بجمع الأحاديث ليفسروا بها القرآن ، ويستنبطوا منها أحكام الدين . وكان من هذه الأحاديث جملة وافرة تتعلق بحياة النبي والصحابة ، فجمعت فيما جمع ، وكانت أساس كتب السيرة والمغازي فيما بعد .

(٣) شعر بعض الخلفاء أنهم محتاجون إلى نبراس يهتدون بهديه في سلوكهم ، إذ لم يكن لهم تراث عربي يقتدون به ، كما أنهم رأوا بممالك أجنبية بهرتهم حضارتها ، فأحبوا أن يعرفوا كيفية سياستها ونظامها . فقد كثرت المشكلات السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، حتى هدمت نظام الخلافة ، وأقامت نظام الملك وواجه العقل العربي ، الذي كان ساذجاً في جاهليته ، مشكلات حقيقية ، منها



ما يمس الدين والحضارة ، ومنها ما يمس الحياة المادية والاجتماعية ، فرأى ألا بد من الاستعانة بأخبار من سبقه من العقول ليستنير بها . روى المسعودي <sup>(١)</sup> عن معاوية أنه كان بعد أن يفرغ من عمله « يستمر إلى ثلث الليل في أخبار العرب وأيامها ، والعجم وملوكها ، وسياستها لرعيتهما ، وغير ذلك من أخبار الأمم السالفة... ثم يدخل فينام ثلث الليل ، ثم يقوم فيقعد فيحضر الدفاتر فيها سير الملوك وأخبارها ، والحروب والمساكيد ، فيقرأ ذلك عليه غلمان له مرتبون ، وقد وكلوا بحفظها وقرائتها . فتمر بسمعه كل ليلة جمل من الأخبار والسير والآثار وأنواع السياسات » .

(٤) كان الأجانب الذين أظلمهم الإسلام يفخرون على العرب بتاريخهم وحضارتهم ، ويروون لهم أفعالهم الحميدة في ماضيهم ، فاضطر العرب إلى ابتكار تاريخ لهم يستطيعون به الوقوف بإزاء هذا الفخر الأجنبي ، ويظهرون لأنسابهم وغيرهم من الأمم أنهم ، وإن كانوا حديثي عهد بالحضارة ، ليسوا أقل من الأمم الأخرى مجداً ومكانة . وكان هذا من دواعي ظهور الكتابة التاريخية في الأمة اليونانية أيضاً .

(٥) كان نظام الحكومة الإسلامية ، وخاصة النظام المالي ، من العوامل التي أدت إلى قيام الحركة التاريخية وانتشارها ، لأن الضرائب على البلدان المختلفة تباين حسب فتحها صلحاً ، أو عنوة ، أو عهد ، وكانت المعاملة السياسية والاجتماعية نفسها تختلف في بعض البلدان تبعاً لما حدث في أثناء فتحها ، فدعا كل ذلك ، والنظام المالي خاصة ، إلى بحث تاريخ الفتح ، والاهتمام بهذا الفرع من التاريخ . ودعا النظام المالي إلى نشوء فرع آخر من التاريخ ، وذلك لأن نظام العطاء



تغير منذ عهد عمر ، فصار بحسب الأسبقية إلى الإسلام ، أى أن الذين أسلموا في أول الدعوة يأخذون من العطاء أكثر مما يأخذ من أسلم بعدهم ، ومن أسلم وهاجر يأخذ أكثر من المسلم بعد الهجرة ، ومن أسلم وشهد بدرأ يأخذ أكثر ممن لم يشهدا من الذين أسلموا بعدها ، وهلم جرا . وكان هذا النظام سبباً في البحث الدقيق في الدعوة الإسلامية وانتشارها . كما كان العطاء مرتباً أيضاً حسب الأنساب ، أى يبدأ بقرابة النبي صلى الله عليه وسلم الأقرب فالأقرب ، ثم قرابة أبي بكر ، ثم عمر . . . وهكذا في الأنصار ، وفي جميع المسلمين . ومن الواضح أن هذا النظام يدعو إلى البحث في الأنساب ، وظهور هذا النوع من التاريخ ، وظهور كتب الطبقات أيضاً .

(٦) ابتداء حركة التأليف في العلوم الأخرى المعروفة بين العرب في ذلك الوقت ، حتى إننا نجد صحّارا العبدى يؤلف كتاباً في الأمثال . ثم يتطور الأمر بمرور الزمن فتترجم بعض كتب الكيمياء في عهد خالد بن يزيد بن معاوية ، ويأمر عمر بن عبد العزيز بجمع الحديث ، وترجمة كتاب في الطب ، ويقول بعض الرواة إن عروة بن الزبير أحرق بعض كتب ألفها في الفقه في يوم الحرّة<sup>(١)</sup> . كل هذه الحركة التأليفية تدل على أن العقل العربى كان يعاني تحولا خطيراً ، وأنه أخذ في التمدن السريع ، والمشاركة في التدوين والتأليف .

(٧) وآخر الأمر لا ننسى استمرار ما كان في الجاهلية من عناية بالأنساب والأيام ، ازدادت في العهد الإسلامى ، لأنها تغذى الشعراء في ميدان الفخر والهجاء والنقائض التى شاعت في هذا العصر ، وكان لها المقام الأول في شعر الفحول . واتخذ هذا النوع من التاريخ لوناً جديداً أيضاً ، هو العناية بغزوات الرسول . فما كان ذلك النوع من التاريخ إلا استمراراً لما عهد عند الجاهليين ، إلا أن الإسلاميين قيدوا ، والجاهليين حفظوا ورووا .

(١) ابن سعد : الطبقات ٥ : ١٣٣ .



## الباب الثالث

### المؤرخون وكتبهم

#### الكتاب الأول

اجتمعت العوامل السابقة فأشعلت الروح التاريخي في المسلمين ، فأخذوا ينظرون في هذا الفن ، باحثين منقبين ، وشرعوا يروون الأخبار التي يستطيعون الوصول إليها . ولكننا لانبث أن نرى هذه الأخبار الشفوية تدون في عهد معاوية ، في رسائل صغيرة تسمى كتباً . وكان هذا تحولا خطيراً ، يبشر بما سيمتلوه من تقدم ورق في الدراسة التاريخية . ولا ندري بالتحقيق ما أول كتاب ظهر في التاريخ عند العرب . ولكن يتنازع الأسبقية زياد ابن أبيه ( المتوفى عام ٥٣ هـ ) ودغفل النسابة البكري ( المتوفى عام ٦٠ هـ ) وعبد الله بن عباس ( المتوفى عام ٦٨ هـ ) وعبيد ابن شربة الجُرهمي ( المتوفى عام ٧٠ هـ تقريباً ) .

#### زياد ابن أبيه

أما زياد ابن أبيه فقد ألف كتاباً في مثالب العرب <sup>(١)</sup> . ولا يدهشنا ذلك كثيراً ، إذ نعرف قصة نسب زياد ، واستلحاق معاوية إياه ، وكراهية المسلمين لذلك ، بل سخرية بعض الشعراء من هذا الاستلحاق . ولذلك أراد أن يزود

---

(١) ابن النديم : الفهرست ٨٩ .



نفسه وأبناءه بسلاح يخيف به المتعرضين له ، ويشعره بعدم نقصه ، بل بنقص الآخرين في هذه الناحية . ولذلك أرجح أنه كُتب في الأنساب خاصة ، وأنه ألفه بعد استحقاق معاوية إياه ، وتعبير الناس له . ويؤسفنا أن هذا الكتاب فقد ، ولم يبق لنا منه شيء ، وإن كنا نرجح أن كُتب الأنساب والشعوبيين المتأخرين أخذت عنه .

### دغفل النسابة

' أما كُتب دغفل النسابة فمجالس وأسما ، في بلاط الخليفة معاوية بن أبي سفيان الذي كان محبا للمسامرة وأحاديث من مضى . ويسمى هذا الكتاب « التظافر والتناصر » . ويروى كتاب « التحفة البهية والطرفة الشمية <sup>(١)</sup> » المجلس الثامن عشر منه ، فيقول : « ذكر في كتاب التظافر والتناصر ، وهو مجالس دغفل النسابة البكرى عند معاوية ، وأنه سأله في الثامن عشر من مجالسه ، فقال : « من أبلغ العرب في ثنائه ؟ » فقال دغفل : « ذاك النابغة الذبياني حين دخل على الحارث ابن أبي شمر الغساني ، يطلب إليه في أسارى قومه ، فقال : « ألا انعم صبا حايها الملك المبارك ، السماء غطاؤك ، والأرض وطاؤك ، ويلدى فداؤك ، والعرب وقاؤك ، والعجم حماؤك ، والحكماء وزراؤك ، والعلماء جلساؤك ، والمقاول إخوانك ، والعقل شعارك ، والحلم دنارك ، والسكينة مهادك ، والوقار غشاؤك ، والبر وسادك ، والصدق رداؤك ، واليمن حِداؤك ، والسخاء ظهارتك ، والحياء بطانتك ، والعلاء غايتك ، وأكرم الأحياء أحياءك ، وأشرف الأجداد أجدادك ، وخير الآباء آبائك ، وأفضل الأعمام أعمامك ، وأسرى الأخوال أخوالك ، وأعف النساء حلائلك ... » .



ونحن إذا صدقنا هذا القول ولم نذهب مع ابن النديم الذى ينص على أنه لم يصنف شيئاً<sup>(١)</sup>، لا نستطيع أن نأخذ هذا المجلس حقيقة لا شك فيها . فإننا نرى الكلام ملازماً للسجع ، وفيه أشياء منافية لذلك العصر ، ولم نعتد العثور عليها فيه . كما نرى فيه نزعة إسلامية تسير مع قول القائلين بالتبشير بمحمد قبل ظهوره . ونحن إذا لم نشك فى هذا التسكهن ، فإننا نشك فى تكهن النابعة بإسلام الحارث . وإنه لم يسلم فعلاً ، وما أظن أنه كان يعد الإسلام فخراً له ، فى عصره ذلك . ولكن هذا المجلس على كل حال ، يبين لنا أن كتاب « التظافر والتناصر » ، إن كان وجد على الإطلاق ، كان يعالج التاريخ الأدبى ، ويبين مقدار عنايتهم بالسمر ، وأثر هذا السمر فى تجويد العبارة وتحسينها .

#### ابن عباس

أما ابن عباس فقد نسب إليه بعض الرواة<sup>(٢)</sup> مدونات استقى منها من بعده من المؤرخين . ولا يذكرون أن ابن عباس جعل من هذه المدونات كتاباً خاصاً أعطاه اسماً معيناً . وهى فى غالب الظن بعض مجالسه التى كان يفسر فيها القرآن ، ويتعرض لمختلف المعارف العربية ، دونها أحد تلاميذه أو أبنائه . ونحن لانستطيع أن نتكلم عنها أكثر من ذلك ، لأن ابن عباس من الذين حُمل عليهم كثير من الأخبار فى كل فن .

---

(١) ابن النديم : الفهرست ٨٩ .

(٢) ابن سعد : الطبقات ٥ : ٢١٦ .



عميد بن شريعة

أنتجت لنا مجالس معاوية الكتاب الرابع أيضاً ، إذ أشار عمرو بن العاص على معاوية باستدعاء عميد ، وسؤاله عن الأخبار المتقدمة ، لما رآه فيه من حب المسامرة والأخبار السالفة . فأخضره واتخذهُ سميراً له ، وأمر كتابه بتدوين أحاديثه ونسبتها إليه . فدونت تحت عنوان « كتاب الملوك وأخبار الماضين » ، كما يقول صاحب الفهرست <sup>(١)</sup> . وقد طبع الجزء الذي وجد من الكتاب في حيدرآباد باسم « أخبار عميد بن شريعة الجرهمي في أخبار اليمن وأشعارها وأنسابها » . ولا يزعمنا هذا الاختلاف كثيراً ، لأن عميداً نفسه لم يدونه ، ولا عنوانه كتاب معاوية ، بل نسبوه إليه دون عنوانه ، كما يبدو . ومن ثم اختلف النساخ المختلفون في عنوانه . ولا يبعد أن يكون لهذا الاختلاف أسباب أخرى غابت عنا . ويؤكد لنا العنوان نفسه أنه من وضع أناس غير عميد ، إذ تقول النسخة المطبوعة : « أخبار عميد بن شريعة الجرهمي في أخبار اليمن وأشعارها وأنسابها على الوفاء والسكال ، والحمد لله على كل حال » . فتصريحه باسم عميد ، وقوله « على الوفاء والسكال » ، يشعران بأن هذه العبارة كلهما من كتابة شخص آخر غير المؤلف .

وحين نقلب صفحة العنوان نرى الكتاب يبدأ بالبسملة والحمد ، ثم سفد روايته : « حدثنا عميد بن شريعة الجرهمي ، عن البرقي رفع الحديث أن معاوية ... » . وإذن فالكتاب من رواية البرقي ، وهو تلميذ لابن هشام . وإذن فالمستركرنسكو J. Krenkow له دعامة التي يتكى عليها ، حين يستنتج من ذلك أن جامع الكتاب

(١) ابن النديم : الفهرست ٨٩ .



هو ابن هشام ، وأن القائل «عن البرقي» أحدثلامذته . ولسنا نستبعد ذلك ، ولكن نحب أن نتصفح الكتاب قبل الإدلاء برأينا .

يقدم الكاتب بين يدي الكتاب مقدمة ، يشرح فيها ولاية معاوية وخلافته وحبه للسمر ، وإشارة عمرو باستدعاء عبيد ، وكبر سنه ، وعلمه ، وسمره ، وسيطرته على قلب معاوية ، وأمر الأخير بتدوين أقواله .

ويتناول عبيد في هذا الكتاب تاريخ موطنه اليم ، بادئا باجماع البشر في بابل ، ثم تفرقهم شيعة ، وخروج بعض بني سام إلى اليم . ثم يأخذ في سرد تاريخ هؤلاء اليمينين ، معنيا بمن أرسل إليهم من أنبياء ، وإن كان همه كله موجه إلى موطنهم وغزواتهم في بطون الأرض .

وينتهي الجزء الذي وصل إلينا بمقتل طسم وما قيل فيها من شعر . ويصرح الناسخ بأن الكتاب قد تم ، ولكنه يعني أنه كتب النسخة التي أمامه كلها بحسب ، إذ الكتاب لم يتم ، ولم تكمل أخبار عبيد ، ولم تكمل أخبار طسم نفسها . ولعل مما يؤيدنا في ذلك ، أننا كنا ننتظر من كتبة معاوية إشارة إلى ما حدث لعبيد في نهاية مجالس سمره .

وأول ما يلاحظ على الكتاب أنه ليس كتابا تاريخيا بالمعنى المصطلح عليه ، وإنما هو مجالس سمر تاريخية مدونة . ولذلك يغلب عليه ما يغلب على تلك المجالس من خصائص . فنرى الأسلوب الحوارى يشيع فيه <sup>(١)</sup> :

«قال معاوية : وما كان اللسان يومئذ ؟

قال عبيد : سر ياني أوله وآخره ، وهو لسان آدَم عليه السلام ونوح وإدريس .

قال معاوية : كيف اختصت أرض بابل باجماع الناس فيها ؟



قال عبيد : هي سرّة الأرض في فضلها ، وأراد الله ذلك بها .  
ولكن الأمر الجليل الذي نحسبه معاوية أو لكتابه ، أنه كان لا يتدخل  
بالأسئلة في بعض الفصول ، ولذلك تراها تجري دون أية مقاطعة ، أو بمقاطعة لا تكاد  
تذكر . ومما يتصل بهذا ويحسب للكتاب ، أنه لم يفصل بين المجالس المختلفة ،  
فاكتسب الكتاب ميزة حسنة ، وهي الاتساق وعدم التقطع ، كما نرى في مجالس  
قصص ألف ليلة وليلة مثلاً . ولما كنا خسرنا ميزة أخرى ، هي عدم معرفتنا القدر  
الذي كان يقصه عبيد على معاوية ، والمدة التي قضاهما الاثنان في سمرهما . ومما يتصل  
بهذا أيضاً ، أننا لا نرى أحداً من جلساء معاوية يظهر في الكتاب ، سائلاً أو مجيباً  
إلا مرتين في صدر الكتاب <sup>(١)</sup> .

ونحن نذكر - ولا شك - تلك المجالس الأدبية التي كانت تعقد في بلاط  
الأمويين ، وخاصة بلاط معاوية وعبد الملك ، وكانت من الأسباب التي طورت الأدب  
والنقد الأدبي . ونذكر أيضاً عناية هذه المجالس بالشعر ؛ إذا كنا نذكر ذلك ،  
فإننا لن ندهش حين نرى عبيداً يُعنى عناية شديدة بالشعر . ونرى معاوية - على  
الرغم من هذه العناية الشديدة - يلمس منه الأشعار ، فيقول <sup>(٢)</sup> : « وسألتك  
ألا تمر بشعر تحفظه فيما قاله أحد إلا ذكرته » ، ويقول <sup>(٣)</sup> : « خذني عن لقمان  
ابن عاد صاحب النصور ... وما قيل في ذلك من الشعر » ، ويقول بعد أن يسرد  
عبيد بعض الأخبار <sup>(٤)</sup> : « فهل قيل في ذلك شعر ؟ » . وكان معاوية يطلب منه  
الشعر للمسامرة ، ولسبب آخر غيرها ، إذ كان يعتبر الشعر الدليل على صدق الخبر ،  
يقول <sup>(٥)</sup> : « وأبيك ، لقد أتيت وذكرت عجباً من حديثك عن عاد ، وقد علمت

(١) ٣١٣ ، ٣١٤ . (٢) ٣١٤ . (٣) ٣٥٦ .

(٤) ٤٠٨ ، ٤٠٩ ، ٤٢٣ ، وغيرها . (٥) ٣٥٢ .



أن الشعر ديوان العرب ، والدليل على أحاديثها وأفعالها ، والحاكم بينهم في الجاهلية وقد سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول : « إن من الشعر لحكماً » . ويقول <sup>(١)</sup> : « سألتك ألا شددت حديثك ببعض ما قالوا من الشعر ، ولو ثلاثة أبيات » . وكثيراً ما كان يقول لعبيد بعد أن يذكر ما طلب من الشعر <sup>(٢)</sup> : « لقد جئت بالبرهان في حديثك » .

والشعر الذي جاء به عبید يمكن تقسيمه إلى أقسام ثلاثة : قسم ضعيف سخييف ركيك ، ليس من الشعر الحق في شيء ، وهو موضوع على من نسب إليهم ، وهو الغالب على الكتاب . ومن أمثله ما ينسب لطسم بن لاوذ بن إرم ، حين انتقل من بابل إلى بلاد العرب <sup>(٣)</sup> :

إني أنا طَسمُ شبيهه سام      ووالدي لاوذُ بن رام-  
لما رأيتُ من بني أعمامِي      وإخوتي الرحيل باعتزامِ  
قد اقتدُوا بِمِعرَبِ الهمامِ      كرهت بعد إخوتي مُقامِي

وقسم آخر أجود من السابق ، ولكنه من الموضوعات أيضاً ، ومن أمثله ما ينسب لتبع <sup>(٤)</sup> :

سبذ كر قومي بعد موتِي وقائعي      وما فعلت قومي بقيسِ أفاعلا  
فكم من ملوكٍ قد قتلنا رجاهم      نوكم من نساء قد تركنا نواكلا  
وكم من أسيرٍ ظل في القيدِ ساقه      يبيتُ يراعي غله والسلا سلا  
سبذ كر قومي نَجَدَتِي ومكاري      ويدخل باب العز من كان جاهلا

(١) ٣١٨ . (٢) ٣٣٠ ، ٣٤٩ ، ٤٠٠ ، وغيرها . (٣) ٣١٩ .

(٤) ٤٤٠ .



بنيت لهم مجدا مع النجم سَمَكه وصيرته للعالمين معاقلا  
أما القسم الثالث فأشعار تنسب إلى شعراء معروفين ، مثل العباس بن مرداس ،  
وأعشى بنى وائل ، وحسان بن ثابت ، وأميرة بن أبي الصلت ، وامرئ القيس ،  
وعبيد بن الأبرص . والنابغة الذبياني <sup>(١)</sup> . وقد وجدت أكثر هذه الأشعار في  
دواوين أصحابها ، وإن كانت قد تختلف في بعض الألفاظ أو العبارات .  
وهناك ظاهرة جديرة بالتسجيل في عداد حسنات عبيد ، إذ نراه يُعنى في  
بعض الأحيان بإيراد جملة من الأشعار بعد سرده الأخبار التي يعالجها ، كما فعل  
بعد تناوله أخبار عاد وثمود . وكان عبيد يشعر بأن هذا هو المنهج الأكمل .  
قال له معاوية ذات مرة <sup>(٢)</sup> : «أقيل في ذلك شعر ؟» في أثناء كلامه ، فقال : «نعم  
يامعاوية ، قد قالت العرب في ذلك أشعارا ، فإن أحببت أنشدتكها ، وإن شئت  
في آخر الحديث ، فإنه أصلح لحديثك» . فقال معاوية : «سمعنيها في آخر الحديث  
فهو أحسن» .

ومن أجل السمر أيضا عني عبيد ببعض القطع النثرية وجودها وهذبه ، حتى  
لتلفت النظر من بين باقي الأخبار . وصارت شبيهة بما يسمى في الأدب الغربي  
«القطع الأرجوانية» ، يعنون بذلك الفقرات التي تلقى العناية التامة ، على حين يهمل  
ما حولها من كلام . وتظهر هذه الفقرات أوضح ظهورها في بعض الأحاديث ، التي  
ينسبها عبيد لأبطال تاريخه ، وفي بعض أوصافه للأجناس . فها هي ذى جارية  
من عاد تقول حين رأت رييح العقوبة <sup>(٣)</sup> : «الويل لعاد ، التي طفت في البلاد ،  
فأكثرها فيها الفساد . أرى رياحا كأمثال الجبال ، لها لجُثم بأيدي رجال ، كأن

٢٣٥ (٢)

٣٥٣ (١) . ٣٥٤ ، ٣٦٧ ، ٣٩٣ ، ٣٩٥ ، ٤٠٥ .

٣٣٧ (٣)



في وجوههم شهب النار». وهذان رجل وامرأته يتخاصمان أمام عمليق في ابنيهما ، فتقول<sup>(١)</sup> : «إني امرأة حملته تسعا ، وأرضعته سبعة ، ولم أر منه نفعا ، حتى إذا تمت أوصاله ، واستوى وصاله ، أراد أن يأخذه كرها ، ويتركني ورها ». فيقول زوجها : «أخذت المهر كاملا ، ولم أصب منها طائلا ، إلا وليدا جاهلا ، فافعل ما كنت فاعلا» .

والكاتب في هذه الفقرات لا يعرف من التجويد والزخرف غير السجع ، بل إنه لسجع ضعيف غير جميل في الغالب . ولا أدري أذلك من التعريف الذي أصاب الكتاب أم من الكاتب نفسه . أما الأسلوب الغالب على الكتاب فبسيط عادي صريح ، عاطل عن كل الحلي .

وظهرت في الكتاب خاصة أخرى تظهر في المسامرات ، تلك هي الاستطراد . فكثيرا ما يذكر عبيد عرضا في أثناء حديثه بعض الأشياء أو الأشخاص ، فيسأله معاوية عنهم ، فيضطر إلى الخروج إليهم ، ثم يرجع إلى السياق الأصلي . وكان معاوية يشير عليه أحيانا بالرجوع إلى السياق قائلا : «خذ في حديثك<sup>(٢)</sup>» أو «خذ في حديثك الأول»<sup>(٣)</sup> أو «دع هذا وخذ في حديثك الأول»<sup>(٤)</sup> . وكان معاوية يستعمل أحيانا بعض الحوادث ، فيشير عليه عبيد بالتمهل<sup>(٥)</sup> .

وكانت مجالس معاوية هذه استمرارا لمجالس السمر الجاهلية ، ولذلك نرى موضوعات عبيد تغلب عليها الصيغة التي كانت تغلب على تلك المجالس . فغلب على أخباره الخيال البدائي المبالغ ، بل المعرق في المبالغة ، وخرجت أخباره قصصا وخرافات وأساطير ، عن ملوك اليمن ، لا تختلف في شيء عما كان في الجاهلية ،

(١) ٤٨٣ . (٢) ٣٣٧ ، ٣٦٥ ، ٤٠٠ ، وغيرها . (٣) ٤٠٨ .

(٤) ٤٥١ . (٥) ٤١٣ .



في غالب الظن . بل يمكننا أن نعتبر كتابه تدويناً للقصص التاريخية التي كانت شائعة في الجاهلية ، وخاصة في جنوب بلاد العرب . وهي قصص تاريخية ، لا أخبار تاريخية ، فلا نستطيع أن نخرج منها بأخبار تاريخية علمية ، وإنما ننظر بأدب شعبي خيالي . ومما يكل صورتها ، ويقرب بينها وبين الجاهلية ، تلك الأنساب التي تشيع فيها ، حتى قلما يظهر شخص ، دون أن تورده سلسلة نسبته ، حقاً كانت أو باطلة . وإذن نحن لا نبعد كثيراً عن الصواب ، إذا عددنا كتاب عبيد مدونة تحوى الأخبار التاريخية ، معالجة كما كان يعالجها الجاهليون ، ولا يختلف عنهم إلا في اعتمادها على القرآن في قصص الأنبياء والشعوب التي تعرض لها القرآن . ولعل عبيداً كان يضيق بالأخبار التي تناولها القرآن ، لأنه لا يستطيع أن يتصرف فيها ، أو يترك خياله الحرة في تناولها ، أو يرويها كما وصلتته عن الجاهليين ، حتى ليقول لمعاوية حين سأله عن بلقيس والهدد<sup>(١)</sup> : « قول الله أصدق ، وقد أعلمتك لست بمحدث بشيء ليس في القرآن ، ولست بوصف خبراً بلغني بعد ما قال الله تبارك وتعالى » . واعتمد عبيد في القصص القرآنية على ابن عباس كثيراً ، فكان يقول لمعاوية : « سمعت ابن عمك<sup>(٢)</sup> » ، قاصداً عبد الله ، وكان يصرح باسمه أحياناً<sup>(٣)</sup> .

وكتاب عبيد ذو أهمية كبيرة ، لا في تطور حركة التأليف التاريخي فحسب ، وإنما لأنه يكشف لنا النقاب عن الثقافات التي كان يعرفها العرب في الصدر الأول من الإسلام ، وربما التي كان يعرفها العرب في الجاهلية ، وخاصة في اليمن ، وأوضح مانجده الثقافة الإسرائيلية التي تظهر بارزة في الكتاب كله . يظهر هذا في الأخبار

(١) ٤٢٤ . (٢) ٣٢٧ .

(٣) ٣٢٦ ، ٣٣٦ ، ٣٦٥ ، ٤١٥ ، وغيرها .



والأشخاص والأنساب والأسماء وغيرها ، بل نراه أحياناً يذكر اسم أحد الأشخاص ، ثم يورد اسمه في العبرية ، فأبو إبراهيم آزر واسمه تارخ<sup>(١)</sup> ، وعابر هو هود<sup>(٢)</sup> . هذا هو كتاب « أخبار عبيد بن شurie » ، ملحمة من أجل الملاحم العربية النثرية التي تتناول تاريخ العرب الجنوبيين ، يلعب فيها الخيال دوراً كبيراً ، ويحليها الشعر والقطع النثرية الأرجوانية ، والقصص الإسرائيلية المأخوذة من التوراة وأخبار الإسرائيليين ؛ ملحمة تشبه الملاحم التي ستظهر في العصور الإسلامية المتأخرة ، من أمثال ملاحم عنتره والظاهر بيبرس والأميرة ذات الهمة ، ولكنها تمتاز عنها بسمو أسلوبها ، وفصاحتها العربية . ولعلنا لا نشتط كثيراً حين نقارنها بشاهنامة الفردوسي الشعرية ، التي تتناول تاريخ الفرس منذ أقدم العصور حتى الفتح الإسلامي . ويؤسفنا كل الأسف ضياع الجزء الأخير منها .

وفي ختام الكلام عن أخبار عبيد نذكر أمراً كبير الأهمية ، ذلك هو دخول بعض العناصر العربية فيه . فهذا خبر يصدر بالإسناد التالي<sup>(٣)</sup> : « وذكر بعض أصحاب السير عن عبيد بن شurie بأمر هود[؟] » ، قال أخبرني البخترى عن محمد بن إسحاق عن محمد بن عبد الله بن أبي سعيد الخزاعي عن أبي الطفيل عامر ابن وائلة الكنانى عن على بن أبي طالب صلوات الله عليه ... . وليس هذا بإسناد الكتاب ، والخبر ليس منه ، حتى يقال بعده : « رجع الحديث إلى عبيد ابن شurie ومعاوية » . ويعلق الناشر على هذا الخبر قائلاً : « لعل هذه العبارة كانت حاشية ، فأدمجها بعض النساخ في الأصل ، ومع ذلك فهذا عبيد بن شurie ليس له دخل في هذه القصة » . ولكنه ليس خبراً واحداً ، وإنما هي أخبار كثيرة من رواية محمد بن إسحاق وغيره ، مثل وهب بن منبه<sup>(٤)</sup> . ونحن لانرى أن هذه

(١) ٣١٥ ، (٢) ٣١٣ ، ٣١٥ .

(٣) ٣٥٠ . (٤) ٣٧٨ ، ٣٧٩ ، ٣٨١ .



الأخبار حواش ، وأدخلها النساخ في الكتاب ، فإنما لا نستطيع أن نقول ذلك عن الخبر الآتي <sup>(١)</sup> : « ذكر عبيد أن شمر يرعش بنى نصبا في السغد وكتب عليه « من بلغ هذا المكان فهو مثلى ، ومن جاوزه فهو أفضل منى » ، ثم قال عبيد : « وأنا أرجو أن يظهر الله أمير المؤمنين بذلك الموضع من الأرض ، فيعلم أنى قد أدبت إليه من حديثي علما » . قال معاوية : « اللهم أرنا تصديق قول ابن شمرية ، فإنه يذكر عجباً ، وإن شاء ربي فعل ذلك » . فبلغني عن الشعبي أنه ذكر عن رجل من خيوان همدان يقال له عبد الله ، قال : « بينما نحن بالسغد مع قتيبة بن مسلم الباهلي ، وافتتح سرقند ، إذ نظر إلى حجر ملصق على الباب فيه خطوط كأنها بالعربية وليست بها ... فقرأه على مثل ما ذكره عبيد لمعاوية ، ورواه عنه من رواه » . فهذا الخبر ليس من رواية عبيد ، ولا ندرى منه من الذي يرويه عن الشعبي . ولسكننا نجد الخبر نفسه في كتاب التيجان لوهب بن منبه مروياً عن ابن هشام <sup>(٢)</sup> : « قال أبو محمد [ بن هشام ] حدثني عامر بن جرم الأنصاري ، عن مكحول ، عن الشعبي ، قال : « حدثني رجل من خيوان همدان... الخ » . إذن فهذا الخبر ليس من رواية عبيد ، بل حدث بعد موته ، وهو من صلب الكتاب ، ولا يظهر عليه أنه مقحم في هذا الموضوع . وكذلك نرى بعض الأسماء والأنساب والأشعار تختلف روايتها باختلاف المواضع ، حتى أكثر الناشر من الإشارة إلى ذلك <sup>(٣)</sup> ، مما يجعلنا نظن أن هذه الاختلافات ترجع إلى رواة مختلفين ، لا عبيد وحده .

(١) ٤٢٩ . (٢) وهب بن منبه : التيجان ٢٣٧ .

(٣) ٤٠١ ، ٤٠٧ ، ٤١٠ ، ٤١١ ، وغيرها .



وهناك أخبار أخرى منسوبة لعبيد ، ولكننا لا نستطيع أن نصدق أنه يتفوه بها أمام معاوية . يقول <sup>(١)</sup> : « وبلغني أن أولاد بربر بن كنعان بن كوش بن حام الذين يزحفون لرجل من ولد فاطمة حتى يردوه إلى مكة ، وهو صاحب العدل في آخر الزمان ، وأصحابه يقال لهم : الغرباء » . قال له معاوية : « قلت الصواب إن شاء الله ، وإن كلامك طيب وشفاء لما في الصدور » . ولا شك أن هذا الكلام لا يمكن أن يصدر عن عبيد أمام معاوية . أما تعليق معاوية على كلامه فلا يحتاج إلى إنكار من أحد ، فإنه أوهى مما يحتاج إلى الإنكار .

وينسب إلى عبيد أيضا أنه قال <sup>(٢)</sup> : « وقد ذكرناها في كتابنا هذا » . وهذه العبارة كبيرة الأهمية ، لأنها تدل على أن القائل كان يتصور هذه الأخبار كتاباً لا مجالس سمر ، مما قد نستنتج منه أن الكتاب لم يكن مجالس حقيقية ، وإنما مؤلف على نهج المجالس . لو أضفنا كل هذا إلى ما لاحظناه على العنوان والمقدمة ، لخرجنا بأن الكتاب من جمع ابن هشام ، وأنه عمل فيه ما عمل في سيرة ابن إسحاق ، أو أنه دخلته عناصر غريبة كثيرة ، بعضها مصرح بنسبتها ، وبعضها غير مصرح .

ولكن الأستاذ كرسكو يذهب إلى أبعد من ذلك ، فيصرح بأن عبيد بن شرية شخص خيالي لا وجود له ، وأن الكتاب من تأليف ابن هشام أو البرقي أو محمد بن إسحاق ، مكمل به المؤلف ما ينقص كتاب وهب بن منبه من أخبار . ويستدل على ذلك بتلك الأخبار التي سميناها غريبة عن الكتاب ، وبغيرها من الأدلة ، ومنها عدم ورود ذكر لعبيد في كتب الرجال . ونحن لا نستطيع أن نذهب



معه إلى هذا الحد ، كما لا نستطيع أن نرفض رأيه يقيناً . فعدم ورود اسم عبيد في كتب المحدثين دليل على أنه لم يرو الحديث ، وليس بدليل على عدم وجوده . ولعل هذا الرأي غريب لأنه كان من المنتظر من رجل مثل عبيد ، عني بالتاريخ الجاهلي ، أن يعنى كذلك بالتاريخ الإسلامى ، فيؤدى ذلك بالمحدثين إلى الكلام عنه ، ولو في باب الضعفاء من المحدثين . كما أننا لو قلبنا صفحات كتاب المعمرين<sup>(١)</sup> نجد القصة التي يروون أنها جرت بينه وبين معاوية ، تروى بأشكال مختلفة ، ولكن متقاربة ، على أنها حدثت لأفراد آخرين غيره من المعمرين . فهذه الدلائل تغرينا على السير إلى جانب الأستاذ كرنسكو . ولكن الأمر الميقنى الذى لا يخامرنا فيه شك ، أن الكتاب ، بهذه الصورة الراهنة ، ليس من تأليف عبيد ابن شريفة .

وهذه فقرة من الكتاب تبين لنا أسلوب عبيد ، قال :<sup>(٢)</sup>

« قال معاوية : فمن ملك بعده [بعد ذى القرنين] ؟

قال : « ملك بعده ملكى كرب بن أسعد بن تبع الأكبر بعد أبيه . وكان رجلاً ضعيفاً ، لم يكن يغزو أحداً حتى مات ولم يبعث جيشاً . فأما أهل اليمن فيزعمون أنه كان يتخرج من الدماء . وأما أهل الرأى والمعرفة والبصر بالأمور ، فإيهم يقولون لم يكن ذلك منه إلا عن قلة التجربة وقلة الأنفة وصغر الهمة ، لأنه لم يحدث دعوة في ملكه ، ولم يعبر عن دين ولا طريقة أحد من قبله .

قال معاوية : « وما تعبير حال الملك ؟ »

قال عبيد : « يا أمير المؤمنين ، لم يكن يغير من شيء يفعله آباؤه ، ولا أزال

(١) أبو حاتم السجستاني : كتاب المعمرين ٧ . ٦٧ ، ٨٣ ، ٨٧ .

(٢) ٤٣٩ .



شيئا من جبروت الملك ، ولا أحدث تواضعا ولا قربا من الناس ، ولا زال عن تجربته وعنتوه ، وأشد أمره باليمن لا يحاوز أرض اليمن إلى غيرها ، بلد عرب أو عجم .  
قال معاوية : « فكيف ملكهم يا عبيد ، وكيف استقام لهم أمرهم على تلك الحال ؟ »  
قال عبيد : « لأنهم أحبوا الدعة والسكون ، وكانوا قد ملوا الغزو والحروب ، وكثرة المسير في البلدان » .

قال معاوية : « فكم ملكهم على هذا الحال ؟ »

قال : « ملكهم خمسا وثمانين سنة » .

قال معاوية : « فمن ملك بعده ؟ »

قال عبيد : « ملك ابنه تبع أسعد بن ملكي كرب » .

هذه هي الكتب التي ترجح بينها الرأي في اختيار الأول في الظهور . ثم ظهرت كتب السير والمغازي التي تتناول حياة الرسول بالدرس . وقد رأينا أن من عوامل ظهور هذه الدراسة جمع الأحاديث ، سواء ما تناول الناحية الفقهية ، وما تناول الناحية التاريخية من حياته ، بدافع من الرغبة الدينية . وكذلك كان العرب ينظرون إلى النبي نظرهم إلى بطل من الأبطال وخدمهم وهياهم لفتح الأمم ، فعنوا بتاريخه كما عنوا بتاريخ أبطالهم في الجاهلية . ولا ننسى مع ذلك أنهم أرادوا أن يضعوا الرسول صلى الله عليه وسلم بإزاء موسى وعيسى اللذين فخر بهما أهل الكتاب وألفوا عنهما الكتب ، وأحاطوها بالقصص الصحيحة وغير الصحيحة . كل أولئك وغيره اجتمع فأثمر كتب المغازي والسير ، التي تعتبر بداية التأليف العلمي في التاريخ لأنها كانت تستند إلى الأحاديث التي كان يراعى فيها الدقة إلى أبعد غاية ، فأصبحت الأحاديث دقتها على التاريخ . ولذلك نشعر للوهلة الأولى بأننا نستند إلى أساس علمي وثيق ، حتى لو سلمنا في نفس الوقت بشيء من الشك في الأحاديث التي تناولت



العهد المسكي خاصة من حياة الرسول . وقد ترك هذا الارتباط بالأحداث أثرًا لا يمحى في أسلوب التأليف التاريخي ، إذ كثرت مواطن التشابه بين النوعين . وكانت المدينة موطن هذه الدراسة ، فلم يختص أحد بالتأليف في المغازي والسيرة قبل القرن الثاني من الهجرة خارجها .

### أبان بن عثمان

أول من اشتهر بالتأليف في المغازي أبان بن عثمان بن عفان المتوفى عام ١٠٥ هـ أو قبله . وكان أبان من علماء الحديث والفقهاء أيضاً . يقول ابن سعد في أثناء حديثه عن المعيرة بن عبد الرحمن <sup>(١)</sup> : « وكان ثقة قليل الحديث ، إلا مغازي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أخذها من أبان بن عثمان ، فكان كثيراً ما تقرأ عليه ويأمرنا بتعليمها » . وكان المعيرة هذا في جيش مسلمة بن عبد الملك الذي توجه لحرب الروم عام ٩٦ هـ ، واسترجعه عمر بن عبد العزيز في عام ٩٩ هـ <sup>(٢)</sup> . ولذلك لا يمكن المعيرة أن يأخذ المغازي إلا عن أبان بن الخليفة عثمان ، وليس عن أبان بن عثمان البجلي الشيبى ، الذى عاش بعد ذلك التاريخ بحيل أو اثنين <sup>(٣)</sup> .

ويبدو أن هذه المغازي التي رواها المعيرة عن أبان ليست كتاباً بالمعنى الدقيق ، وإنما هي مجموعة من المواد المتعلقة بحياة النبي . ويظهر أن هذه الأخبار ضاعت ،

(١) ابن سعد : . الطبقات ٥ : ١٥٦ .

(٢) تاريخ الطبري ٢ : ١٣٠٥ ، ١٣٤٦ .

(٣) هو روفقس : للمغازي الأولى ومؤلفوها ، ترجمة المؤلف ، ص ٥ .



ولم يأخذ عنها أحد من كتاب السير المتأخرين . فلم يأخذ عنه ابن إسحاق ولا ابن سعد ( الجزء المخصص للسيرة من طبقاته ) . أما خبر أمر العباس وبعض بني هاشم الذي يرويّه ابن سعد <sup>(١)</sup> عن أبان ، عن معاوية بن عمار ، عن جعفر بن محمد ( المتوفى عام ١٤٨ هـ ) فإنه يتضح من الإسناد أنه لا يقصد أباننا هذا ، وإنما يقصد أبانا البجليّ الشيعي .

ولسكن ابن سعد يذكر أبان بن الخليفة عثمان خارج السيرة ، حين يورد الكلمات الأخيرة التي تفوه بها عمر بن الخطاب عند وفاته ، وقد سمعها أبان من والده <sup>(٢)</sup> . ويذكره ابن قتيبة أيضا في الشعر والشعراء <sup>(٣)</sup> ، على أنه راوى الخبر القائل بأن معاوية اشترى البردة ، التي أعطاها النبي لسكعب بن زهير ، مكافأة له عن قصيدته :  
بانت سعاد ...

وأن الأحكام كانوا يلبسونها في الأعياد . وفيما عدا ذلك لا يوجد لأبان ذكر في كتب التاريخ ، وإن كانت كتب الحديث تكثر من ذكره .

#### عروة بن الزبير

عروة بن الزبير المتوفى عام ٩٤ هـ من معاصري أبان ، الذين ألفوا في التاريخ ، ولم يقتصر عروة على الروايات الشفوية ، بل دون بعض الأحداث التي طلبها منه عبد الملك بن مروان ، أو ابن أبي هنيّدة ، الذي كان في بلاط الوليد ، في رسائل بعضها إليهما . وقد وصل إلينا بعض هذه الرسائل في صقمعات ابن إسحاق ، والواقدي ، والطبري .

(١) ابن سعد : الطبقات ٤ : ٢٩ . (٢) ابن سعد : الطبقات ٣ : ٢٦٢ .

(٣) ابن قتيبة : الشعر والشعراء ١٠٦ .



تتناول رسالة عمروة الأولى إلى عبد الملك هجرة الحبشة <sup>(١)</sup>. وتتناول الثانية موقعة بدر <sup>(٢)</sup>، والثالثة تتناول فتح مكة <sup>(٣)</sup>. وتتناول عمروة أيضاً وفاة خديجة، وهجرة النبي والصحابة إلى المدينة، وخبر زواج النبي من أخت الأشعث بن قيس. وقد روى هذه الأخبار عنه ابنه هشام. أما رسالته لابن أبي هنيذة فرواها الزهرى، وتتناول المناسبة التاريخية للآية العاشرة من السورة الستين <sup>(٤)</sup>. وتمثل كتابات عمروة المشار إليها أقدم المدونات التي وصلت إلينا عن بعض الحوادث الخاصة في حياة النبي، كما تمثل أقدم آثار الكتابة التاريخية العربية. ولا تذكر المراجع القديمة أى كتاب ألفه عمروة عن المغازى، ولكن حاجي خليفة يقول إنه أول من صنف في المغازى <sup>(٥)</sup>. ولم يعن عمروة بجمع الأخبار عن جميع فترات حياة النبي فحسب، بل عنى أيضاً بحوادث الخلفاء الأولين أيضاً، فنراه يعالج وقعتى القادسية واليرموك وبعض حوادث فتوح الشام <sup>(٦)</sup>. ويعنى عمروة أيضاً بتاريخ الزبيريين، ولذلك نرى أكثر أخبار الحزب الزبيرى وحروبه وفتنه مروية عنه في السكتب التاريخية مثل الطبرى وحلية الأولياء أو السكتب الأدبية مثل الأغاني <sup>(٧)</sup>.

وتمتاز كتابات عمروة بأنها لا تهمل الإسناد إهمالا تاما، كما أنها لاتعنى به عناية متشددة. فهو أحيانا لا يذكروه وأحيانا يذكروه <sup>(٨)</sup>. ولذلك يكون من الخطأ

- 
- |                                                                              |                                                                    |
|------------------------------------------------------------------------------|--------------------------------------------------------------------|
| (١) نفس المرجع ١ : ١١٨٠ .                                                    | (٢) نفس المرجع ١٢٨٤ .                                              |
| (٣) الطبرى : تاريخ ١ : ١٦٣٤ .                                                | (٤) ابن هشام : السيرة ٣ : ٣٤٠ .                                    |
| (٥) كشف الظنون ٥ : ٦٤٦ .                                                     | (٦) الطبرى : تاريخ ١ : ١١٨٥ ، ١١٩٩ ، ١٢٤٢ ، وغيرها .               |
| (٧) انظر فهرست الطبرى والأغاني والفصل المخصص لعبد الله بن الزبير في الحلية . | (٨) الطبرى : تاريخ ١ : ١١٤٠ ، ١١٤٧ ، ١١٤٨ ، ١١٥٤ ، ١١٦٧ ، وغيرها . |



أن تنهم عروة بتهمة إغفال الأسانيد ، وإنما نقول إن الإسناد أصبح عادة في ذلك الوقت ، ولكنه لم يصبح بعد ضربة لازب على كل مؤلف في التاريخ . وتمتاز كتاباته أيضاً بأنها تعنى بالإشارات القرآنية إلى الحوادث الإسلامية ، فتحاول شرحها ، كما أشرنا قبل . بل إنه يتجاوز ذلك إلى استعمال الألفاظ القرآنية في كتاباته ، لتشير إلى مدلولها القرآني ، مثل استعماله لكلمة «الفتنة» في حديثه عن المهجرين الحبشية والمدنية ، متبعا الآية الأربعين من السورة الثامنة . ولا يعنى عروة بالأحاديث وحدها ، وإنما يعنى أيضاً بالوثائق المكتوبة ، مثل رسالة النبي إلى أهل هجر ، وإلى زرعة بن ذى يزن ، وإلى عبد الله بن جحش<sup>(١)</sup> . وعلى الرغم من فقه عروة ودينه لم يكن خصما للشعر ، بل يثثره في الحوادث على لسان المشتركين فيها ، مثله في ذلك مثل النموذج المعروف عن التاريخ الجاهلي . ولكن يبدو أن هذا الدين كان له أثره في ناحية أخرى ، تلك هي خوفه من إبداء رأيه في الحوادث ، وإنما يتبع المأثور والحديث ، كما يقول ابنه هشام<sup>(٢)</sup> . ولعل ذلك هو الذي جعله يروى في تاريخه بعض الأخبار التي لا نستطيع تصديقها بسهولة ، وربما كانت هذه الأخبار من أثر أجنبي ، يهودي أو حبشي أو نصراني .

وهذه إحدى رسائل عروة التي أرسلها إلى عبد الملك بن مروان<sup>(٣)</sup> :

« ثنا أبان العطار قال ، ثنا هشام بن عروة ، عن عروة ، أنه كتب

إلى عبد الملك .

« أما بعد ،

« فإنك كتبت إلى في أبي سفيان ومخرجه ، تسألني كيف كان شأنه ؟ كان

(١) البلاذري : فتوح البلدان ٦٩ ، ٧٩ . والطبري : تاريخ ١ : ١٢٧٣ .

(٢) ابن حجر : تهذيب ٧ : ١٨٣ . (٣) الطبري : تاريخ ١ : ١٢٨٤ .



من شأنه أن أباسفيان بن حرب أقبل من الشام في قريش من سبعين راكبا من قبائل قريش كلها ، كانوا تجارا بالشام ، فأقبلوا جميعا معهم أموالهم وتجارهم . فذكروا الرسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، وقد كانت الحرب بينهم قبل ذلك ، فقتلت قتلى وقتل ابن الحضرمي في ناس بنخلة ، وأمرت أسارى من قريش فيهم بعض بنى المغيرة ، وفيهم ابن كيسان مولاهم ، أصابهم عبد الله بن جحش وواقد حليف بنى عدى بن كعب في ناس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بينهم مع عبد الله بن جحش . وكانت تلك الواقعة هاجت الحرب بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين قريش ، وأول ما أصابه بعضهم بعضا من الحرب ، وذلك قبل مخرج أبي سفيان وأصحابه إلى الشام .

ثم إن أباسفيان أقبل بعد ذلك ومن معه من ركبان قريش مقبلين من الشام ، فسلكوا طريق الساحل . فلما سمع بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ندب أصحابه ، وحذتهم بجمعهم من الأموال ، وبقلة عددهم . فخرجوا لا يريدون إلا أباسفيان والركب معه ، لا يرونها إلا غنيمة لهم ، لا يظنون أن يكون كبير قتال إذا لقوهم . وهي التي أنزل الله عز وجل فيها « وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم » فلما سمع أبوسفيان أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم معترضون له ، بعث إلى قريش أن محمدا وأصحابه معترضون لكم ، فأجبروا تجارتكم . فلما أتى قريشا الخبر ، وفي غير أبي سفيان من بطون كعب بن لؤى كلها ، نفر لها أهل مكة . وهي نفرة بنى كعب بن لؤى ، ليس فيها من بنى عامر أحد إلا ما كان من بنى مالك بن حسل . ولم يسمع بنفرة قريش رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا أصحابه ، حتى قدم النبي صلى الله عليه وسلم بدر . وكان طريق ركبان قريش من أخذ منهم طريق الساحل إلى الشام ، فحفض أبو سفيان عن بدر ، ونزح طريق



الساحل ، وخاف الرّصدّ على بدر ، وسار النبي صلى الله عليه وسلم حتى عرس قريبا من بدر . وبعث النبي صلى الله عليه وسلم الزبير بن العوام في عصابة من أصحابه إلى ماء بدر ، وليسوا يحسبون أن قريشا خرجت لهم . فبينما النبي صلى الله عليه وسلم قائم يصلي ، إذ ورد بعض روايا قريش ماء بدر ، وفيمن ورد من الروايا غلام لبني لحجاج أسود . فأخذته النّف الذين بعثهم رسول الله صلى الله عليه وسلم مع الزبير إلى الماء ، وأفلت بعض أصحاب العبد نحو قريش . فأقبلوا به حتى أتوا به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو في معرسه . فسألوه عن أبي سفيان وأصحابه ، لا يحسبون إلا أنه معهم . وطلق العبد يحدّثهم عن قريش ومن خرج منها ، وعن رهوسهم ويصدقهم الخبر ، وهم أكره شيء إليهم الخبر الذي يخبرهم ، وإنما يطلبون حينئذ بالركب بأبوسفيان وأصحابه ، والنبي صلى الله عليه وسلم يصلي ، يركم ويسجد ويسمع ما يصنع بالعبد . فطلقوا إذا ذكر لهم أنها قريش جاءتهم ضربوه وكذبوه وقالوا : إنما تسكتمنا بأبوسفيان وأصحابه . فجعل العبد إذا أذقوه بالضرب ، وسألوه عن أبي سفيان وأصحابه ، وليس له بهم علم ، إنما هو من روايا قريش ، قال : « نعم هذا أبو سفيان » والركب حينئذ أسفل منهم ، كما قال الله عز وجل « إذ أنتم بالعدوة الدنيا وهم بالعدوة القصوى والركب أسفل منكم » حتى بلغ « أمرا كان مفعولا » . فطلقوا إذا قال لهم العبد : هذه قريش قد أتتكم ، ضربوه . وإذا قال لهم ، هذا أبو سفيان : أتركوه . فلما رأى صنيعهم النبي صلى الله عليه وسلم انصرف من صلاته ، وقد سمع الذي أخبرهم ، فزعموا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : والذي نفسي بيده ، إنكم لتضربونه إذا صدق ، وتتركونه إذا كذب . قالوا : فإنه يحدّثنا أن قريشا قد جاءت . قال : فإنه قد صدق ، قد خرجت قريش تجير ركابها . فدعا الغلام فسأله ، فأخبره بقريش ، وقال : لا علم لي بأبي سفيان



فسأله « كم القوم » ؟ فقال : « لأأدرى والله ، هم كثير عددهم » . فزعموا أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « من أطعمهم أول من أمس » ؟ فسمى رجلاً أطعمهم فقال : « كم جزائر نحر لهم » ؟ قال : « تسع جزائر » . قال : « فن أطعمهم أمس » . فسمى رجلاً . فقال : « كم نحر لهم » . قال : « عشرين جزائر » فزعموا أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « القوم ما بين التسعمائة إلى الألف » . فكان نفرة قريش يومئذ خمسين وتسعمائة . فانطلق النبي صلى الله عليه وسلم فزل الماء ، وملأ الحياض ، وصف عليها أصحابه حتى قدم عليه القوم . فلما ورد رسول الله صلى الله عليه وسلم بدرا ، قال : هذه مصارعكم . فوجدوا النبي صلى الله عليه وسلم قد سبقهم إليه ونزل عليه ، فلما طلوعوا عليه زعموا أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : هذه قريش قد جاءت بحكمتها وغرها تحادك وتسكذب رسولك ، اللهم إني أسألك ما وعدتني . فلما أقبلوا استقبلهم فحثا في وجوههم التراب فهزمهم الله . وكانوا قبل أن يلقاهم النبي صلى الله عليه وسلم قد جاءهم راكب من أبي سفيان ، والركب الذين معه : أن ارجعوا ، يأمرهم قريش بالرجعة بالجحفة ، فقالوا : والله لا نرجع حتى ننزل بدرا ، فنقيم به ثلاث ليال ، ويرانا من عشرين من أهل الحجاز . فإنه لن يرانا أحد من العرب وما جمعنا فيقاتلنا . وهم الذين قال الله عز وجل « الذين خرجوا من ديارهم بطرا ورئاء الناس » فالتقوا هم والنبي صلى الله عليه وسلم ففتح الله على رسوله ، وأخزى أئمة الكفر ، وشفى صدور المسلمين منهم » .

وإذا أحببنا أن نعرف طريقة عروة في التأليف من هذه الرسالة ، نجدد يعني في سرده الغزوة بالمقدمات التي سبقتها وأدت إلى وقوعها ، ويعني في أثناء السرد بإقامة الأدلة على صحة ما يقول من الآيات القرآنية ، ونجدد يشير إلى الأشياء التي لا يطمئن إليها ، أو يخاف أن يتحمل مسئوليتها بكلمة « زعموا » ، كما حدث في روايته عدد قريش والأقوال المنسوبة إلى الرسول صلى الله عليه وسلم . ولكن يبدو أنه كانت تأخذه أحيانا حماسة السرد ، فينساق وراء الموضوع الرئيسي ،



ويترك بعض التفاصيل ، فيرجع إليها بعد ما ينتهي ، ويقول مثلاً : « وكانوا قبل أن يلقاهم النبي صلى الله عليه وسلم قد جاءهم راكب من أبي سفيان . »  
هذا ما نستطيع أن نستخلصه من هذه الرسالة ، إلى جانب تذوقنا لأسلوبه البسيط ، الذي لا يخلو من فصاحة عربية غير متكلفة ، بل عاطفة صادقة يحسها القارئ في ثنايا الوصف .

### وهب بن منبه

أما وهب بن منبه المتوفى عام ١١٠ هـ فليس من المدينة ، ولكن من ذمار بجوار صنعاء عاصمة اليمن . ولا تذكره كتب السيرة القديمة على أنه أحد رواة السيرة ، ولكن حاجي خليفة<sup>(١)</sup> يقول عنه : إنه جمع المغازي . وقد تبين صدقه ، إذ اكتشف بيكر بين مجموعة أوراق بردي شت رَينَهَارْدَت ، المحفوظة في هَيدِلْبِرْج مجلداً يحتوي على قطعة من هذه المغازي . وتناول قطعة هيدلبرج تاريخ العقبة الكبرى ، واجتماع قر يش في دار الندوة ، والهجرة ، وغزوة بني خزيمة ، مما يدلنا على أن وهباً تناول الفترة المكية والمدنية من حياة الرسول . ويقول بعض من رأى هذه القطعة إن وهباً يهمل فيها الإسناد ، ويعني بالشعر<sup>(٢)</sup> . وحفظت حلية الأولياء لوهب قطعتين من المغازي ، تناول الأولى فتح مكة<sup>(٣)</sup> ، والثانية وفاة النبي صلى الله عليه وسلم<sup>(٤)</sup> . وهو يذكر الإسناد في القطعتين . وهذه

(١) حاجي خليفة : كشف الظنون رقم ١٢٤٦٤ .

(٢) هوروفنس : كتب المغازي الأولى ومؤلفوها ، ترجمة المؤلف ،

ص ٣٤ .

(٣) الأصبهاني : الحلية ٧٩٠٤ . (٤) نفس المرجع ٧٣ .



هي القطعة الثانية يقول فيها : « فلما كان يوم الأحد ثقل في مرضه ، فأذن بلال بالأذان ثم وقف بالباب ، فنادى : « السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله ، الصلاة ، يرحمك الله » . فسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم صوت بلال ، فقالت فاطمة : « يا بلال ، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم اليوم مشغول بنفسه » . فدخل بلال المسجد ، فلما أسفر الصبح قال : « والله ، لا أقيمهما أو أستأذن سيدي رسول الله صلى الله عليه وسلم » . فرجع وقام بالباب ونادى : « السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله ، الصلاة ، يرحمك الله » . فسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم صوت بلال ، فقال : « ادخل يا بلال ، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم مشغول بنفسه ، مر أبا بكر يصلى بالناس » . فخرج ويده على أم رأسه وهو يقول : « وا غوثاه بالله ، وانقطع رجائي ، وانقضام ظهري . ليتني لم تلدني أمي ، وإذا ولدني ليتني لم أشهد من رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا اليوم » . ثم قال : « يا أبا بكر ، ألا إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرك أن تصلى بالناس » . فتقدم أبو بكر رضي الله عنه للناس ، وكان رجلاً رقيقاً ، فلما نظر إلى خلو المكان من رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يتمالك أن خر مغشياً عليه ، وصاح المسامون بالبكاء ... فلما كان في يوم الإثنين اشتد به الوجع ، وأوحى الله تعالى إلى ملك الموت عليه السلام ، أن اهبط إلى حبيبي وصفيي محمد صلى الله عليه وسلم في أحسن صورة ، وارفق به في قبض روحه . فهبط ملك الموت عليه السلام فوقف بالباب شبه أعرابي ، ثم قال : « السلام عليكم ، يا أهل بيت النبوة ... » .

وهذه الفقرة طويلة مفصلة ، ولكن قارئها لا يسمعه إلا أن يشك فيها الشك الشديد ، فأسألوا بها ما لا نألفه في أساليب تلك الفقرة ، وعباراتها غريبة عن الرجل العربي الذي يعيش في ذلك العصر ، وقد لعب فيها الخيال دوراً كبيراً . ولذلك



إذا صحت نسبتها لوهب ، فإننا لا نستطيع أن نطلق عليه لفظ مؤرخ ، وإنما يلائمه لفظ قصاص .

ويجب أن نذكر أن وهباً أجمه في التاريخ وجهة جديدة لم تكن بها مدرسة المدينة قبله ، تلك هي عنايته بأخبار أهل الكتاب ، وتاريخ وطنه اليمن . فالأستاذ هوروقس ينسب لوهب « كتاب المبتدأ » الذي عزاه ابن النديم لحفيده عبد النعم<sup>(١)</sup> . ويرى أن العنوان يشير إلى مبتدأ الخلق . ولكننا لا نرى داعياً لهذا ، ونرى أنه ربما جمع عبد النعم مواد كتابه مما في كتب وهب الأخرى ، وخاصة كتابه في تاريخ اليمن ، الذي عني فيه بتاريخ الخليفة والأنبياء . ولم يعن وهب بالأنبياء وحدهم بل بالعباد أيضاً<sup>(٢)</sup> . ولعل الكتاب الذي ينسبه إليه حاجي خليفة عن « الأخيار<sup>(٣)</sup> » هو نفس كتابه عن العباد .

ويعتمد وهب في جميع هذه الكتب على أخبار أهل الكتاب ، يهود ومسيحيين ، اعتماداً شديداً . وقد اشتهر بذلك حتى قيل عنه إنه قرأ ٧٠ أو ٧٢ أو ٧٣ أو ٩٢ من كتبهم المقدسة<sup>(٤)</sup> . ولكننا لا نستطيع الاطمئنان إلى هذا القول ، وإنما نرجح أنه استقى هذه الأخبار من أهل الكتاب الذين اتصل بهم في موطنه اليمن ، الذي اشتهر منذ الجاهلية باستيطان هاتين الديانتين وتصارعهما فيه . بل بلغ الأمر بهذه الشهرة إلى حد أن نسب إلى وهب كتاب يسمى

(١) ابن النديم : الفهرست ٩٤ .

(٢) ابن سعد : الطبقات ج ٧ من القسم الثاني ص ٩٧ .

(٣) حاجي خليفة : كشف الظنون ٤ : ٥١٨ .

(٤) ابن سعد : الطبقات ٥ : ٣٩٥ . وكتاب التيجان ٢ .



« الإسرائيليات » ، كما يقول حاجي خليفة <sup>(١)</sup> . واسكن ياقوتا يقول عنه إنه كان « كثير النقل من السكتب القديمة المعروفة بالإسرائيليات <sup>(٢)</sup> » ، أى يستعمل اللفظ وصفاً لمصادر وهب ، لا عنواناً لأحد كتبه . ولذلك يرجع أن كتاب الإسرائيليات هذا عبارة عن مجموعة الأخبار التى استقاها وهب من أهل الكتاب جمعها بعض المتأخرين ، وزاد عليها حتى صارت كتاباً ، عرفه حاجي خليفة بذلك الاسم . وقد قام بتلك المحاولة ثانياً شوفان <sup>(٣)</sup> ، واسكنها مخففة ، لأن هذه الأخبار غير كافية لتكوين كتاب ، ولأنها دخلها كثير من الانتحال حتى عارض بعضها بعضاً ، وكثر فيها الخلط والنهيش . ولا يلام وهب كل اللوم على هذا الخطأ والتعارض ، لأن الأخبار الصحيحة عنه تطابق أخبار أهل السكتب مطابقة كبيرة . وما شذ عن ذلك يرجع إلى تغيير نفس المصادر التى استقى منها وهب ، أو إلى تغيير منه لتلائم الذوق الشعبي ، أو هى من عمل المتأخرين الذين غيروا فيها لتلائم القصص الشعبي .

والأمر الثانى الذى يمتاز به وهب هو كتابة تاريخ وطنه اليمن الخراوى القديم ، فى رسالة خاصة تسمى « كتاب الملوك المتوجة من حمير وأخبارهم وقصصهم وقبورهم وأشعارهم » ، كما يقول ياقوت <sup>(٤)</sup> . ولسوء الحظ لم يصل إلينا هذا السكتب ، وإنما وصل إلينا كتاب يسمى « كتاب التيجان فى ملوك حمير » . وهو من رواية أبى محمد عبد الملك بن هشام عن أسد بن موسى عن أبى إدريس بن سنان عن جده

(١) حاجي خليفة : كشف الظنون ٥ : ٤٠ .

(٢) ياقوت : معجم الأدباء ٦ : ٢٣٢ . (٣) النسخة المصرية من ألف ليلة وليلة ٥٧ .

(٤) ياقوت : معجم الأدباء ٦ : ٢٣٢ .



لأمه وهب بن منبه . ولكن كل من يتصفح الكتاب يستطيع أن يرى بسهولة أنه ليس كله لوهب ، وإنما تصرف فيه ابن هشام تصرفه في سيرة ابن إسحاق ، وإن كان لا يصرح بذلك كما فعل في السيرة . ولذلك لا نستطيع أن نعرف مدى تصرفه ، غير أننا يمكننا أن نعرف الإضافات التي جملها من روايات أخرى ، وصرح بسندها . فهو يروى أخباراً عن محمد بن إسحاق عن طريق تلميذه البكائي الذي روى السيرة <sup>(١)</sup> ، أو عن طريق تلميذه الآخر المسمى أبا عباد الهمداني <sup>(٢)</sup> ، ويروى عن أبي مخنف <sup>(٣)</sup> ، وعن محمد بن السائب الكلبي <sup>(٤)</sup> ، وعن عبيد بن شربة <sup>(٥)</sup> ، وعن بعض المحدثين <sup>(٦)</sup> ولكنه إلى جانب ذلك يروى مجموعة كبيرة من الأخبار التي لا يسندها إلى أحد <sup>(٧)</sup> . وهي بالطبع ترجع إلى رواة مختلفين ، قد يكون منهم وهب نفسه <sup>(٨)</sup> . والأمر الجدير بالملاحظة أننا نرى جل الأخبار قبل الصفحة المئة من الكتاب منسوبة إلى وهب ، ولكنها تقل شيئاً فشيئاً حتى تسكاد تنعدم بعد ذلك .

والكتاب كما قلنا يتناول تاريخ اليمن ، فيبدأ بخلق العالم ، وقصص آدم وأولاده ، حتى عهد نوح وأولاده . ثم يلتفت وهب إلى العرب من الساميين ، وإلى عرب الجنوب خاصة ، ويسرد تاريخ أقيالهم وملوكهم ، ويعنى بغزواتهم في أرجاء الأرض ، ويذكر هجرة عمرو بن عامر من اليمن إلى شمال بلاد العرب ، كما يذكر بعض ملوك غسان .

ولا يختلف كتاب التيجان لوهب كثيراً عن كتاب عبيد بن شربة في طريقة العرض . فهما يطلقان لخيالهما العنان في تصوير أوقائع ، ويلونان الحوادث التاريخية

(١) كتاب التيجان ١١٥، ٧٥ ، ١٢٨ وغيرها .

(٢) ٢٥١ (٣) ١٨٠ ، ١٢٥ (٤) ١٣٢ ، ٢١٣ ، ٢٤٠ .

(٥) ٢٠٩ ، ٦٦ (٦) ١١١ ، ١٣٥ ، ١٦٤ ، ٢٣٧ وغيرها .

(٧) ١٠١ ، ١٠٢ ، ١٠٣ ، ١٢٦ ، ٢٥٥ (٨) وانظر جلية الأولياء ج ٤ .



بأطراف خيالية قد تخرج بها إلى حد الخيال والأسطورة ، كما يدخلان في تاريخهما الكثير من الحوادث التي لا أصل لها ، ولذلك يصدق عليهما اسم القصص التاريخية أكثر من أي نعمت آخر . ونحن نعدّها امتداداً للحركة القصصية التاريخية التي كانت موجودة في الجاهلية . وأهل الذي نسخ الكتابين في نسخة واحدة رجل حكيم ، عرف منهما مواطن الشبه هذه ، التي تجعلنا لا نجد بينهما كبير فرق .

ويكشف هذا الكتاب عن بعض خصائص وهب ، فهو مثل الجاهليين مغرم بالشعر ، مكثّر من روايته . وأكثر هذا الشعر منحول سخيّف ركيك . ينسب وهب إلى آدم أنه قال حين قتل هابيل <sup>(١)</sup> :

|                                         |                                           |
|-----------------------------------------|-------------------------------------------|
| تَغَيَّرَتِ الْبِلَادُ وَمَنْ عَلَيْهَا | فَوَجَّهَ الْأَرْضَ مُغْبِرٌ قَبِيحُ      |
| وَجَاوَرَنَا عَدُوٌّ لَيْسَ يَهْدِي     | لَعَيْنٌ لَا يَمُوتُ فَأَسْتَرِيحُ        |
| أَيَا هَابِيلُ يَا ثَمَرَ الْفَوَادِ    | أَبْعَدَ الْعَيْنِ مَسْكَنُكَ الضَّرِيحُ  |
| مَحَلٌّ تَخْلُقُ الْأَجْسَادُ فِيهِ     | وَيَنْبَلِي عَنْدَهُ الْوَجْهَ الصَّمِيحُ |
| فَعَيَّنِي لَا تَجِفْ عَلَيْكَ سَحَابٌ  | وَقَلْبِي الدَّهْرَ مَحْزُونٌ قَرِيحُ     |

وليسكن هناك بعض أشعار جيدة . ينسب إلى عبد شمس أنه قال يوصي ابنه بابلين <sup>(٢)</sup> :

|                                                 |                                                  |
|-------------------------------------------------|--------------------------------------------------|
| أَلَا قُلْ لِبَابِلِيُونَ وَالْقَوْلُ حَكْمَةٌ  | مَلَكَتْ زَمَامَ الشَّرْقِ وَالْغَرْبِ فَأُجْلُ  |
| وَحُذِّ لَبْنِي حَايِمَ مِنَ الْأَمْرِ وَسَطُهُ | فَإِنْ صَدَفُوا يَوْمًا عَنِ الْحَقِّ فَأَقْتُلْ |
| وَمَنْ جَنَحُوا بِالْقَوْلِ لِلرَّفَقِ طَاعَةٌ  | يُرِيدُونَ وَجْهَ الْحَقِّ وَالْعَدْلِ فَاعْدِلْ |



ولا تظهروا الرأي في الناس يَجْتَرُوا عليك به واجعله ضربة فيصل  
ولا تأخذنَّ المال من غير وجهه فإنك إن تأخذ به بالرفق تسهل  
ويروى وهب أيضا بعض أشعار ينسبها للناطقة الديباني ، وليبد ، والأعشى ،  
وامرئ القيس <sup>(١)</sup> . أما بيت الناطقة ومقطوعة لبيد فهمما في ديوانيهما ، وأما مقطوعتا  
الأعشى وامرئ القيس فلم أجدهما في ديوانيهما المطبوعين .

وقد تأثر وهب بالقرآن أيضا في القصص التي ورد ذكرها فيه ، فيحاول أن  
يتبع خطاه ، وأن يستند إلى آياته . يقول في وصفه الخلق <sup>(٢)</sup> : « فاضطرب الماء  
وهاج ، فاصطفق ، فأزبد ، فصار أرضا ، فخلق الله الحوت والبحر من ذلك الزبد  
ثم رفع الله السماء وهي دخان » فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها ، قالتا أتينا  
طائعين ، فقضاهن سبع سموات في يومين » وخلق الملائكة ، وأوحى في كل سماء  
أمرها ، أسكنهم السماوات يسبحون ويهللون ويقدمون الواحد القهار ، وخلق  
الجمال في الأرض أوتادا .

وتظهر عند وهب نزعة إسلامية واضحة ، فهو يعنى بحلب آراء العلماء المختلفين  
في بعض المواضع ، مثل اختلافاتهم في خلق الجنة ، وفي قتل قابيل وهابيل <sup>(٣)</sup> .  
وأسلوب وهب في كتابه بسيط صريح منطلق لا تتقله أى حلى ، ولا يقف  
عند زينة ، ولسكن نجد عنده القطع الأرجوانية التي تكلمنا عنها في أثناء حديثنا  
عن عبيد ، تلك القطع رسائل المشتركين في الحوادث وخطبهم وشيء من حوارهم  
قال وهب <sup>(٤)</sup> : « ولما أراد الله إتمام أمره ، وإظهار العريية ، أنزل كتابا مقطعا ، وهو :  
« شهد الله بالحق ، بسم الله الرحمن الرحيم ، شهد الله أنه لا إله إلا هو ، والملائكة



وأولوا العلم ، قائماً بالقسط ، لا إله إلا هو العزيز الحكيم . حكم الحى القيوم أنه إذا اعتسك الزمان ، وكثر النسيان ، وحكم فى ذرية آدم الشيطان ، وغلب هذا اللسان ، فعبدت الأوثان ، وقتل ولدان : أن يبعث الله محمداً بالعدل والبيان ، يصدع بالقرآن ، وينصر الإيمان ، زمان ظهور السودان ، ، نبى لا نبى بعده ، ولم يخلف الله وعده ... »

وتذكرنا هذه القطع الأرجوانية بالشاعر الشعبي فى المقامى فى مصر ، إذ نراه يقص حكايته بأسلوب بسيط منطلق ، حتى يأتى إلى حديث أبطال قصصه وخطبهم ، ورسائلهم ، فنرى أسلوبه يرتفع ويحمل ، بل نراه يفخم من لهجته وينطق بها متمملاً متروياً . ولا يظهر فى هذه القطع الأرجوانية من الحلى إلا السجع والازدواج وتوازن العبارات . ويبدو أن وهبا كان عارفاً باللغة وأساليبها الأدبية . يقول فى شرحه للآية « لا عاصم اليوم من أمر الله » فى أثناء كلامه عن نوح <sup>(١)</sup> : « والعرب تجعل فاعل فى موضع مفعول ، قال الله : « فى عيشة راحية » و« ماء دافق » أى مرضية ومدفوق » .

وأخيراً نجد فى تاريخ وهب ما وجدناه فى مواعظه من إسرئيليات تنفذ إليه وتشيع فيه ، وخاصة أن الموضوعات التى تناولها كانت تساعد على هذا الانتشار وأظهر ما تنضج هذه الإسرئيليات فى الجزء الأول من الكتاب الذى يعالج فيه المؤلف كيفية خلق العالم وآدم وأولاده حتى نوح عليه السلام وأبنائه الثلاثة . كما يشهد وضوحها أيضاً فى تناوله لقصة بلقيس وسليمان . ويبدو أن وهبا كان يحسن العبرية والسريانية ، فراه يذكر الاسم وترجمته العربية ، فقينان عبرانى تفسيره



باللسان العربى مشترى<sup>(١)</sup>، ومهلل عبرانى وتفسيره باللسان العربى ممدوح<sup>(٢)</sup>  
ومالالى سريانى وتفسيره بالعربى مسيح الله<sup>(٣)</sup>.

ويلاحظ عليه الأستاذ كرنكو وهو يصف غزوات ذى القرنين قائلاً<sup>(٤)</sup>:  
« هذا الشعب ينفذ إلى جابرصا ، وهذا الشعب يصل إلى هرات ومرو وسمرقند، وهذا  
ينفذ إلى جاجا وبلخا وحابلجا وبارد، وأرض يأجوج ومأجوج » يلاحظ عليه  
ملاحظة جدرة بالاهتمام. يقول<sup>(٥)</sup>: « هذه الأسماء كلها محرفة فى الأصل ، والمراد  
بجاجا مدينة جاج فيما وراء النهر، وهى بحيمين فارسين، وقد عبرت العرب اسم هذه  
المدينة فقالت شاش. وبلجا محرف من بلخ بالحاء، وحابلجا لعله محرف من  
جابلق. والظاهر أن هذه الأسماء كلها مأخوذة من كتاب باللغة الآرامية بحيث  
فى آخرها ألف. وأما بارد فلا أدرى أى بلد يعنى بهذا ». فلو صدقت هذه  
الملاحظة لكان وهب يحسن الآرامية، أو يأخذ عن يحسنها.

ولا يقتصر الأمر على ذلك، بل نراه يذكر بعض اللغات الأخرى مثل الحميرية  
حين يقول<sup>(٦)</sup>: « وكان يقال لحمير « العرنجج »، والعرنجج : العتيق » وحين  
يقول<sup>(٧)</sup>: « ذو شدد بلغة حميرة كقولك : ذو شطط أى ذو عطاء »، ومثل اللغة الحامية  
حين يقول<sup>(٨)</sup>: « الشام اسم أعجمى من لغة بنى حام، وهو طيب تفسيره بالعربى ».   
قد نخرج من هذه الشواهد ونحن على ما يشبه الاطمئنان من معرفة وهب  
باللغة العبرية والسريانية، وفى نفسنا شىء من معرفته باللغة الآرامية والحميرية.  
ومما يزيدنا يقينا بمعرفته اللغات غير العربية ذلك القول فى كثير من المراجع بأنه  
قرأ الكتب، أو العدد الفلانى منها، وأن تفسيره الكلمات العبرية والسريانية

(١) ٢١ (٢) ٢١ (٣) ٩٩ (٤) ٩٩ (٥) هامش ٩٩  
(٦) ٥٦ (٧) ٧٨ (٨) ٤٩



كان صحيحاً في أغلبه . وربما استمد وهب بعض معارفه مما كان شائعاً من قصص بين أهل الكتاب ، وإن لم يوجد في إنجيل أو تورا .

هذا هو وهب بن منبه في « كتاب التيجان » صورة مكبرة مهذبة من عبيد ابن شربة ، صورة أحاطت بما تركه عبيد من الأخبار ، وأكثرت من الإضافات الأجنبية عن العرب الجاهليين ، وهى إضافات أملاها الإسلام والقرآن ، وإضافات أملاها الاتصال الشديد بأهل الكتاب ، وتقبل المسلمين لمعلوماتهم ومعارفهم . وإذن فوهب هو المؤرخ القصاص ، الذى تغنى بمفاخر وطنه ، وأشاد بها ملحمة نثرية بسيطة صريحة ، تلبس وشيا من الشعر والقرآن والرسائل والخطب والأحاديث المخبرة الجملة ، وقد صاغها الخيال فى إطار أدبي جذاب .

وهذه فقرة من كتاب التيجان<sup>(١)</sup> :

### « ملك الهمال بن عاد

المعروف بذي شدد ، ملك متوج

وإنه لما مات لقمان بن عاد صار الملك إلى أخيه الهمال بن عاد بن اللطاط بن السكسك بن وائل بن حمير . والهمال بن عاد هو ذو شدد ، فلما صار الملك إلى مال ذى شدد دخل إلى المغارة التى دفن فيها أخوه شداد بن عاد ، فأخرج التاج وتوج به . وكان لقمان غيبه فى تلك المغارة ، لأنه لم يكن متوجاً ، كان متواضعاً لله . فلما ولى الهمال بن عاد أخذ الملك أخذاً شديداً ، فولى ذلك حيناً من الدهر



ثم مات . وإنما قيل له ذو شدد بلغة حمير كقولك ذو شطط بن عاد بن مناح ، أى ذو عطاء .

وينسب حاجي خليفة<sup>(١)</sup> إلى وهب كتاباً آخر يسمى « كتاب الفتوح » .  
ولسكن المؤرخين الآخرين لا يذكرون عنه شيئاً آخر .

### عاصم بن عمر

رجع إلى المدينة لنجد عاصم بن عمر بن قتادة الأنصاري المتوفى عام ١١٩ أو ١٢٠ هـ ، وقد روى عاصم عن أبيه ، واشتهر بأحاديثه عن حياة الرسول عامة ، حتى وصفه ابن قتيبة بأنه « صاحب السير والمغازي<sup>(٢)</sup> » ، وروى عنه محمد بن إسحاق والواقدي .

وتوضح اقتباسات ابن سعد في طبقاته عناية عاصم بالفترة المسكية من حياة الرسول ، إلى جانب عنايته بالفترة المدنية . كما توضح مقتطفات الطبري أنه اهتم بتاريخ الخلفاء الراشدين ، وخاصة أخبار فتنة عثمان . ويذكر عاصم سند رواياته في غالب الأحيان ، ولكنه يهمله كثيراً أيضاً ، ويتبع غيره في رواية الأشعار على السنة المشتركة في الحوادث<sup>(٣)</sup> . وإنما يمتاز بأنه لم يقتصر على جمع الحوادث وروايتها ، بل كان يبدي رأيه فيها ، ويعلق عليها<sup>(٤)</sup> .  
وهذا مثال من أخباره في وصف بيعة العقبة<sup>(٥)</sup> :

(١) حاجي خليفة : كشف الظنون ٤ : ٣٨٧ .

(٢) ابن قتيبة : المغازي ٢٣٦ .

(٣) ابن هشام : السيرة النبوية ٢ : ٦٧ ، ٤ : ١٣ .

(٤) نفس المرجع ٢ : ٨٩ . (٥) نفس المرجع ٨٨ .



« قال ابن اسحاق ، وحدثني عاصم بن عمر بن قتادة :

إن القوم لما اجتمعوا لبيعة رسول الله صلى الله عليه وسلم قال العباس بن عباد ابن نضلة الأنصاري ، أخو بني سالم بن عوف : يامعشر الخزرج ، هل تدرسون علام تباعون هذا الرجل ؟ قالوا : نعم ، قال : إنكم تباعون على حزب الأحمر والأسود من الناس ، فإن كنتم ترون أنكم إذا نهكت أموالكم مصيبة ، وأشرافكم قتلا أسلمتموه ، فمن الآن ؛ فهو والله إن فعلتم خزي الدنيا والآخرة ، وإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتوه إليه على نهكة <sup>(١)</sup> الأموال ، وقتل الأشراف ، فخذوه ، فهو والله خير الدنيا والآخرة . قالوا : فإننا نأخذ على مصيبة الأموال وقتل الأشراف ، فما لنا بذلك يارسول الله إن نحن وفيما بذلك ؟ قال : الجنة . قالوا : ابسط يدك . فبسط يده ، فباعوه .

وأما عاصم بن عمر بن قتادة فقال : والله ما قال ذلك العباس إلا ليشد العقد لرسول الله صلى الله عليه وسلم في أعناقهم .

#### الزهرى

أشهر مؤرخي جيل التابعين هو محمد بن مسلم بن شهاب الزهرى المتوفى عام ١٢٤ هـ . وقد أمره خالد بن عبد الله القسرى بكتابة السيرة له <sup>(٢)</sup> ، كما أمره أيضاً بكتابة كتاب عن القبائل العربية الشمالية ، ففعل ولم يتمه <sup>(٣)</sup> . ومن الواضح أن قرّة بن عبد الرحمن يعنى الكتاب الأخير بقوله : « لم يكن للزهرى

(١) نهكة الأموال : نقصها . (٢) الأصفهاني : الأغاني ١٩ : ٦٩ .

(٣) نفس المرجع ٥٩ .



كتاب إلا كتاب نسب قومه<sup>(١)</sup> . ويبدو أن الزهري كان واسع المعرفة بالأنساب ، يقول عنه الليث<sup>(٢)</sup> : « وإن حدث عن العرب والأنساب قلت : لا يحسن إلا هذا » . ويخبرنا الزهري نفسه أنه كتب « أسنان الخلفاء » لجده<sup>(٣)</sup> ، وهي عبارة عن قائمة يذكر فيها تاريخ وفاة الخلفاء وأعمارهم عند الوفاة ، ومقدار ملكهم ، كما يظهر من القطعتين اللتين اقتبسهما منها الطبري . ونسب له شمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوي كتاباً يسمى « مشاهد النبي صلى الله عليه وسلم » رواه عنه يونس بن يزيد<sup>(٤)</sup> . ولا يصل إلينا من الزهري كتاب خاص مستقل في التاريخ ، على الرغم من كثرة ما دونه لنفسه أو للأمويين ، حتى كثرت القصص عن هذا التدوين<sup>(٥)</sup> . ولكن بعض المتأخرين جمع الأحاديث التي اقتطعتها من مدوناته كتب الأحاديث المتأخرة في مجلد سماه « الزهريات »<sup>(٦)</sup> .

ويبدو من الشذرات الباقية من كتابات الزهري في الطبقات خاصة أنه تناول حياة الرسول عامة ، ولم يتصر نفسه على الغزوات الفعلية وحدها ، وقد تسربت إلى أخباره بعض الإسرائيليات ، حتى قال عنه الليث<sup>(٧)</sup> : « وإن حدث عن الأنبياء وأهل الكتاب لقلت : لا يحسن إلا هذا » . ويُعزى إلى الزهري الفضل في أنه كان أول من قارن بين الأحاديث المختلفة المصادر في موضوع واحد ، لإدماجها في حديث واحد إجماعي ، يصدره بأسماء الرواة مجتمعين<sup>(٨)</sup> . وكانت هذه خطوة إلى الأمام في العرض التاريخي . وكان الزهري أيضاً أول من عنى بتدوين الأنساب ،

(١) الذهبي : تراجم رجال روى محمد بن إسحاق عنهم ٦٨ .

(٢) أبو نعيم : الحلية ٣ : ٣٦٠ . (٣) الطبري : التاريخ ٢ : ٤٢٨ ، ١٢٦٩ .

(٤) السخاوي : الإعلان بالتوخيخ لمن ذم التاريخ ٨٨ .

(٥) ابن سعد : الطبقات ٢ : ١٣٥ . (٦) كتاب المغازي الأولى ومؤلفوها ٦٧ .

(٧) أبو نعيم : الحلية ٣ : ٣٦٠ . (٨) ابن هشام : السيرة ٣ : ٣٠٩ .



فأتيه بذلك وجهة جديدة في التاريخ . وقد سار الزهري على منوال غيره من المؤلفين في ذكر الإسناد تارة <sup>(١)</sup> ، وحذفه أخرى <sup>(٢)</sup> ، وفي العناية بإدخال الشعر في أخباره <sup>(٣)</sup> .

وللزهرى فضل كبير على الحركة التاريخية ، إذ أنه نشر كتبه بين الجمهور ، وحض على ذلك <sup>(٤)</sup> . عن يونس قال الزهري : « إياك وغُلُول الكتب » . قلت : « وما غُلُولها ؟ » قال : « حبسها عن أهلها » <sup>(٥)</sup> . وقد افتخر بنشر العلم فقال : « ما صبر أحد على العلم صبري ، ولا نشره أحد نشرى <sup>(٦)</sup> » .

وهذه فقرة من كتاب « أسنان الخلفاء » تظهر لنا طريقته فيه . قال الطبري <sup>(٧)</sup> : « عن هشام بن الوليد الخزومي أن الزهري كتب لجده أسنان الخلفاء ، فكان فيما كتب من ذلك :

« ومات يزيد بن معاوية وهو ابن تسع وثلاثين . وكانت ولايته ثلاث سنين وستة أشهر ، في قول بعضهم ، ويقال ثمانية أشهر » .

وهذه فقرة من حياة الرسول في مكة تتناول مبعثه صلى الله عليه وسلم <sup>(٨)</sup> : « قال ابن إسحاق ، فذكر الزهري ، عن عروة بن الزبير ، عن عائشة رضي الله عنها أنها حدثته : « أن أول ما بُدئ به رسول الله صلى الله عليه وسلم من النبوة ،

(١) أبو نعيم : الحلية ٣ : ٣٦٥ .

(٢) ابن هشام : السيرة ١ : ١٢ ، ٧٢ ، ٣٣٨ ، وغيرها .

(٣) ابن هشام : السيرة ٤ : ٥٩ ، ٢١٥ ، ٢٣٨ ، وغيرها .

(٤) أبو نعيم : حلية الأولياء ٣ : ٣٦٦ .

(٥) نفس المرجع . (٦) نفس المرجع .

(٧) ابن هشام : السيرة ١ : ٢٤٩ . (٨) ابن هشام : السيرة ١ : ٢٤٩ .



حين أراد الله كرامته ورحمة العباد به ، الرؤيا الصادقة ، لا يرى رسول الله صلى الله عليه وسلم رؤيا في نومه إلا جاءت كغفلق الصبح » . قالت : « وحبب الله تعالى إليه الخلوة ، فلم يكن شيء أحب إليه من أن يخلو وحده » .

وأسلوب الزهرى كما يبدو من هذه الفقرات سهل منطلق جميل بسيط .

### موسى بن عتبة

ينقضى جيل الزهرى ، ويظهر جيل آخر ، كله من تلاميذه . ونبدأ بموسى بن عتبة المتوفى عام ١٤١ هـ . وهو من المشهورين بمعرفة المغازى ، وألف فيها كتاباً رواه عنه ابن أخيه إسماعيل بن إبراهيم المتوفى عام ١٥٨ هـ <sup>(١)</sup> . وقد ضاع هذا الكتاب إلا شذرات نحاول أن نتبين صورته منها . ويبدو أنه كان أصغر حجماً من كتب المغازى الأخرى ، لأن مالك بن أنس يقول عنه <sup>(٢)</sup> : « عليكم غمازى موسى بن عتبة ... فإنه رجل ثقة طلبها على كبر السن ، ولم يكثر كما كثر غيره » . وقد أكد بعضهم لألويس شبرنجر Aloys sprenger في دمشق أنه توجد منه نسخة هناك ، ولكنه لم يستطع أن يراها <sup>(٣)</sup> .

ولكن وجدت في المكتبة البروسية الرسمية قطعة من هذه المغازى ، ترجمها الأستاذ ادوارد سخاو E. chasau إلى الألمانية في عام ١٩٠٤ <sup>(٤)</sup> . ويتضح من هذه القطعة

(١) ابن سعد : الطبقات ٥ : ٣١٠ .

(٢) ابن حجر : تهذيب التهذيب ١٠ : ٣٦١ .

(٣) كتب المغازى الأولى ومؤلفوها ، ترجمة المؤلف ٧٠ .

(٤) سخاو : القطعة البرلينية من مغازى موسى بن عتبة ، ( تقرير عن أعمال

المجمع البروسى للعلوم عام ١٩٠٤ ) .



أن موسى لم يتناول المغازي بالمعنى الخاص ، بل تناول الهجرة أيضاً . وقد اقتبس ابن سعد كثيراً منه عن طريق أستاذه الواقدي <sup>(١)</sup> ، وعن طريق ابن أخي موسى السابق ذكره <sup>(٢)</sup> . وتكشف لنا هذه المقتطفات أن مغازي موسى كانت تحتوي على قوائم بالمهاجرين إلى الحبشة ، وبالمشركين في بيعتي العقبة ، وبالحاربين في بدر <sup>(٣)</sup> ، فتدعم قول ابن حجر بأنه كتب هذه القوائم عندما رأى شرح حجيل ابن سعد يدخل في البدرين من لم يشهد بدرا <sup>(٤)</sup> . وكان الطبري من الذين رجحوا إليه ، فاقتبس منه أخباراً يشير أكرها إلى عهد الخلفاء الراشدين ، والأمويين ، إلى جانب عهد الرسول <sup>(٥)</sup> . ويروى في الأغاني خبر يدل على أن موسى بن عقبة اهتم بالأحداث الجاهلية أيضاً <sup>(٦)</sup> .

نرى مما سبق أن موسى بن عقبة ينفرد عن المؤلفين قبله بعنانيته الزائدة بالقوائم ، وتدوينه لتاريخ الخلفاء الراشدين ، وبعض الأمويين ، بل التاريخ الجاهلي أيضاً . ويختص بمواعاته أكثر من غيره لنظام الإسناد <sup>(٧)</sup> ، وإن تركه أحياناً <sup>(٨)</sup> . ويعني أيضاً بالأخذ عن مدونات من سبقه ، مثل ابن عباس <sup>(٩)</sup> ، كما يعني بالوثائق المكتوبة <sup>(١٠)</sup> . ويقتبس بعض الأشعار <sup>(١١)</sup> ، ويحاول ترتيب الحوادث ترتيباً زمنياً <sup>(١٢)</sup> . ويمتاز أيضاً بعنانيته بأخبار الحزب الزيدى ، ولعل سبب ذلك

- (١) ابن سعد : الطبقات ٣ : ٢٤١ ، ٨ : ١٠ ، ١١ ، ١٧١ ، ١٩٠ ، وغيرها .
- (٢) نفس المرجع ٢ : ١ ، ٣ : ١ ، وغيرها . (٣) ابن سعد : الطبقات ٢ : ١ ، ٣ : ١ .
- (٤) ابن حجر : تهذيب التهذيب ١٠ : ٣٦١ . (٥) ابن سعد : الطبقات ٥ : ٣٨٣ .
- (٦) أبو الفرج : الأغاني ٣ : ١٦ (٧) الطبري : التاريخ ١ : ٢٥٠ ، ١٨٥ ، ١٩٤ ، وغيرها . (٨) الطبري : التاريخ ١ : ٢٧٥٥ . (٩) ابن سعد : الطبقات ٥ : ٢١٦ .
- (١٠) البلاذري : فتوح البلدان ٨٠ . (١١) ابن سعد : الطبقات ٣ : ٢٤١ ، وغيرها .
- (١٢) هو ورفيقه : المغازي الأولى ومؤلفوها ، ترجمة المؤلف ٧٣ ، ٢٦ .



أنه يكثر الرواية عن جده لأمه أبي حبيبة مولى الزبير بن العوام<sup>(١)</sup> ، كما يروى عن علقمة بن وقاص الليثي الذي يبدو أنه كان في جيش الزبير وطلحة يوم الجمل<sup>(٢)</sup> . وهذه فقرة من تاريخه تبين لنا طريقة تفاوله وأسلوبه<sup>(٣)</sup> : « موسى بن عقبة عن أبي حبيبة مولى الزبير قال : « لما قتل الناس عثمان رضى الله عنه وبايعوا علياً ، جاء على إلى الزبير ، فاستأذن عليه ، فأعلمته به ، فسل السيف ، ووضعته تحت فراشه ، ثم قال : « ائذن له » . فأذنت له ، فدخل فسلم على الزبير ، وهو واقف بنحوه ، ثم خرج . فقال الزبير : « لقد دخل المرء ، ما أقصاه . قم في مقامه فانظر : هل ترى من السيف شيئاً ؟ » فقمت في مقامه ، فرأيت ذباب السيف فأخبرته ، فقال : « ذاك أعجل الرجل » . فلما خرج على سألته الناس ، فقال : « وجدت أبراً ابن أخت وأوصله » . فظن الناس خيراً ، فقال على : « إنه بايعه » . ويظهر لنا في هذه الفقرة نظرة الحزب الزبيرى لمسألة الخلاف بين على والزبير ، أكثر مما يظهر أى شيء آخر . وهذا ما يلاحظ على موسى في أغلب أخباره ، التي يتتبع فيها أخبار الزبيريين حتى عهد عبد الملك بن مروان .

#### سليمان بن طرخان

تنقل الكتابة التاريخية إلى البصرة ليظهر فيها سليمان بن طرخان المتوفى عام ١٤٣ هـ . ولم تذكر المراجع القديمة التي بين أيدينا أنه ألف كتباً ، وإن كنا نرى اسمه يتكرر في الطبرى . ولكن الأستاذ فون كريم وجد مخطوطاً يحتوى على مغازى الواقدي التي لا تصل إلا إلى إجلال بن النضير من المدينة . ثم تكمل

(١) الطبرى : التاريخ ١ : ٢٩٨١ ، ٢٩٩٨ وغيرها .

(٢) نفس المرجع ٣١٠٣ ، ٣١٣٧ . (٣) نفس المرجع ٣٠٧٣ .



بجزء من مغازى أبي المعتمر سليمان بن طرخان التيمي المسماة « السيرة الصحيحة » كما يقول الناسخ <sup>(١)</sup> . وتبدأ سيرة سليمان بالكلمة الأولى في السطر ١٩ من الصفحة ٣٦٠ ، وتنتهى في الصفحة ٤٣٧ . فهى تتألف من ٧٧ صفحة من النسخة المطبوعة .

ولا نستطيع من هذا الجزء الباقي من سيرته أن نحكم : هل تناول التاريخ الجاهلى ، وتاريخ النبي في مكة ، أو اقتصر على المغازى وحدها ، وإن كان الاسم « السيرة » قد يجعلنا نميل إلى الظن بأنه تناول الفترة المسكية من حياة الرسول أيضاً . ولكن الطبرى يذكر له خبرين عن خلق آدم <sup>(٢)</sup> ، وعن حرق إبراهيم <sup>(٣)</sup> ، ثم لم يذكر له شيئاً في حياة الرسول ، وإنما يرجع إليه ثانية في عهد عثمان ، حيث روى بعض ما حدث في الفتنة . ولا ندرى لهذا سبباً : أكان الطبرى غير واثق بمغازيه ، أم لم تصل إليه ، أم لم يؤلف سليمان مغازى ، وهذه المغازى التى بين أيدينا محمولة عليه .

ويرى قارئ « سيرته » أن الأخبار موجزة مضغوطة متسقة منتظمة لانكثرت خلالها الفواصل والزوائد ، كأنرى عند غيره من المؤرخين . فهو لا يذكر الأسانيد ، ولا يعنى بالروايات المتعددة ، وإنما يسير على رواية واحدة لا يتعدها . ويمتاز وصفه بالقوة والحياة ، يشعر القارئ أنه مشرف على المعركة يرى الأبطال ويشاركهم مشاعرهم وأفعالهم ، كما يشعر بأن المؤلف لا يكتفى بمجرد الأعمال وإنما يدقق فيها ويبسطها بسطاً صادقاً ، يجعلنا نستطيع أن نميز ما يدور فى خلجات المؤمنين

(١) فون كريم : مغازى الواقدي ٤٣٨ ، المقدمة ٢٣ .

(٢) الطبرى : التاريخ ١ : ٩١ . (٣) نفس المرجع ٢٦٦ .



في كل موضع من المواضع . وكثيراً ما تكون هذه الانفعالات في غير صالح المسلمين <sup>(١)</sup> .

ولسكنفا نراه يأتي بروايات غريبة في الغزوات الكبيرة المعروفة ، تخالف ما أجمع عليه المؤرخون الآخرون . ولنذكر على سبيل المثال ذلك الدور الذي قام به نعيم بن مسعود الأشجعي في غزوة الخندق . فسلیمان يراه من الجواسيس على النبي ، على حين يراه المؤرخون الآخرون من المؤمنين الذين خدموا النبي خدمة عظيمة ، وساعد على تفريق كلمة المشركين واليهود بخداهم . وكذلك يأتي بروايات مخالفة في غزوات بني قريظة والحديبية وخيبر وموتة ووفاة الرسول . أما المؤلفون الآخرون فلا يعنون بذكر رواياته على الرغم من اهتمامهم بسرد غيرها من الروايات الكثيرة . ولا ندرى ما سبب هذا الإهمال ، إلا أن هناك ظناً يخامرنا ، وهو أن كثيراً من أخباره كان يصور المسلمين صوراً لا ترضيهم أو لا ترضى بعضهم <sup>(٢)</sup> . ويورد سليمان أخباراً عن العباس لا نجد لها عند غيره من المؤرخين <sup>(٣)</sup> . وهي كلها في جانب العباس ، مما يغري المرء بالقول إنها من وحى العباسيين . ولسكنفا - بعد كل ذلك - نحسب أن نشير إلى أن سليمان بن طرخان من المشهود لهم بالعدالة والفضل <sup>(٤)</sup> .

ويعني سليمان بإيراد الآيات القرآنية <sup>(٥)</sup> ، وشرح مناسباتها التاريخية ، والاعتماد عليها ، كما يعني أيضاً بالشعر <sup>(٦)</sup> . ولسكن هذا الشعر قليل متضائل بالنسبة لغيره من الكتاب .

(١) انظر غزوة الخندق وغيرها . (٢) انظر غزوتي الخندق وخيبر .

(٣) ٤٣٥ ، ٣٩٦ . (٤) مقدمة فنون كرم ٦ . وابن حجر : تهذيب التهذيب .

(٥) ٣٦١ ، ٣٦٤ ، ٣٦٦ ، ٣٧٢ ، وغيرها (٦) ٣٧٤ ، ٣٩٠ ، ٣٩٦ ، ٤٠٣ ، وغيرها .



وهذه المغازي لها أهمية فوق كل ذلك ، إذ أنها أقدم كتاب تاريخي يتناول حياة الرسول ، سلم من الضياع ، ووصل إلينا شبه كامل ، فيما عدا الجزء الذي وجدته ييكر من مغازي وهب . وهالك بعض الأمثلة التي تصور لنا طريقة تناوله للتاريخ . يقول في وصفه لموقعة الخندق <sup>(١)</sup> : « فلما فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من حفر الخندق أتاه المشركون ، فزولوا به ، فاقتتلوا قتالا شديداً ، بلغ من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم كل مبلغ . فحصرهم حصاراً شديداً ارتاب منه المنافقون ، وشكوا في نبي الله صلى الله عليه وسلم ، وأسأوا اللفظ . فقام رجل من الأنصار يقال له مغيث بن بشير ، فقال : « أوعدنا محمد أن يفتح قصور فارس والروم واليمن ، ولا يتبرز أحدنا إلى الخلاء من رحله ؟ والله لغرور » . وتابعه على ذلك رهط من المنافقين ، فأنزل الله تعالى : « وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورا » . وزعموا أن قبيلتين من الأنصار ، بنى حارثة بن الحارث وبنى سلمة ، هما أن يخلوا مراكزهم ، وقالوا : « يابني الله ، إن بيوتنا حليمة ، نخاف عليها السرقة » . فلم يبق قول الله تعالى : « يقولون إنا بيوتنا عورة ، وما هي بعورة ، إن يريدون إلا فرارا » . وذكر في سورة أخرى : « إذ هممت طفتان منكم أن تفشلا ، والله وليهما ، وعلى الله فليتوكل المؤمنون » . فقالوا بعد ذلك : « مانح أن نهم بالذي هممنا به إذ كان الله ولينا » :

ويظهر أسلوب سليمان في هذه الفقرة سهلا بسيطا سيالا ، حاراً صادقاً موجزاً .

وهذه فقرة مما اقتبسه الطبري من سليمان <sup>(٢)</sup> : « معتمر بن سليمان التيمي

(٢) الطبري : التاريخ ١ : ٢٩٦٣ .

(١) ٣٦٣ .



قال ثنا أبي قال ثنا أبو نصر عن أبي سعيد مولى أبي أسيد الأنصاري ، قال :  
« سمع عثمان أن وفد أهل مصر قد أقبلوا ، قال : فاستقبلهم وكان في قرية له خارجة  
من المدينة ، أو كما قال ، فلما سمعوا به أقبلوا نحوه إلى المكان الذي هو فيه ،  
قال : وكره أن يقدموا عليه المدينة أو نحوها من ذلك ، قال : فأتوه ، فقالوا له :  
« ادع بالمصحف » . قال : فدعا بالمصحف ، قال : فقالوا له : « افتح السابعة »  
قال : وكانوا يسمون سورة يونس السابعة ، قال : فقرأها حتى أتى على هذه الآية  
« قل أرأيتم ما أنزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حراما وحلالا ، قل الله أذن  
لكم أم على الله تفترون » . قال : قالوا له : « قِفْ » . فقالوا له : « أرأيت ما  
حميت من الحمى ، آله أذن لك أم على الله تفتري ؟ » قال : فقال : « امضه ،  
نزلت في كذا وكذا » . قال : وأما الحمى فإن عمر حمى الحمى قبلى لإبل الصدقة ،  
فلما وليت زادت إبل الصدقة فزدت في الحمى لما زاد في إبل الصدقة ، امضه ... »

ويلاحظ في هذه الفقرة ، وفي فقرة ثانية في الطبرى <sup>(١)</sup> تتناول تسكلة الحادثة ،  
الإكثار من اعتراض « قال » في السياق ، مما لا نجد مثله كثيراً عند الطبرى ،  
مما يجعلنا نرجح أنه من خصائص كتاب سليمان الذي أخذ عنه الطبرى . ولكن  
المغازى التي بين أيدينا ليس فيها هذا الاعتراض الكثير . ونحن لا نستطيع أن  
نعمم هذا الحكم من فقرتين فحسب ، لأن الفقرات الباقية في الطبرى من القصر  
بحيث لا تظهر فيها هذه الظاهرة



### عوانة بن الحسك

من مؤرخي العراق أيضاً أبو الحسك عوانة بن الحسك الضرير الثقة المتوفى عام ١٤٧ هـ أو ١٥٨ هـ ونسب له ابن النديم في «الفهرست»<sup>(١)</sup> «كتابين: كتاب التاريخ» و«كتاب سيرة معاوية وبنى أمية». وقد شك بعض العلماء في الكتاب الأخير، ونسبه لمنجاب بن الحارث التميمي المتوفى عام ٢٣١ هـ.

وروى عبد الله بن المعتز عن الحسن بن عليل العنزي أن عوانة كان عثمانياً يضع الأخبار لبني أمية، وترجع دائرة المعارف الإسلامية ذلك الرأي<sup>(٢)</sup>. واسكن الهيثم بن عدى يروي خبراً عنه حين قتل محمد بن عبد الله بن الحسن بن علي بن أبي طالب بالمدينة، وكيف أنه ترحم عليه وذكر فضله، مما يدل على أنه كان يظهر العثمانية تقيّة منه، وخاصة أنه في نهاية الخبر السابق يستفسر من الجالسين إذا ما كان أحد عيون الأمويين حاضراً. فإذا تحقق من عدم حضور أحد يمدح محمداً مدحاً رائعاً.

ولا تؤيد الأخبار الباقية لنا منه عند الطبري<sup>(٣)</sup> والبلاذري<sup>(٤)</sup> تلك التهمة، إذ لا يظهر فيها أي هوى للأمويين. ولعل الطبري والبلاذري لم يذكر لنا تلك الأخبار التي تظهر فيها عثمانيته وأمويته. ويجب أن نحترس في هذا الرأي لأننا نجد كثيراً من التهم توجه لعوانة تريد الغرض من قدره، مثل تلك الأخبار التي

(١) الفهرست ٩١.

(٢) ياقوت: معجم الأدياء ٦ : ٩٤، ودائرة المعارف الإسلامية مادة (عوانة).

(٣) التاريخ ١ : ١٨٢٧، ٢٧٥٥، ٣٢٠٤ وغيرها.

(٤) فتوح البلدان ٦٢، ٩٤، ١٨٢، ٢٤٠، وغيرها.



تجعله لا يميز بين الشعر والقرآن<sup>(١)</sup> ، على الرغم من قولهم إنه كان عالماً بالشعر والفضاحة<sup>(٢)</sup> ، وعلى الرغم من القصة السابقة التي يمدح فيها محمد بن عبد الله بالآية «التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر ، والحافظون لحدود الله» مما يدل على معرفة بالقرآن أيضاً . كل هذه التهم تدلنا على أنه كان كثير الخوصوم ، وإن لم نستطع معرفتهم ، وسبب خصومتهم له ، وإن خامرنا الظن بأن عثمانته المزعومة ربما كانت سبب هذه العداوة .

ولا تتناول المقتطفات الباقية من تاريخ عوانة شيئاً من حياة الرسول ، وإنما تبدأ ببذعة أبي بكر ، وتصف الردة ، وفتح العراق ، وفتح بلدان فارس المختلفة مثل المدائن وجلولاء ، وهمدان ، ووقعة الجمل ، وحروب على ومعاوية ، والحسن ومعاوية ، وتاريخ العراق ، وقتل الحسين ، وثورة عبد الله بن الزبير ، وتنتهي الأخبار بخروج ابن الأشعث وقتل ابن القرية<sup>(٣)</sup> .

ونرى عوانة في هذه المقتطفات لا يعنى بالأسانيد كثيراً ، ويبحث عن المواد في كل مكان حتى ليأخذها من أقارب المشتركين في الحوادث . ويعنى كذلك بإيراد الأشعار .

وهذه فقرة من أخباره<sup>(٤)</sup> : « يحيى بن آدم عن عوانة بن الحكم عن جرير بن يزيد عن الشعبي قال ، قال عبد الله بن مسعود : « لقد قتنا بعد رسول الله

(١) ياقوت : معجم الأدباء ٦ : ٩٤ . (٢) نفس المرجع ٩٥

(٣) انظر فهرست الطبري والبلاذري .

(٤) البلاذري : فتوح البلدان ٩٤ .



صلى الله عليه وسلم مقاما كدنا نهلك فيه ، لولا أن منّ الله علينا بأبى بكر : اجتمع رأينا جميعاً على ألا نقاتل على بنت نخاض وابن أبون ، وأن نأكل قري عربية ، ونعبد الله حتى يأتينا اليقين . وعزم الله لأبى بكر رضى الله عنه على قتالهم ، فوالله ما رضى منهم إلا بالخطبة الخزمية أو الحرب الجلمية . فأما الخطبة الخزمية فأن أقروا بأن من قُتل منهم فى النار ، وأن ما أخذوا من أموالنا مردود علينا ، وأما الحرب الجلمية فأن يخرجوا من ديارهم .

وأسلوب عوانة منساب منطلق ، يعنى فى بعض الفقرات بالحوار ، والشعر ، وما يدور بين أبطال الحوادث .

### محمد بن إسحاق

أخيراً يظهر محمد بن إسحاق المتوفى عام ١٥٠ هـ تقريباً ، فيؤلف كتاباً يغطى به على جميع هؤلاء المؤرخين المتقدمين ، ويحذب أنظار المتأخرين على الدوام . ويسمى كتاب ابن إسحاق هذا « كتاب المغازى » . ولم يصل إلينا الكتاب بصورته الأصلية ، ولكن وصل إلينا قسط عظيم منه فى سيرة ابن هشام . ويقال إن مكتبة كوبرلى بالآستانة تحتوى على مخطوطة من النسخة الأصلية من الكتاب . ولكن الأستاذ هوروفتس يرى أننا إذا ما عاينا هذه المخطوطة وفحصناها فحماً دقيقاً ، وجدناها نسخة من كتاب ابن هشام لا ابن إسحاق <sup>(١)</sup> .

وقيل <sup>(٢)</sup> إن سبب تأليفه المغازى أنه دخل ذات يوم على المنصور وبين يديه ابنه المهدي ، فقال له المنصور : أتعرف هذا يا ابن إسحاق ؟ قال :

(١) المغازى الأولى ومؤلفوها ، ترجمة المؤلف ٨٢ .

(٢) ابن هشام : السيرة ١ : ط



« نعم ، هذا ابن أمير المؤمنين » ، قال : « اذهب فصنف له كتاباً منذ خلق الله تعالى آدم عليه السلام إلى يومك هذا » . فصنف ابن إسحاق هذا الكتاب ، فقال له المنصور : « لقد طولته ، يا ابن إسحاق ، اذهب فاختمه » . وحفظ المنصور الكتاب الكبير في خزانته .

ولكن الأستاذ فيك<sup>(١)</sup> يرى أن ابن إسحاق لم يؤلف كتابه بأمر من الخليفة ولا في بغداد أو الحيرة ، وإنما في المدينة قبل إقامته لدى العباسيين . ويستدل على ذلك بأن روايته الذين أخذ عنهم جميعاً مدنيون ومصريون ، ولا يذكر أحداً من العراقيين . كما نجد أحد تلاميذ ابن إسحاق المدنين يروي الكتاب ، وذلك هو إبراهيم بن سعد<sup>(٢)</sup> المتوفى عام ١٨٤ هـ . بل نرى في الكتاب حوادث ما كان يرضى لذكرها العباسيون مثل تدوينه اشتراك العباس في بدر إلى جانب الكفار ، وأسر المسلمين له<sup>(٣)</sup> ، ذلك الخبر الذي حذفه ابن هشام فيما بعد خوفاً من العباسيين وربما أجرى ابن إسحاق بعض التغييرات الإضافية الطفيفة في الكتاب إرضاء للخليفة ، مثل رواياته عن مناصرة العباس للإسلام ، أو اعتناقه له سرا<sup>(٤)</sup> ، وإن كانت هذه الروايات أيضاً رواها عنه تلميذه المدنى إبراهيم بن سعد ، مما يجعلنا نعتقد أنه لم يجرها في العراق للمرة الأولى .

وعلى الرغم من عدم وصول النسخة الأصلية من الكتاب إلينا ، وحذف ابن هشام أجزاء كثيرة منه ، نستطيع تكوين صورة قريبة

(١) هوروفتس : المغازى الأولى ومؤلفوها ٨٠ .

(٢) نفس المرجع . وياقوت : معجم الأدباء ٦ .

(٣) الطبرى : التاريخ ١ : ١٣٤١ ، ١٣٤٤ . وابن سعد : الطبقات ٤ : ٧ .

(٤) ابن هشام : السيرة ٢ : ٣٠١ .



من الكمال عنه ، بفضل المقتطفات العديدة عند الطبري والمؤرخين المتأخرين ،  
والتي قد تكون محذوفة عند ابن هشام . ويساعدنا على تكوين الصورة تصريح  
ابن هشام بما أجراه من تغييرات في الكتاب ، إذ يصدزه بقوله <sup>(١)</sup> « وأنا إن  
شاء الله مبتدئ هذا الكتاب بذكر إسماعيل بن إبراهيم ، ومن ولد رسول الله  
صلى الله عليه وسلم من ولده ، وأولادهم لأصلابهم ، الأول فالأول ، من إسماعيل  
إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وما يعرض من حديثهم ، وتارك ذكر غيرهم  
من ولد إسماعيل ، على هذه الجهة للاختصار إلى حديث سيرة رسول الله صلى الله  
عليه وسلم ، وتارك بعض ما ذكره ابن إسحاق في هذا الكتاب ، مما ليس لرسول الله  
صلى الله عليه وسلم فيه ذكر ، ولا نزل فيه من القرآن شيء ، وليس سببا لشيء من هذا  
الكتاب ، ولا تفسير له ، ولا شاهدا عليه ، لما ذكرت من الاختصار ، وأشعرا  
ذكرها لم أر أحدا من أهل العلم بالشعر يعرفها ، وأشياء بعضها يشنع الحديث به ،  
وبعض يسوء بعض الناس ذكره ، وبعض لم يقر لنا البكائي بروايته ، ومستقص  
إن شاء الله تعالى ما سوى ذلك منه بمبلغ الرواية له ، والعلم به » . وكان ابن هشام  
دقيقا في تصريحه بكل ما يفعله من زيادة أو حذف على الدوام . وفيما عدا هذه  
التغييرات لا يجري أي عمل من عنده في النص الأصلي .

ويظن أن الكتاب كان في أصله مقسما إلى ثلاثة أجزاء : المبتدأ ، والمبعث ،  
والمغازي . أما المبتدأ فيتناول تاريخ الجاهلي . وقد خص ابن هشام هذا الجزء  
بالحذف أكثر من غيره ، ولكن الطبري حفظ جزءا كبيرا منه في تاريخه وتفسيره  
وخاصة ما يتعلق بالأنبياء منه ، كما حفظ الأزرقي أخبارا كثيرة تتناول تاريخ مكة  
القديم ، ووعى كتاب عبيد بن شريفة بعض أخباره كما ذكرنا من قبل .

(١) نفس المرجع ١ : ٤ .



وينقسم هذا الجزء إلى أربعة فصول : يتناول أولها تاريخ الرسائل السابقة على الإسلام منذ خلق العالم حتى ظهور عيسى . ويرجع ابن إسحاق في هذا الفصل إلى وهب بن منبه ، وابن عباس ، وأهل الكتاب ، بل التوراة ذاتها ، إلى جانب رجوعه إلى القرآن . ويورد فيه أخبار أهل الكتاب ، والقبائل العربية التي ذكرها القرآن مثل عاد وثمود ، بل التي لم يذكرها القرآن مثل طسم وجديس . ويتناول الفصل الثاني تاريخ اليمن في العصور الجاهلية . وسبب عنايته بهذا التاريخ وجود الإشارات العديدة في القرآن إليهم ، مثل إشاراته إلى أهل الأخدود ، وأصحاب الفيل . وقد وعى ابن هشام والطبري جزءاً كبيراً من هذا الفصل . وأما الفصل الثالث فيتناول القبائل العربية وعبادة الأصنام . ويتناول الرابع أجداد النبي المباشرين وديانة أهل مكة . ولا يعنى ابن إسحاق في هذا الجزء بالأسانيد إلا نادراً ، وأغلبها في الفصل الأول .

أما المبعث فيشمل حياة النبي في مكة ، والهجرة ، وربما العام الأول من نشاطه في المدينة . ونراه في هذا الجزء يصدر الأخبار الفردية بموجز حاولها ، ويدون مجموعات كاملة من القوائم : فقاممة بمن أسلم من الصحابة بدعوة أبي بكر<sup>(١)</sup> ، وأخرى بالمهاجرين إلى أرض الحبشة<sup>(٢)</sup> ، وثالثة بمن عاد من أرض الحبشة لما بلغهم إسلام أهل مكة<sup>(٣)</sup> ، وأخرى وأخرى مما يطول حصره . ويوجد في هذا الجزء وثيقة انفرد بها ابن إسحاق من بين المؤرخين الآخرين ، وهي معاهدة النبي الأولى<sup>(٤)</sup> ، التي كتبها لينظم التعاون بين المهاجرين والأنصار واليهود ، بعد هجرته

(١) ابن هشام : السيرة ١ : ٢٦٧ . (٢) نفس المرجع ٣٤٤ .

(٣) نفس المرجع ٢ : ٣ . (٤) نفس المرجع ١٤٧ .



إلى المدينة مباشرة . ويعني ابن إسحاق في هذا الجزء بالترتيب الزمني للحوادث ، كما تزداد عنايته بالأسانيد التي يرجع معظمها إلى شيوخه المدنيين .

وأخيراً المغازي ، وهي تتناول حياة النبي في المدينة منذ أول سهم أطلق في الحرب إلى وفاته صلى الله عليه وسلم . وتتلأ الغزوات الحربية هذا الجزء ، فلا يستطيع المؤلف أن يفصل السلام إلا عن مرض النبي الأخير ووفاته . ويسير ابن إسحاق في هذا الجزء على خطة رسمها لنفسه ولم يتجاوزها ، إذ يبدأ الخبر بملخص حاو لمحتوياته ، ثم يتبعه بخبر من جميع الأقوال التي أخذها من رواته ، وفي النهاية يكمله بما جمعه هو نفسه من المصادر المختلفة . وتكثر القوائم أيضاً ، عن حضر بدرأ من المسلمين ، ومن استشهد من المسلمين يوم بدر ، ومن قتل بيد من المشركين ، وما مائل ذلك في الغزوات المختلفة . ويلتزم ابن إسحاق هنا بإيراد الأسانيد ، وجميع رواته من المدينة ، وأهمهم الزهري وعاصم بن عمر وعبد الله بن أبي بكر ابن حزم ، الذين أمدوه بما ساعده في ترتيبه الزمني للحوادث . وقد زاد ابن إسحاق المادة التي أخذها منهم بما جمعه بنفسه من غيرهم من الرواة ، ومن أقارب المشتركين في الحوادث المؤرخة .

وقد لقيت هذه السيرة منذ ظهورها عناية كبيرة ، فرواها خمسة عشر تلميذاً لابن إسحاق كما يقول فيك<sup>(١)</sup> . أما ابن هشام فكان يرجع إلى رواية البكائي ، وأما الطبري فكان يرجع في الغالب إلى رواية سلمة بن الفضل المتوفى عام ١٩١ هـ ، وأما ابن الأثير في «أسد الغابة» وابن حجر في «الإصابة» فكانا يرجعان إلى رواية يونس بن بكير المتوفى<sup>(٢)</sup> عام ١٩٩ هـ . ثم كان الناس إلى اليوم يرجعون إليها في نسخة ابن هشام بعد ظهور هذه .

(١) هوروفتس : المغازي الأولى ومؤلفوها ٨٧ . (٢) نفس الموضع .



ونرى ابن إسحاق يرجع في سيرته إلى العلماء من غير المسلمين في أخباره عن الحوادث اليهودية والمسيحية والفارسية . ولذلك نراه يذكر بين رواته « بعض أهل العلم من أهل الكتاب الأول <sup>(١)</sup> » أو « أهل التوراة » <sup>(٢)</sup> أو « من يسوق الأحاديث عن الأعاجم » <sup>(٣)</sup> . ويعد هذا تحولا خطيرا من مدرسة المدينة التي لم تسكن تقبل مثل هذه الأخبار ، ولا مثل هؤلاء الرواة . فابن إسحاق أول من اقترب بمدرسة المدينة إلى مدرسة اليم في قبول هذه الأخبار ، حتى إذا نراه يأخذ بعض الأخبار عن وهب بن منبه . بل يذهب ابن إسحاق إلى أبعد من ذلك ، فيعطينا فقرات من العهدين القديم والجديد مترجمة ترجمة حرفية <sup>(٤)</sup> .

وعنى ابن إسحاق بالرجوع إلى الوثائق والمدونات ، كما حاول أن يذكر الأسانيد ، ولكن مادته السكثيرة المتنوعة اضطرت به إلى توسيع دائرة رواته ، وقبول بعض الأحاديث غير المرضية والإخلال بنظام الأسانيد ، مما أزعج مدرسة الحديث وهالها ، فكانت له التهم ، وسحبت منه ثقتها <sup>(٥)</sup> .

وينفرد ابن إسحاق عن باقي المؤرخين في كثرة الأشعار التي أدخلها في كتابه كثرة أفزعت معاصريه ومن بعدهم . إذ لم يكن يتحقق من صحة الشعر بل يدخل ما يحمل إليه دون تحقيق . ولذلك نجد عنده أشعارا ممتحلة تظاهر انتحالها ، مثل تلك التي قيلت في عهد عاد وثمود <sup>(٦)</sup> . ولكن بعض العلماء <sup>(٧)</sup> اعتذر عنه بأنه اقتبس هذه الأشعار لتزيين تاريخه لا لصحتها عنده ، فهو ما كان يتمسك بأنها صحيحة

- (١) الطبري : التاريخ ١ : ١٤٠ (٢) الطبري : التاريخ ١ : ١٤١٠٤١٣  
 (٣) ابن هشام : السيرة ١ : ٣٢٨ .  
 (٤) هوروفتس : المغازي الأولى ومؤلفوها ٨٩ .  
 (٥) ياقوت : معجم الأدباء ٦٠ : ٣٩٩ . (٦) الطبري : التاريخ ١ : ٢٣٦ وما بعدها .  
 (٧) هوروفتس : كتب المغازي الأولى ومؤلفوها ٩١ .



لو أثبت له غير ذلك . وكل ما في الأمر أن فن الكتابة التاريخية كان اعتاد إدخال الشعر للتحلية منذ الجاهلية . كما أنه اعتذر عن نفسه بأنه ليس عالما بالشعر وأنه يدون ما يُحتمل إليه <sup>(١)</sup>

وكان ابن إسحاق غاية في النزاهة في تاريخه ، يدون آراء المذاهب المتعادية بكل أمانة وبدون تمييز ، حتى لقد روى أشعار المشركين في هجاء الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه <sup>(٢)</sup> ، وحتى اضطر ابن هشام أن يلطف من حدة بعض عبارات هذه الأشعار أو أن يحذفها <sup>(٣)</sup> .

ويمتاز ابن إسحاق بأنه لم يكن أول من عرض فترات حياة الرسول باتساق في كتابه فحسب ، بل وسع أفق هذه السيرة ، فجعلها تاريخا للرسالة الإلهية عامة ، فأدخل فيها تاريخ الأنبياء المتقدمين . ويتحلى كذلك بتلك الخصيصى التى تحلى بها أستاذة الزهرى من قبل ، وأعنى بها العناية بربط الأحاديث بموجز يربط بينها ويحوى ما تشتمل من أخبار ، والعناية بتأليف خبر عام موحد من الروايات المختلفة . وهو يسطينا فى بعض الأحيان تعليقات على الحوادث برأيه . ويظهر ابن إسحاق فى سيرته كاتباً ساحراً ، يعرف كيف يجمع مادته بطريقة تجذب اقتباه القارئ على الدوام ، ويصور لنا الشخصيات التى يصفها بحيث تبرز أمامنا كأننا نراها رأى العين . ومهما اختلفت وجهات النظر فى سيرته ، فإنها تقف فوق مستوى سام جدا ، بل تزداد قيمتها حين نعرف أنها من أقدم السكتب العربية الثرية التى وصلت إلينا .

(١) ابن سلام : طبقات الشعراء ٤ .

(٢) انظر شعر ابن الزهرى فى بدر وأحد فى السيرة .

(٣) ابن هشام : السيرة ٣ : ١١ ، ١٩ ، ٢٠ ، ٣٣ وغيرها .



ويبدو أن ابن إسحاق لم يكتف بتاريخه الجاهلي والنبوي ، بل أراد أن يكمل التاريخ الإسلامي أيضا ، فألف « كتاب الخلفاء »<sup>(١)</sup> . ولكن هذا الكتاب فقد ، ولم يصل إلينا منه غير فقرات عند الطبري ، تدون حوادث وقعت في عهد الخلفاء الراشدين ، وعثمان خاصة ، بل بعض حوادث العهد الأموي أيضا<sup>(٢)</sup> . ومع ذلك ليست هذه الفقرات كافية لأن تعطينا صورة واضحة تحكم بها على الكتاب .

وهذه فقرة من مغازيه في غزوة مؤتة<sup>(٣)</sup> : « بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم بعثة إلى مؤتة في جمادى الأولى سنة ثمان ، واستعمل عليهم زيد بن حارثة وقال : « إن أصيب زيد فجعفر بن أبي طالب على الناس ، فإن أصيب جعفر فعبد الله بن رَوَاحَة على الناس » .

« فتجهز الناس ثم تهيئوا للخروج ، وهم ثلاثة آلاف . فلما حضر خروجهم ودع الناس أمراء رسول الله صلى الله عليه وسلم وسلموا عليهم . فلما ودع عبد الله بن رَوَاحَة مع من ودع من أمراء رسول الله صلى الله عليه وسلم بكى ، فقالوا : « ما يبكيك يا بن رَوَاحَة ؟ فقال : « أما والله ما بي حب الدنيا ولا صبا بكم . ولكني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ آية من كتاب الله عز وجل ، يذكر فيها النار « وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتما مقضيا » فلست أدري كيف لي بالصدر

(١) ابن النديم : الفهرست ٩٢ وياقوت : معجم الأدباء ٦ : ٤٠١ .

(٢) الطبري : التاريخ ١ : ١٨٢٣ وما بعدها . والبلاذري : فتوح البلدان

٢٧٨ ، ٣١٢ ، ٣٢٧ ، وغيرها .

(٣) ابن هشام : السيرة ٤ : ١٥ .



بعد الورود . فقال المسلمون : « صحبكم الله ، ودفع عنكم ، وردكم إلينا صالحين » .  
فقال ابن رواحة :

|                                   |                                          |
|-----------------------------------|------------------------------------------|
| لكنني أسألُ الرحمنَ مغفرةً        | وضربةً ذاتِ فرغٍ تَقْذِفُ الزَّبدَا      |
| أو طعنةً بيدي حَرَّانَ مُجْهِزَةٍ | بجربةٍ تَنْفُذُ الأحشاءَ وَالسَّكْبَا    |
| حتى يُقَالَ إذا مرُّوا على جدِّتي | أُرْسِدَهُ اللهُ من غَارٍ وَقَدْ رَشِدَا |



## الفصل الثالث

### مظاهر الكتابة التاريخية

رأينا أن الكتابة التاريخية العربية نشأت من تيارين مختلفين :

(١) تيار قديم يتألف من القصص الخيالية والأساطير الشعبية المأثورة عن قدماء العرب، التي كان يرويها القصاص المتنقلون عن العرب الشماليين وأنسابهم وأيامهم ، وعن ملوك العرب الجنوبيين وفتوحاتهم . وهي قصص لحنها وسداها الخيال المبالغ ، تسكثر بها الأشعار ، التي كانت في بعض الأحيان ، وخاصة في الأيام ، المحور الذي تدور عليه القصة النثرية ، حتى إنه عندما نسيت تلك الأشعار ، اندثرت تلك القصص ، فاضطر القصاص إلى استحداث أشعار جديدة وإحاطتها بقصص مبتكرة عن هذه الأيام . ولا تعتمد هذه القصص على توقيت تاريخي لحواشيها ، بل تتناول الأحداث الهامة ، والحروب خاصة ، دون ربط بينها ، ودون أن ننظم البحث في المجرى التاريخي العام . ويتمثل هذا التيار الخيالي في العهد الإسلامي في عبيد بن شريفة ووهب بن منبه .

(٢) والتيار الثاني جديد استحدثه الإسلام ، وهو تيار السيرة ، الذي يتكون من أخبار علمية دقيقة مضبوطة ، متفرعة من علم الحديث ، ولذلك نالها ما ناله من نقد وتمحيص . وكانت هذه السيرة تتألف من القصص الصحيحة والخيالية التي أحاطت بشخص الرسول بسبب إجلال المسلمين له . وأخذ المؤرخون يجمعون هذه القصص ويروونها ، ويربطون بينها ، مستعينين بالآيات القرآنية .

وقد لعب التيار الأول ، وخاصة فرع الأيام منه ، دورا في هذا التيار ، وخاصة



في الفترة المدنية من حياة الرسول ، التي تمتلئ بالغزوات . ويظهر هذا الدور في طريقة تناولهم لهذه الغزوات ، فإنها تشبه طريقة تناول القصاص القدماء لأيام الجاهليين بل أهل الرسول صلى الله عليه وسلم كان يمثل في السيرة دور البطل في قصص الأيام الجاهلية . ونذكر إلى جانب هذا كله آثارا يهودية ومسيحية ، بل آثارا فارسية ضئيلة ، وجدت أيضا في هذه السير . وتظهر هذه الآثار جميعا عند وهب بن منبه الذي تعتبر كتابته روايات تاريخية لا كتب تاريخية . ولكن تيار السيرة كان له صبغة علمية دقيقة في المدينة أكثر منها في أي موطن آخر ، لارتباط المؤرخين فيها بالأحاديث الصحيحة أكثر من المؤرخين الآخرين ، ويظهر هذا التيار العلمي الدقيق عند أبان وعروة .

وهكذا نرى أن الكتابة التاريخية نشأت نشأة عربية خالصة ، لا يد فيها للفرس أو اليونان فهذه الكتابة بجميع صورها استمرار لما كان يوجد في الجاهلية أو تفرع لعلم الحديث العربي الخالص . وكان أوائل المؤرخين عربا ، سواء كانوا من الجنوب مثل عبيد ووهب ، أو من الشمال كأبان وعروة . ولكن هذه الحركة العربية مالبثت أن تأثرت بمؤثرات خارجية من أهل الكتاب والفرس ، بل صار جميع المؤرخين من الموالي في أواخر القرن الثاني من الهجرة . وإذن فالتاريخ الإسلامي يخالف كثيرا من العلوم الإسلامية الأخرى في نشأته العربية الخالصة ، ولكن لا يلبث أن يقع في أيدي الموالي مثل جميع العلوم الإسلامية الأخرى .

وأخذت هذه التيارات التاريخية المختلفة في التطور ، فوجد التاريخ القبل الجاهلي أو الأيام والأنساب يعني بها في العراق خاصة ، ويدخلها علماء اللغة في نطاق أبحاثهم ، إذ أنها تعينهم على فهم الأشعار التي يريدون جمعها وشرحها . ويتمثل لنا جهد اللغويين في هذه الناحية في نقائض أبي عبيدة المتوفى عام ٢٠٩ هـ



التي يروى فيها أخبار الأيام ، ويطيل في ذلك . أما العناية بالأنساب فتتمثل في محمد ابن السائب الكلبي المتوفى عام ١٤٦ هـ ، وغيره من النسابين .

ونجد القصص الخرافية الشعبية تستمر في الوجود ، فيظهر عبيد بن شربة الذي يعنى بقرىخ القبائل البائدة من العرب ، وودب بن منبه الذي يعنى بتاريخ اليمن وأهل الكتاب ، ويسير على النمط الجاهلي المأثور في القصص الشعبية الخرافية المغرقة في الخيال .

وأما تاريخ السير والمغازي المولود في المدينة ، والمفزع من علم الحديث فقد تأثر منذ بادى الأمر بذلك العلم ، فظهر الإسناد عند أول كاتبين فيه ، وهما أبان وعروة ، وإن لم يصير ضربة لازم بل كانا يتجاهلانه كثيراً . وأخذت السير والمغازي تتطور سريعاً ، فنجد الزهرى يخطو بالتاريخ خطوة بارعة إلى الأمام ، إذ يحاول الربط بين الأحاديث ، بل يحاول تأليف خبر واحد من الأحاديث المختلفة بعد إدماجها ، كما يحاول ألا يحمل من التاريخ وقفاً على فئة معينة من الناس ، وإنما ينشره للجعمه وركله . هذا إلى جانب عنايته بالأنساب ، وخاصة أنساب قومه . ويشرع مؤرخو المدينة في الالتفات إلى ميادين تاريخية أخرى على يد عروة وموسى بن عقبة ، إذ يمدان البحث فيشمل تاريخ الخلفاء الراشدين ، ثم الأمويين وكان ذلك الامتداد من تأثير السيرة أيضاً .

ويتوج هذا التطور بمحمد بن إسحاق المؤرخ الحقيقي ، الذي يمثل نهاية تطور السيرة ذات النموذج الديني عند المحدثين ، وذات النموذج الملحمي عند القصاص الشعبيين ، والذي يمد بحثه إلى آفاق بعيدة لم يرها المدنيون من قبل ، وأعنى بها تاريخ الجاهلية ، وتاريخ النبوات قبل محمد عليه الصلاة والسلام ، وتاريخ الخلفاء بعد محمد . فمحمد بن إسحاق هو المؤرخ الذي تتمثل فيه كل التيارات التاريخية الموجودة في عصره .



وتمازاً الحركة التاريخية العربية بعدة ظواهر ، نحاول أن نسجل بعضها هنا غير ما ناقشناه من قبل . وأول هذه الظواهر أن المؤرخين لم يكونوا موظفين حكوميين ، وإنما كانوا أناساً عُثموا بالتاريخ لجرد الرغبة الشخصية ، وحباً في ذلك العلم . ولذلك نجدهم يؤلفون ما يحلوهم من كتب ، وعما يحلوهم من حوادث ، دون أن تصدر إليهم الأوامر بتناول أمر من الأمور ، وترك آخر ، إلا في أحوال نادرة ، كان يلتمس الحسكام فيها من المؤرخ معالجة بعض الأمور التي تلذ لهم . وضمن لهم ذلك حرية الأداء ، وصدق التناول ، والنزاهة في معالجة الأحداث ، وخاصة أن أكثر هؤلاء المؤرخين كانوا رجال فقه وحديث .

وهاك مثالا يبين مقدار استقلال هؤلاء المؤرخين ، وشجاعتهم في الثبات على آرائهم ، وعلى ما يعتقدهونه صدقا . روى الشافعي عن عمه قال <sup>(١)</sup> : « دخل سليمان بن يسار على هشام [ بن عبد الملك ] فقال : « من الذي تولى كبره منهم ؟ » [ يشير إلى الآية في حديث الإفك ] قال : « عبد الله بن أبي بن سؤل » . فقال : « كذبت ، هو على . يا بن شهاب ، من هو ؟ » قال : « عبد الله بن أبي » . فقال : « كذبت ، هو على » . قال : « أنا أكذب ، لا أبالك ، فوالله لو ناداني مناد من السماء : إن الله أحل الكذب ، ما كذبت . حدثني سعيد بن المسيب ، وعروة ، وعبيد الله ، وعلقمة بن وقاص ، عن عائشة : « إن الذي تولى كبره عبد الله بن أبي » . قال : فلم يزل القوم يعرون به ، فقال له هشام : « ارحل ، فوالله ما ينبغي لنا أن نحمل عن مثلك » . قال : « ولم » ، أنا اغتصبتيك على نفسي وأنت اغتصبتي ؟ فحل عني » . قال : « لا ، ولكنك استدنت ألف ألف » . فقال : « قد علمت ، وأبوك قبلك ، أني ما استدنت هذا المال عليك ولا على أيك . . . »

---

(١) الذهبي : تراجم رجال روى محمد بن إسحاق عنهم ٧٢ .



وكان هؤلاء المؤرخون علماء يدرسون تلاميذ من الشعب ، ويؤلفون كتبهم  
لهؤلاء القلاميذ ، وللشعب أيضاً ، غير معتمدين على الخلفاء في الغالب ، إلا عند الشدائد .  
والظاهرة الأخرى هي صحة الأخبار المروية عن الحوادث الإسلامية خاصة ،  
وقد أنتم هذه الصحة من الطريقة التي عالجوا بها هذه الأخبار . فهم لم يأخذوا  
إلا عن المدول الثقات ، واتبعوا في ذلك ما اتبعه علماء الحديث في تقديمهم ، فسلمت  
لهم مجموعة كبيرة من الحوادث . وأنت هذه الصحة أيضاً من ابتكارهم التوثيق  
السكامل ، حتى كانوا يوقتون الحوادث بالأيام والشهور والأعوام . وذلك مما  
يدعو إلى التدقيق في الأخبار وصحتها . حقا ، أن هذا التوثيق بدأ ضعيفا مضطربا  
ولكن الروايات المختلفة من المصادر المتباينة جعلتهم يطمثون إلى بعض التواريخ  
ويستطيعون أن يتحققوا من صحتها .

ولكن هذه الروايات الكثيرة التي كانت تعتمد غالبا على الذاكرة سببت  
بعض وجوه النقص والقوضى . فإن النسيان اعتري بعض هؤلاء المؤرخين ،  
فجعل بعض رواياتهم يضطرب ، ويسوده الغرض . ولكن على الرغم من هذا  
يجب أن نقول إن تلك الظاهرة كانت نادرة ، وكان المؤرخون يكتشفونها سريعا  
بفضل الروايات الأخرى الآتية عن مصادر مخالفة للأولى .

وأدت العناية بالروايات المختلفة والأسانيد المتنوعة إلى التكرار إلى درجة  
الإملال ، فالحدث الواحد يوصف عدة مرات ، دون أية زيادة أو تفصيل ، على  
حسب الأسانيد المختلفة التي روتها . ولكن هذه الظاهرة — فيما يبدو — كانت  
سائدة في الكتب الكبيرة وحدها . أما الرسائل الصغيرة فقد نجت من هذه  
الظاهرة ، كما يبدو من سيرة سليمان بن طرخان .

وجعلهم تأثرهم بالأحاديث يصبون كل تقديم على الأسانيد دون النصوص ،



مما يسر الانتحال والاختراع . فإن الإسناد يمكن اختراعه بسهولة . وهكذا يمكن القول بدخول بعض الموضوعات في الميدان التاريخي ، وإن كانت هذه الظاهرة يجب النظر إليها على أنها ضعيفة نادرة بسبب تقدم الشديد للرجال . ولكن لم يكن هذا النقد ذا فائدة كبيرة في ميدان التاريخ القبلي والقصصى والإسرائيليات . وآخر الأمر نجد التاريخ الإسلامي بجميع صورته يسير على النمط المعروف عن الرواة الجاهليين ، من سوق القصة التاريخية ، وتقطيعها بالأشعار التي قد تشرح شيئاً من الحوادث أو تعلق عليها ، أو لاتصل بها إلا اتصالاً طفيفاً ، وكذلك يعقون بسرد الرسائل والوثائق منذ أوائل عهدهم بالتاريخ .

وإذا ما أحينا أن نتكلم عن أسلوب الكتب عامة ، وجدناه عربياً سهلاً بسيطاً مبيناً ، ونجد تصوير الحوادث فيه وضوح وقوة وحياة ، حتى ليشعر المرء بالحوادث تقع أمامه ، لولا تقطع القصة بالأشعار والتكرار .

ونختم كلامنا عن الكتابة التاريخية بذكر المدارس التاريخية ، التي ربما شعر بها القارئ من قبل . فإننا عند تدقيق النظر في تطور الحركة التاريخية نجد أن هناك ثلاث مدارس واضحة كل الوضوح .

المدرسة الأولى في الظهور هي المدرسة اليمنية التي يمثلها عبيد بن شربة ، ووهب بن منبه . وهي المدرسة التي تظهر فيها الكتابة التاريخية العربية للمرة الأولى . وهي تعنى بأخبار أهل الكتاب ، وتاريخ اليمن ، وتسرّد التاريخ قصصاً خيالية وأساطير شعبية . فهي تمثل استمرار التيار الجاهلي أصدق تمثيل ، ولذلك نستطيع أن نطلق على مؤرخيها اسم القصص الشعبيين ، أو الأخباريين ، وعلى كتاباتهم اسم الروايات التاريخية .

والمدرسة الثانية مدرسة المدينة ، وهي تتألف من الفقهاء والمحدثين من أمثال



أبان وعروة والزهرى وهى مدرسة التاريخ العلمى الدقيق الذى يعنى بالسيرة والمغازى  
ويسير على خطا علم الحديث ، ويعنى بالأسانيد . وتتطور مادة هذه المدرسة ،  
فتتسع وتشمل تاريخ الخلفاء الراشدين والأمويين .

وأما المدرسة الثالثة والأخير فى الوجود فمدرسة العراق ، يمثلها عوانة  
وأبو مخنف والكلبي وغيرهم . وهذه المدرسة واسعة الصدر تعنى بكل تيارات التاريخ  
الجاهلى والإسلامى . وتعطى عناية خاصة لتاريخ الخلفاء ، وكان من أثر عنايتهم تلك  
أن احتل العراق المركز الأول فى هذه التواريخ . لذلك نجد تاريخ العراق وأحداثه  
مفصلة مطولة لدينا ، بينما الأمصار الأخرى ، لاتنال غير الإشارات .

ثم نجد هذه المدارس الثلاث تلتقى فتخرج لنا محمد بن إسحاق . فيتناول هذا  
المؤرخ تاريخ اليمن وأهل الكتاب مثل اليمنيين ، ويتناول السيرة مثل المدنيين ،  
وتاريخ الخلفاء مثل العراقيين . بل نجد عنده خصائص المدارس الثلاث ، من قصص  
شعبية ، وأسانيد ، وأشعار لتحلية القصص ، ومن أخبار أهل الكتاب ، وباختصار  
جميع ما فى المدارس يوجد عند محمد بن إسحاق .



## خاتمة

هذه هي الكتابة العربية في نشأتها ، قد عرضتها في مراحلها المختلفة عرضاً شاملاً ، مدققاً ، يحاول أن ينفذ إلى الأعماق ، ويستكشف في الظلمات ، ما يستهدي به إلى السبيل السوي .

وقد رأينا العصر الجاهلي لا يعرف من الكتابة غير بعض المعاهدات والأحلاف وبعض العقود التجارية ، وما إلى ذلك مما يمكن تسميته بالكتابات السياسية والاقتصادية . أما الكتابة الفنية فلم يعرفها ذلك العصر ، ولم تصل إلينا منه أية شواهد كتابية فنية .

وعندما جاء الإسلام انتشرت الكتابة انتشاراً كبيراً ، وظهرت الرسائل المتبادلة بين النبي والرؤساء ، وبين الخلفاء والولاة ، بل ظهرت أنواع كثيرة من الكتابات السياسية ، والكتابات الدينية ، والكتابات الإخوانية . ولكنها كانت كتابة صريحة بسيطة لا ترمي إلا إلى مجرد الأفهام ، دون محاولة للتزين أو التجميل ، وإن كانت في أواخر الصدر الأول من الإسلام ظهرت عليها بعض المظاهر التي تنبئ عما ينتظرها في العصر القادم من عمل وفن .

ومنذ أوائل العصر الأموي ظهر كتاب محترفون ، وظهر ديوان الرسائل . فعرفت الرسائل الفن ، وتنافس الكتاب في إظهار البراعة والفصاحة ، ليكسبوا رضى الخلفاء وعطفهم . فظهرت أمامنا عدة ظواهر تدل على تطور الكتابة وترقيتها فهذا كاتب يطيل ، وذلك يكثر من الغريب ، وثالث يستعمل السجع ، ورابع ينتقى ألفاظه ويهذب صيغتها ، إلى غير ذلك .

وأخيراً تظهر حلقة من الكتاب في بلاط هشام بن عبد الملك يتزعمهم سالم



مولاه ، فتأخذ من الثقافات اليونانية والفارسية ما تحمل به أفكارها وأساليبها . وتمثل هذه المدرسة بأجلى مظاهرها ، وأوضح خواصها ، في عبد الحميد الكاتب ، الذى كان يمثل أيضاً تطور الخصائص الكتابية منذ البداية إلى النهاية . فمبد الحميد إذن العلم البارز فى الصدر الأول من تاريخ الكتابة العربية الفنية ، وهو الذى اطلع على كتابات من سبقه ، وتشبع بها ، وهضمها ، وأخرجها خصائص يتحلى بها وكان لم يتحل بها أحد قبله . ولكن عبد الحميد — كما رأينا — لم يكن متبعاً لحسب ، بل كان مبتدعاً أيضاً ، مبتدعاً فى أسلوبه الذى لم يرتفع إليه أحد قبله ، ومبتدعاً فى أفكاره التى استخلصها من المصادر الثقافية المختلفة فى الشرق العربى فى ذلك العصر . فسكان العلم البارز من بين سابقيه ، والنار الهادى للاحقيه ، ينظر إليه كل من أراد الجمال والفصاحة فى كتابته .

وصفوة القول أن كتابة الرسائل بجميع أنواعها نشأت فى عصر مبكر ، بدافع من الظروف والعوامل التى كانت تحرك الجماعة العربية فى عصرها ذلك . فهى ثمرة الثورة التى قام بها الإسلام ، وأخضع العرب لها ، وأمدهم بأسسها التى يقيمون عليها حياتهم الجديدة . وإذن فكتابة الرسائل الفنية العربية كانت ظاهرة حتمية لم يتجنبها العرب ، وما كانوا مستطيعين أن يتجنبوها ، بعد أن دفعهم القرآن تلك الدفعة ، التى ذهبت بنظمهم الجاهلية السياسية أدراج الرياح ، وأقامت نظاماً أخرى سامية الذرى ، شاحخة البنيان . فالعرب ما كانوا يستطيعون بعد انتشار الإسلام أن يرجعوا إلى جزيئتهم ، وأن يرجعوا إلى نظمهم القبلية فى الحياة الاجتماعية والسياسية . وكذلك ما كانوا قادرين على الرجوع إلى الشعر والخطابة وحدهما فى حياتهم الأدبية . وإذن نعود إلى القول بأن الكتابة الفنية العربية وليدة الثورة التى قام بها محمد عليه الصلاة والسلام ، فغيرت من تاريخ العرب كل تغيير ، وحولت



أنظار العالم القرون الطوال إلى تلك الأصقاع الإسلامية ، التي سترى من الحضارة والرقى ما لم يره كثير من شعوب العالم المتمدين .

ونحن نرفض القول بأجنبية كتابة الرسائل الفنية كل رفض ، فهي ليست مما أدخله الفرس أو اليونان على العرب ، وليست مما أدخله غير الفرس واليونان ، وإنما ظاهرة عربية خالصة ، لا يد في نشأتها لأحد غير العرب الذين فتح الإسلام أبصارهم وأفهامهم ، وأمدهم بالروح الذي سيبليغ بهم إلى ابتكار ما لم يعرفوا ، وإلى الاتصال بما لم يتصلوا به من قبل ، وإلى الشغف الشديد ، والحماس المفرط ، بالعلم والمعرفة . ولكن رفضنا هذا لا يشتط إلى درجة رفض كل تأثير أجنبي ، بل نحن نقبل هذا التأثير ، ونقول بوجوده ، وربما بقوته . فهو لاء الموالى سرعان ما ينافسون العرب في هذا الميدان ، منافستهم لهم في الميادين الأخرى ، وسرعان ما يزاحمونهم على مورد الكتابة الفنية ، ولقد اغتصبوه أخيراً . فكان عبد الحميد وأستاذه بشرى الموالى بما سيكون لهم من مكانة في هذا الميدان في مستقبل الزمان .

وإذا كنا نرفض القول بأجنبية كتابة الرسائل الفنية ، فإننا أشد رفضاً للقول بأجنبية الكتابة التاريخية العربية . فقد ظهرت هذه الكتابة من العناية بالأحاديث الشريفة وجمعها . فعمل التاريخ العربي الإسلامي وليد علم الحديث الإسلامي العربي المحض .

أما ما كان في الجاهلية فأقاصيص خرافية وأساطير شعبية عن الأيام والملوك العرب والفرس ، وربما الرومان . أما نشأة كتابة التاريخ المنظمة الدقيقة فكانت على يد العرب من المسلمين بدافع من العناية بجمع الأحاديث . وكانت هذه الكتابة سريعة التطور ، من مجرد جمع لأحاديث دون رابط بينها ، إلى تدوين لتاريخ الأنبياء ، وتاريخ العرب الجاهليين والإسلاميين على يد ابن إسحاق ، في مدى قرن من الزمان تقريباً .



وقد رأينا عند العرب ثلاث مدارس تاريخية ، كلها عربى النشأة ، وكلها يستمد  
تقاليده مما كان شائعاً عند العرب فى الجاهلية ، ومما استحدثه الإسلام . وقد نقول  
إن الموالى زاحموا العرب فى هذه الكتابة أيضا ، ولكننا نقول ذلك على أنهم  
تناولوا هذه الكتابة بعد أن أعطاها العرب الصورة التى ستبقى عليها فى يد هؤلاء  
الموالى ، ولن يدخلوا عليها غير قليل من التعديل ، وإن أدخلوا فى الأخبار نفسها  
كثيرا مما جلبوه من بلادهم وثقاتهم .

وإذن نستطيع أن نصرح ، ونحن على أهبة وضع القلم ، بأن الكتابة الفنية  
العربية ، بجميع صورها من رسائل سياسية ، ودينية ، وإخوانية ، ومن كتابة تاريخية ،  
عربية النشأة ، لم تأت عنهم عن فرس أو يونان أو هنود ، وإنما نشأت على يدهم  
وفى بلادهم ، وبدافع من حاجتهم إليها ، ووحى مما خلقه الإسلام من تيارات  
سياسية واقتصادية واجتماعية وثقافية تسيطر على الجماعة العربية . ولكنهما كادت  
تسير قليلا حتى أمدتها الروافد من كل جانب ، روافد هندية وفارسية من الشرق ،  
وروافد هلمينية من الشمال والغرب ، والشرق أيضا ، وروافد أخرى ضئيلة الأثر .  
وقد لا تظهر هذه الروافد فى عصرنا هذا ، ولكن ستظهر وتوثق ثمارها فى العصور  
القادمة .



## المراجع

- ١ — أوليري ، بلاد العرب قبل الإسلام ، طبع ١٩٢٧ .  
Oleary: Arabia before Muhammad.
- ٢ — الدكتور أحمد أمين ، فجر الإسلام ، ١٩٢٨ .
- ٣ — البلاذري ، فتوح البلدان ، تحقيق دي غويه .
- ٤ — ابن هشام ، السيرة النبوية ، تحقيق الأستاذ مصطفى السقا بالاشتراك .
- ٥ — الأستاذ خليل يحيى ناصي ، أصل الخط العربي وتاريخ تطوره إلى ما قبل الإسلام ، طبع ١٩٣٥ .
- ٦ — الجهشيارى ، الوزراء والكتّاب ، تحقيق الأستاذ مصطفى السقا بالاشتراك .
- ٧ — السيد عبد الحى بن عبد الكبير الحسنى الكتّانى الإدريسي الفاسى ،  
التراتب الإدارى والعلاقات والصناعات والمتاجر والحالة العلمية التى كانت  
على عهد تأسيس المدنية الإسلامية فى المدينة المنورة ، طبع رباط .
- ٨ — الدكتور زكى مبارك ، الفتر الفنى فى القرن الرابع الهجرى ، طبع دار الكتب المصرية .
- ٩ — مرسىيه ، المجلة الإفريقية ، العددان ٣٣٠ ، ٣٣١ ، عام ١٩٢٧ .  
Marcais: Revue Africaine, Nos 330, 331 (1er 2 me Trimestre, 1927)
- ١٠ — الدكتور طه حسين ، من حديث الشعر والنثر ، الطبعة الأولى .
- ١١ — الطبرى ، التاريخ ، طبع أوربا .



- ١٢ — ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، طبع أوربا .  
١٣ — الأزرق ، أخبار مكة ، المطبعة المأجدية .  
١٤ — ابن عبد البر ، الاستيعاب في معرفة الأصحاب ، طبع الهند .  
١٥ — الدكتور شوقي ضيف ، الفن ومذاهبه في الفكر العربي ، عام ١٩٤٦ .  
١٦ — ابن النديم ، الفهرست ، طبع أوربا .  
١٧ — ابن سعد ، الطبقات الكبير ، طبع أوربا .  
١٨ — هوروفتس ، المغازي الأولى ومؤلفوها ، ترجمة المؤلف ، طبع الحلبي .  
١٩ — الحيد رآبادي ، مجموعة الوثائق السياسية في عهد النبوة ، طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر .  
٢٠ — اشبيرير : كتب محمد إلى القبائل العربية . Dr. Sperber: Die Schriben. Muhammads an die Stämme Arabiens-Mitteilungen des Seminars für Sprachen.  
٢١ — أنيس المقدسي ، تطور الأساليب النثرية ، طبع بيروت .  
٢٢ — القلقشندي ، صبح الأعشى في صناعة الإنشا ، طبع دار الكتب المصرية .  
٢٣ — أحمد صفوت ، جهرة رسائل العرب ، طبع الحلبي ١٩٣٧ .  
٢٤ — ابن قتيبة ، الإمامة والسياسة ، ١٩٠٤ .  
٢٥ — أبو نعيم الأصبهاني ، حلية الأولياء ، طبع الخانجي .  
٢٦ — رسالة الحسن البصري ، مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٥٢٢١ أدب .  
٢٧ — ياقوت ، معجم الأدياء ، تحقيق مرجليوث .  
٢٨ — المديفوري ، الأخبار الطوال ، طبع ليدن .  
٢٩ — ابن خلكان ، وفيات الأعيان .  
٣٠ — محمد كرد علي ، أمراء النيان ، ١٩٣٧ .  
٣١ — دائرة المعارف الإسلامية ، مواد «تاريخ» و«سيرة» ومواد أسماء المؤرخين .



- ٣٢ — عبد الحميد العبادي ، علم التاريخ تأليف هرنشو ، طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر .
- ٣٣ — ابن حجر ، تهذيب التهذيب ، طبع الهند .
- ٣٤ — وهب بن منبه ، كتاب التيجان ، طبع الهند .
- ٣٥ — كرنسكو ، أقدم كتابين في الأدب الشعبي الإسلامي ، مجلة الثقافة الإسلامية ، ١٩٢٧ .
- ٣٦ — حاجي خليفة ، كشف الظنون ، طبع أوربا .
- ٣٧ — الذهبي ، تراجم رجال روى محمد بن إسحاق عنهم ، تحقيق فيشر .
- ٣٨ — البلاذري ، الأنساب ، تحقيق الورد .
- ٣٩ — سخاو ، القطعة البرلينية من مغازي موسى بن عقبة .
- ٤٠ — عبيد بن شريّة ، أخباره ، طبع الهند .
- ٤١ — ابن هشام ، السيرة النبوية ، تحقيق الأستاذ مصطفى السقا بالاشتراك .
- ٤٢ — سليمان بن طرخان ، السيرة الصحيحة ، تحقيق فون كريم .
- ٤٣ — مرجليوث ، محاضرات عن التاريخ العربي .
- ٤٤ — الخطيب البغدادي ، تاريخ بغداد ، طبع الخانجي .
- انتهى بحمده وتبارك وتعالى



## فهرس الأشخاص

- الأزرق ٢٢٥، ١٧  
 ابن إسحاق ( انظر محمداً )  
 أسد بن موسى ٢٠٣  
 إسرائيل ولفنسون ١٩٠، ١٨٠، ١٠  
 الإسكندر المقدوني ١٢١  
 إسماعيل بن إبراهيم ٢٢٥، ٢١٤  
 أشير بر ٣٤  
 ابن الأشعث ( انظر عبدالرحمن بن محمد )  
 الأشعث بن قيس ١٩٥  
 الاصطخرى ١٢٦  
 الأصفهاني أبو الفرج ٢٤، ٢٣، ٢١١، ٢١٥  
 الأصمعي ٧٣  
 الأعشى ٢٠٦  
 أعشى بن وائل ١٨٥  
 أكرم بن صيفي ٧٨، ٢٣  
 ألويس شربجر ٢١٤  
 امرئ القيس ٢٠٦، ١٨٥  
 أمية بن أبي الصلت ١٨٥، ١٢٦  
 أنس بن مالك ١٠١  
 أنيس المقدسي ٣٤  
 أوليري ١٧، ١٦  
 بابليون بن عبدشمس ٢٠٥  
 بارتهلي ٣٥  
 الباقلاني ٣١  
 البخاري ٣٢  
 البختری ١٨٨  
 بدیل بن ورقاء ٨٩، ٨٨  
 بربر بن كنعان ١٩٠  
 آدم ٢٢٤، ٢١٧، ٢٠٧، ٢٠٥، ٢٠٤، ١٨٢  
 آزر ١٨٨  
 أبان بن سعيد ٣٠  
 بان بن عثمان البجلي ١٩٤، ١٩٣  
 أبان بن عثمان بن عفان ٢٣٤، ٢٣٣، ١٩٣  
 ٢٣٨  
 أبان العطار ١٩٦  
 إبراهيم (عليه الصلاة والسلام) ٢١٧، ١٨٨  
 إبراهيم بن سعد ٢٢٤  
 إبرهة بن الصباح ١٧٣  
 أرويز ١٣٢، ٢٦  
 أبلیس ١٠٩  
 أبنی بن كعب ٤٤، ٣٠، ٢٩  
 ابن الأثير ٢٢٧، ١٧١، ٥٢، ٤٠، ١٧  
 أحمد أمين ٣٢، ١٨، ١٦، ١٢، ١١  
 أحمد صفوت ٥٤، ٤٩، ٤٢، ٣٧—٣٤، ٢٧  
 ٧٩، ٧٨، ٧٦، ٧٥، ٧٠، ٦٤، ٥٩، ٥٨  
 ٩٤، ٩٣، ٩٠، ٨٩، ٨٦، ٨٤، ٨٢، ٨١  
 ١١١، ١٠٧، ١٠٦، ١٠٤، ١٠٢—٩٩  
 ١٣٣، ١٢٧، ١٢٤، ١٢١، ١١٣  
 ١٥٨، ١٥٧، ١٥٤، ١٥٣، ١٤٩، ١٤٧  
 ١٦٥، ١٦٤، ١٦٣، ١٦١  
 الأحنف بن قيس ٧٢  
 الأحنس بن شهاب التغلبي ٢٤، ١٢  
 إدريس (عليه السلام) ١٨٢  
 أبو إدريس بن سنان ( انظر عبد المنعم )  
 ادوارد سخاو ٢١٤  
 أرسطو ١٦٥، ١٢٢، ١٢١



البرقي ١٨١، ١٨٢، ١٩٠  
البرهان الحلبي ٤٣  
بشر بن مروان ٩٦، ٩٠  
أبو بكر بن حزم ٩٩  
أبو بكر الصديق ٣٠، ٤٨، ٤٩، ٥٢، ٥٤،  
١٤٨، ١٧٧، ٢٠١، ٢٢٢، ٢٢٣، ٢٧٦  
البكري ١٠  
البكائي ٢٠٤، ٢٠٥، ٢٢٧  
البلاذري ١٩، ٢٣، ١٩٦، ٢١٥، ٢٢١،  
٢٣٠، ٢٣٢  
بلال ٢٠١  
بلقيس ١٨٧، ٢٠٧  
اليروني ١٧٠، ١٧١  
بيكر ٢٠٠، ٢١٩  
بيوري ٤  
تاريخ ١٨٨  
تسع أسعد بن ملكيكر ١٧٣، ١٨٤، ١٩٢  
ترفليان ٤  
التمالي ١٦٦  
جابر بن سعيد بن العاص ٣٠  
الجاحظ ٢٢، ١٤٦  
جب ١٧٠  
جبير بن حية ٦٧  
أبو جيرة بن الضحاك ٦٥٠، ٦٦٠  
جرير بن يزيد ٢٢٢  
جعفر بن برقان ١٠٣  
جعفر بن أبي طالب ٢٣٠  
جعفر بن محمد ١٩٤  
ابنا الجلندي ٤٢٠، ٣٥

الجهشياري ٢٣، ٢٩، ٣٠، ٣٨، ٤٣، ٤٥،  
٤٨، ٥٣، ٦٢، ٦٩، ١٢٦، ١٣٢، ١٦٤  
جهم بن الصلت ٤٥  
أبو حاتم السجستاني ١٩١  
حاجي خليفة ١٩٥، ٢٠٠، ٢٠٢، ٢٠٣،  
٢١٠  
الحارث بن حلزة ٢٢، ٢٤  
الحارث بن أبي شمر الغساني ١٧٩، ١٨٠  
أبو حبيسة مولى الزبير بن العوام ٢١٦  
الحجاج ٦٤، ٦٨، ٧١، ٧٣، ٧٥، ١٥٤  
ابن حجر ١٩٦، ٢١٤، ٢١٥، ٢٢٧  
ابن أبي الحديد ٥٧  
حنيفة بن اليمان ٢٩، ٤٤، ٤٥  
حسان بن ثابت ١٨٥  
حسن إبراهيم حسن ١٦، ٥٣، ٦٧  
الحسن البصري ٩٢، ٩٨، ١٠٠  
١٠٤ - ١٠٧، ١١٣، ١١٤، ١١٨  
الحسن بن عليل الغزي ٢٢١  
الحسن بن علي بن أبي طالب ١١٢، ١١٦،  
١١٨، ٢٢٢  
الحسين بن علي بن أبي طالب ٦٢، ٨٦، ٢٢٢  
ابن الحضرمي ١٩٧  
الحصين بن نمير ٤٢  
حطان بن عوف ٢٤  
أبو الحكم (انظر عوانة)  
حكيم بن حزام ٨٨، ٨٩  
حمير ٢٠٨  
حنظلة بن الربيع ٢٣، ٣٠، ٤٥، ٤٨، ٤٩  
الحيدرابادي ٣٣ - ٣٩، ٤٢، ٤٩، ٥٢  
خالد بن سعيد بن العاص ٤٤



- خالد بن عبد الله القسري ٩٣ ، ١٢١ ،  
 ١٢٢ ، ١٢٤ ، ٢١١  
 خالد بن الوليد ٤٩ ، ٥٠ ، ٨٨  
 خالد بن يزيد بن معاوية ١٧٧  
 خديجة بنت خويلد ١٩٥  
 أبو خزيمة بن ثابت ٣٠  
 ابن خلدون ١٩ ، ٢٦ ، ١٥٥  
 ابن خلكان ١٢٦ ، ١٦٥ ، ١٧١  
 خليل يحيى ناصي ٢٠ ، ٢٦  
 الخوارزمي ١٧٠  
 داود ( عليه الصلاة والسلام ) ١٠٩  
 أبو الدرداء ٨١ ، ٨٢ ، ٩٧ ، ٩٨ ،  
 ١٠١ ، ١٠٢  
 دغفل النسابة ١٧٨ ، ١٧٩  
 دنلوب ٣٥  
 الدينوري ٦٤ ، ٧٣ ، ١٧٣  
 الذهبي ٢١٢  
 الرسول ١١ ، ٢٠ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٦ ،  
 ٢٨ - ٤٩ ، ٥١ - ٥٣ ، ٥٩ - ٦١ ،  
 ٦٥ ، ٧٩ ، ٨٩ ، ٩٧ ، ١٠١ ،  
 ١٠٢ ، ١٠٤ ، ١٤٧ - ١٤٩ ، ١٧٧ ،  
 ١٨٠ ، ١٨٤ ، ١٩٢ - ١٩٥ ،  
 ١٩٧ - ٢٠١ ، ٢٠٧ ، ٢١٠ - ٢١٥ ،  
 ٢١٧ - ٢١٩ ، ٢٢٢ ، ٢٢٥ - ٢٢٧ ،  
 ٢٢٩ ، ٢٣٠ ، ٢٣٢ - ٢٣٤ ، ٢٧٠ ،  
 رشدين ٦٧
- روح بن زنباع ٦٨  
 ابن الزبيري ٢٢٩  
 الزبير بن العوام ٢٩ ، ٤٥ ، ٥٦ - ٥٨ ،  
 ١٩٨ ، ٢١٦  
 زرعة بن ذي ين ١٩٦  
 الزرقاني ٢٩  
 أبو الزعيرة ٦٧ ، ٦٨  
 الزمخشري ٣١  
 الزهري محمد بن مسلم بن شهاب ٢٢٧ ،  
 ٢٢٩ ، ٢٣٤ ، ٢٣٨  
 زهير بن أبي سلمى ١٥٩  
 زياد بن أبيه ٥٠ ، ٥١ ، ٥٣ ، ٧٢ ، ٦٦ ،  
 ٦٧ ، ١٧٨  
 زياد بن النضر ١٥٢  
 زيد بن ثابت ٢٦ ، ٢٩ ، ٣٠ ، ٤٤ ،  
 ٤٥ ، ٤٨  
 زيد بن حارثة ٢٣٠  
 سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب ١٠٢ ، ١٠٣ ،  
 سالم مولى أبي حذيفة ٣٠  
 سالم مولى هشام ١ ، ٦٩ ، ٩٦ ، ١٢٠ ،  
 ١٢١ ، ١٢٣ ، ١٢٥ ، ١٢٦ ، ٢٣٩  
 سام ١٨٤  
 سترابو ١٦  
 السخاوي محمد بن عبد الرحمن ٢١٢  
 سرجون الأشوري ١٥  
 سرجون بن منصور الرومي ٦٢ ، ٦٣ ، ٦٥



شمر يرعش ١٨٩  
شمس الدين محمد ( انظر السخاوى )  
شوفان ٢٠٣  
شوقى ضيف ١٢٢، ٦٧، ٢٣  
سحار العبدى ١٧٧  
الصولى ١٣٢، ١٩  
الضحاك بن قيس الشيبانى ١٣٣  
ضمضم بن عمرو ٢٠  
ظاهر بن الحسين ١٥٥، ١٥٦  
طاووس ١٠٥  
الطبرى ٢٠، ٣١، ٥٦، ٧٢، ٧٤، ٨٨، ١٢١  
١٢٢، ١٧١، ١٧٢، ١٩٣، ١٩٦  
٢١٠، ٢١٢، ٢١٣، ٢١٥ - ٢١٧  
٢١٩ - ٢٢٢، ٢٢٤ - ٢٢٨، ٢٣٠  
طرفة بن العبد ٢٣  
طسم بن لاوذن إرم ١٨٢، ١٨٤  
أبو الطفيل عامر بن وائلة الكناني ١٨٨  
طلحة بن عبيد الله ٢٩، ٥٦ - ٥٨، ٢١٦  
طه حسين ٣١، ٤٥، ١٦٣  
طهفة النهدي ٤٠  
ابن طيفور ١٣٣  
عائشة ٥٦ - ٥٨، ٢١٣، ٢٣٥  
عابر ١٨٨  
عاد ٢٢٦  
أبو العاص بن وائل ٢٩  
عاصم بن عمر بن قتادة ٢١٠، ٢١١، ٢٢٧  
عامر بن جرهم الأنصارى ١٨٩  
عامر بن فهيرة ٢٩، ٤٥

سعاد ( فى شعر كعب ) ١٩٤  
ابن سعد ( انظر محمدا )  
سعد بن أبي وقاص ٢٩، ٥٢، ١٤٩  
سعيد بن العاص ٥٤  
سعيد بن المسيب ٢٣٥  
أبو سعيد مولى أبي أسيد الأنصارى ٢٢٠  
أبوسفيان بن حرب ٢٠، ١٩٦ - ١٩٨  
ابن سلام ٢٢٩  
سلمان الفارسي ٨١، ٨٢، ٩٧، ٩٨، ١٠١  
١٠٤، ١٠٢  
سلمة بن الفضل ٢٢٧  
سليمان الحكيم ٣٨، ٢٠٧  
سليمان بن سعد الحنفي ٦٧  
سليمان بن صرد ٧١  
سليمان بن طرخان أبو المعتمر ٢١٦ - ٢٢٠  
سليمان بن يسار ٢٣٥  
سهيل بن حسان ١٢٤  
السيوطى ٣٠  
الشافعى ٢٣٥  
الشبرا ملسى ٤٣  
ذو شداد ( انظر الهمال بن عاد )  
شداد بن عاد ٢٠٩  
شرحبيل بن حسنة ٣٣، ٤٥  
شرحبيل بن سعد ٢١٥  
شرحبيل بن السمط الكندي ٥٧  
شرحبيل بن هانيء ١٥٢  
الشريف الرضى ٥٧  
الشعبى ٨٩، ٢٢٢



عبد الله بن سالم ١٤٤  
 عبد الله بن سعد بن أبي سرح ٣٠  
 عبد الله بن طاهر بن الحسين ١٥٥  
 عبد الله بن عامر بن كرز ٥٣  
 عبد الله بن عباس ١١٨، ١١٦، ١١٣، ٥٥، ٥٣  
 ٢٢٦، ٢١٥، ١٨٧، ١٨٠، ١٧٨  
 عبد الله بن عمر بن الخطاب ٨٣، ٨٠  
 عبد الله بن عمرو بن العاص ٣٢  
 عبد الله بن أبي فروة ٦٧  
 عبد الله بن محمد بن عمارة الأنصاري ٥  
 عبد الله بن مروان بن محمد ١٣٣  
 عبد الله بن مسعود ٢٢٢، ٣٠  
 عبد الله بن المعتز ٢٢١  
 عبد الملك بن مروان ٦٤-٦٨، ٨٨، ٧٠  
 ١٨٢، ١٥٤، ١١٣، ١٠١، ٨٦، ٨٩  
 ١٩٤-١٩٦، ٢١٦  
 عبد مناف ٢١  
 عبد المنعم بن سنان ٢٠٢، ٢٠٣  
 عبيد بن الأبرص ١٨٥  
 عبيد بن شريعة ١٨١، ١٧٨-١٩٢، ٢٠٤  
 ٢٣٧، ٢٣٤، ٢٣٢، ٢٢٥، ٢٠٩، ٢٠٦  
 أبو عبيدة ٢٣٣  
 عبيد الله ٢٣٥  
 عبيد الله بن أوس ٦٨، ٦٦  
 عبيد الله بن زياد ٧٤، ٧١، ٦٢  
 عتبة بن أبي سفیان ٨٤  
 عتبة بن غزوان ١٤٩  
 عثمان بن عفان ٥٤، ٤٨، ٢٩-٥٤، ٥٦، ٥٨  
 ٦٠، ٦٦، ٧١، ١٥٢، ٢١٠، ٢١٦  
 ٢٣٠، ٢٢٠، ٢١٧

أبو عباد الهمداني ٢٠٤  
 العبادي ٤  
 العباس بن عبادة بن نضلة الأنصاري ٢١١  
 العباس بن عبد المطلب ٢١٨، ١٩٤، ٢٢٤  
 العباس بن مرداس ١٨٥  
 ابن عبد البر ٤٣، ٢٩، ٢٦  
 عبد الحميد بن يحيى الكاتب ١، ٢، ٦٩  
 ٧٤، ٧٧، ٨٦، ٩٣، ٩٦، ١٢٠، ١٢٦  
 ١٢٨، ١٣١، ١٣٥، ١٣٧، ١٤٢، ١٤٥  
 ١٤٧، ١٥١، ١٥٢، ١٦١، ١٦٣، ١٦٦  
 ١٦٧، ٢٤٠، ٢٤١  
 عبد الحى الكتاني ٢٦، ٣٠، ٣٣، ٣٦  
 ٤٣-٤٦، ٤٦  
 ابن عبد ربه ٢٦، ٤٤، ٥٣، ٦٤، ١٦٦  
 عبد الرحمن بن أبزي ٥٣  
 عبد الرحمن بن الأشعث ٦٣، ٧٣، ٢٢٢  
 عبد الرحمن بن نعيم ١٥٥  
 عبد شمس ٢٠٥  
 عبد شمس بن مناف ٢١، ١٦  
 عبد العزيز بن مروان ٩٠  
 عبد الله ١٨٩  
 عبد الله بن أبي بن سلول ٢٣٥  
 عبد الله بن الأرقم بن عبد يغوث ٤٤-٤٦  
 ٤٨، ٥١  
 عبد الله بن أبي بكر بن عمرو بن حزم ٣٦، ٢٢٧  
 عبد الله بن أبي بكرة ٦٧، ٦٨  
 عبد الله بن جحش ٣٣، ١٩٦، ١٩٧  
 عبد الله بن خلف الخزاعي ٥٣  
 عبد الله بن رواحة ٢٣٠  
 عبد الله بن الزبير ١٩٥، ٢٢٢



عمر بن هند ٢٣  
 عمليق ١٧٦  
 ابن العميد ١٦٦، ١  
 عنتره ١٨٨  
 عوانة بن الحسيم أبو الحسيم ٢٢١-٢٢٣،  
 ٢٣٨  
 عون بن عبد الله ١٠٥  
 عياض التمثالي ٥٨  
 عيسى ابن مريم ٢٢٦، ١٩٢، ٤٠  
 غيلان بن مسلم الدمشقي ١٠٦، ١٠٠  
 فاطمة الزهراء ٢٠١، ١٩٠، ٨٦  
 أبو الفرج (انظر الأصفهاني)  
 الفردوسي ١٨٨  
 فلاشر ٣٥  
 فون كريم ٢١٨-٢١٦  
 الفيروزبادي ١٩  
 فيك ٢٢٧، ٢٢٤  
 قاييل ٢٠٦  
 القالي ٢٢٠، ٢٠١، ١٦  
 قبيصة بن ذؤيب ٦٨، ٦٤  
 ابن قتبية ٢١٠، ١٩٤، ١٣٢، ٦٤، ٢٦، ٢٤  
 قتبية بن مسلم الباهلي ١٨٩  
 قرة بن عبد الرحمن ٢١١  
 ابن القرية ٢٢٢، ٧٥، ٧٣، ٦٤  
 القرطبي ٤٣  
 ذو القرنين ٢٠٨  
 القلقشندي ٨٨، ٦٥، ٥٢، ٥١، ٤٩-٤٧  
 ١٣٣، ١٣٢  
 قبصر ٢١

العجلي ٥٠  
 عدى بن زيد ٢٦  
 عسرة بن الزبير ١٩٤، ١٧٧، ٨٨، ٣٦-  
 ٢٣٨، ٢٣٥-٢٣٣، ٢١٣، ١٩٩، ١٩٦  
 ابن عساكر ٤٣  
 عطاء الخراساني ١٠٩  
 عقاب بن شبة ٩٦، ٩٣  
 ابن أبي العقب ٧٣  
 العلاء بن الحضرمي ٣٠  
 العلاء بن عتبة ٤٤  
 علقمة بن وقاص الليثي ٢٣٥، ٢١٦  
 علي بن أبي طالب ٤٦، ٤٥، ٣٣، ٣٠، ٢٩  
 ٥٥ — ١٥٣، ١٥٢، ٧٦، ٦٦، ٦٠  
 ٢٣٥، ٢٢٢، ١٨٨، ١٥٥  
 عمر بن إبراهيم ١٧٣  
 عمر بن الخطاب ٦١، ٥٧، ٥٤-٤٩، ٤٧  
 ٩٧، ٩٢، ٨٦، ٨٤، ٨٣، ٨٠، ٦٦، ٦٥  
 ١٥٥، ١٥٣، ١٥٢، ١٤٩، ١١٦، ٩٨  
 ٢٢٠، ١٩٤، ١٧٧، ١٧٠  
 عمر بن عبد العزيز ١٠٧-٩٧، ٩٢، ٦٩  
 ١٩٣، ١٧٧، ١٥٥، ١١٩، ١١٨، ١١٦  
 عمر بن عبد العزيز الوراق ٩٩  
 عمر بن عبد الله بن عتبة ٩٠  
 عمر بن هبيرة ١٠٥  
 عمرو بن حزم الأنصاري ١٤٧، ٤٠  
 عمرو بن سعيد بن العاص ١٢٢  
 عمرو بن العاص ١٨٢، ١٨١، ٦٠، ٥٨، ٥٧  
 عمرو بن عامر ٢٠٤  
 عمرو بن نافع ٧٤



محمد بن عبد الرحمن (انظر السخاوي)  
 محمد بن عبد الله بن الحسن ٢٢٢، ٢٢١  
 محمد بن عبد الله بن أبي سعيد الخزاعي ١٨٨  
 محمد بن علي (انظر محمد بن الحنفية)  
 محمد كرد علي ١٦١  
 المختار ٧٢٠٧١  
 أبو مخنف ٢٣٨، ٢٠٤  
 المرقش الأكبر ٢٦، ٢٤  
 مروان بن الحكم ٥٥  
 مروان بن محمد ١٣٣، ١٢٧، ١٢٦  
 ابن مسعود (انظر عبد الله)  
 المسعودي ١٧٦، ١٦٦، ١٢٦، ٧٦  
 أبو مسلم الخراساني ١٦١  
 مسلمة بن عبد الملك ١٩٣  
 مصعب بن الزبير ٦٧، ٦٣  
 المطلب بن عبد مناف ٢١، ١٦  
 معاذ بن جبل ٩٧، ٧٩  
 معاوية بن أبي سفيان ٤٩، ٤٤ - ٤٦،  
 ٥٤، ٥٥، ٥٧، ٥٩، ٦٢، ٦٦ - ٦٨،  
 ٨٦ - ٨٩، ١٧١، ١٧٦، ١٧٨، ١٧٩،  
 ١٨١ - ١٨٣، ١٨٥، ١٩٢ - ١٩٤، ٢٢١  
 ٢٢٢  
 معاوية بن عمار ١٩٤  
 معاوية بن مالك ٢٤  
 معتمر بن سليمان التيمي ٢١٩  
 معقيب بن أبي فاطمة ٤٥، ٢٩  
 مغيث بن بشير ٢١٩  
 المغيرة بن شعبة ٥٣، ٤٦، ٤٤  
 المغيرة بن عبد الرحمن ١٩٣  
 المقوقس ٣٥

قينان ٢٠٧  
 السكتاني (انظر عبد الحى)  
 السكرماني ١٧٣  
 كرنكو ٢٠٨، ١٩١، ١٩٠، ١٨١  
 كسرى ٢١  
 كشتاسب ١٣١  
 كعب الأخبار ١٧٥  
 كعب بن زهير ١٩٤  
 ابن كيسان مولى بني المغيرة ١٩٧  
 لاوذ بن رام ١٨٤  
 ليبد بن ربيعة ٢٠٦، ٢٤  
 لقمان بن عاد ٢٠٩، ١٨٢، ١٠٩، ١٠٦  
 لويس شيخو ١٨  
 الليث ٢١٢  
 ملالي ٢٠٨  
 مالك بن أنس ٢١٤  
 المبرد ٧٤  
 المتلمس ٢٣  
 المثني بن حارثة ٤٩  
 مجنون بن عامر ٧٣  
 محمد (انظر الرسول)  
 محمد بن إسحاق ١٩٤، ١٩٠، ١٨٨، ٣٦  
 ٢٣٤، ٢٣٠ - ٢٢٣، ٢١٣ - ٢١٠، ٢٠٤  
 ٢٤١، ٢٣٨، ٢٣٥  
 محمد بن الحنفية ٨٦  
 و محمد بن خير الوراق ١٠٧  
 محمد بن السائب الكلبي ٢٣٨، ٢٣٤، ٢٠٤  
 محمد بن سعد ١٨٠، ١٧٧، ١٠٨، ٣٢  
 ٢١٤، ٢١٢، ٢١٠، ٢٠٢، ١٩٤، ١٩٣  
 ٢٢٤، ٢١٥



هايل ٢٠٦،٢٠٥  
 هاشم بن عبد مناف ٢١،١٦  
 هرقل ٤٠  
 الهرمزان الفارسي ١٧٠  
 ابن هشام ١٨١،٣٧،٣٣،٢٦،٢٢،٢٠  
 ٢٠٤،٢٠٣،١٩٥،١٩٠،١٨٩،١٨٢  
 ٢٣٠،١٢٣،٢١٣،٢١٢،٢١٠  
 هشام بن عبد الملك ١٢٢،١٢١،٦٨،٦٧  
 ٢٣٩،٢٣٥،١٢٥،١٢٤  
 هشام بن عروة ١٩٦،١٩٥،٨٨  
 هشام بن الوليد الخزومي ٢١٣  
 هل ١٠  
 الهمال بن عاد ذو شدد ٢١٠ — ٢٠٨  
 ابن أبي هنيذة ١٩٤  
 هود ١٨٨  
 هوزة بن علي ٤٢  
 هوروقنس ٢١٥،٢٠٢،٢٠٠،١٩٣،٣٦  
 ٢٣٨،٢٢٧،٢٢٤،٢٢٣  
 الهيثم بن عدي ٢٢١  
 وائل بن حجر الحضرمي ٤٠  
 واصل بن عطاء ١١٣  
 واقد حليف بني عدي ١٩٧  
 الواقدي ٢١٦،٢١٥،٢١٠،١٩٤  
 ورقة بن نوفل ٢٦  
 أبو الوفا نصر المهوريني ٤٣  
 ولفنسون (انظر إسرائيل)  
 الوليد بن عبد الملك ١٩٤،٧١،٦٩  
 الوليد بن عقبة ٥٩،٥٨  
 الوليد بن المغيرة ٣١

مكحول ١٨٩،٩٢  
 ملكيكرب بن أسعد بن تبع ١٩١  
 منجاب بن الحارث التيمي ٢٢١  
 المنذر بن ساوي ٣٥  
 المنصور ٢٢٤،٢٢٣  
 المهدي ٢٢٣  
 المهلب ٧٦،٧٥  
 مهليل ٢٠٨  
 موسى (عليه الصلاة والسلام) ١٩٢،٤١  
 أبو موسى الأشعري ٥٤-٥٢  
 موسى بن عقبة ٢٣٤،٢١٥،٢١٤  
 الميداني ٢٣  
 النابغة الذبياني ٢٠٦،١٨٥،١٨٠،١٧٩  
 نافع بن الحارث ٥٣  
 ابن نباتة المصري ٧٤  
 النبي (انظر الرسول)  
 النجاشي ٤٠،٣٩،٣٥  
 ابن النديم ١٦٦،١٢٦،١٢١،١٢٠،١٩  
 ٢٣٠،٢٢١،٢٠٢،١٨١،١٨٠  
 نصر بن حجاج ٨٤،٨٣  
 نصر بن مزاحم ٥٧  
 النصر بن الحارث ١٧٤  
 أبو نصر ٢٢٠  
 أبو نعيم الأصبهاني ١٠٦-١٠٣،١٠١،٨١  
 ٢١٣،٢١٢،٢٠٠،١٠٨  
 نعيم بن مسعود الأشجعي ٢١٨،٣٤  
 نوح (عليه الصلاة والسلام) ٢٠٧،٢٠٤،١٨٢  
 نوفل بن عبد مناف ٢١،١٦  
 النوري ١٣٢،١٩



يزيد بن معاوية ٢١٣، ٨٧، ٧٠، ٦٣، ٦٢

يزيد بن المهلب ٧٤، ٦٨، ٦٧

يعرب ١٨٤

يعقوب ١٧٠

يعلى بن منية ٥٥

يوسف بن عمر ٦٧

يونس بن بكير ٢٢٧

يونس بن عبيد ١٠٣

يونس بن يزيد ٢١٣، ٢١٢

وهب بن منبه ١٧٥، ١١٨، ١١٠-١٠٨

٢٠٩، ٢٠٧-٢٠٢، ٢٠٠، ١٩٠-١٨٨

٢٣٤-٢٣٢، ٢٢٨، ٢٢٦، ٢١٩، ٢١٠

٢٣٧

ياقوت ٢٢٢، ٢٢١، ٢٠٣، ١١٨، ١٠

٢٣٠، ٢٢٨، ٢٢٤

يحيى بن آدم ٢٢٢

يحيى بن يعمر ٧٥، ٧٤، ٦٨، ٦٧

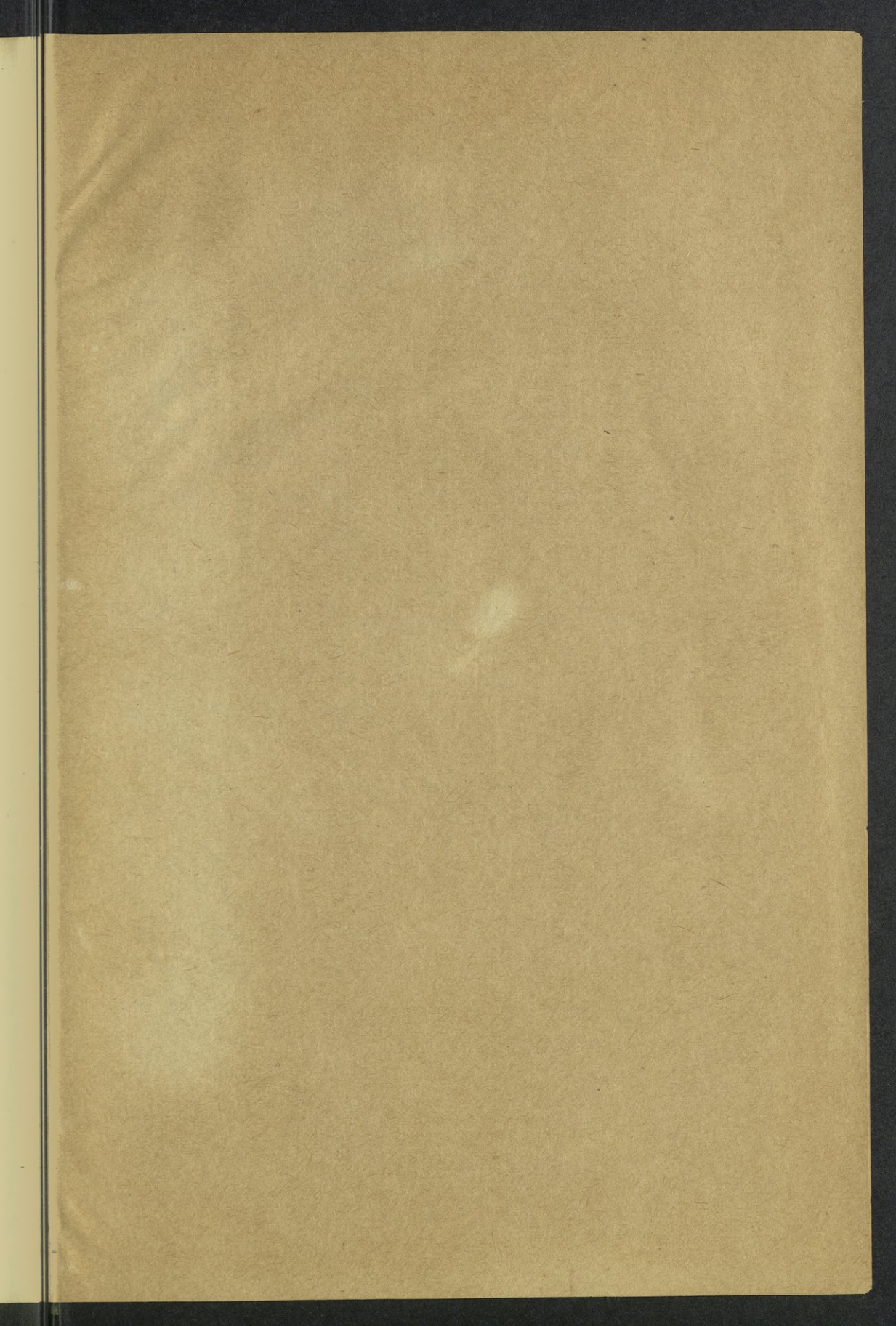
يزيد بن عبد الملك ١٠٥



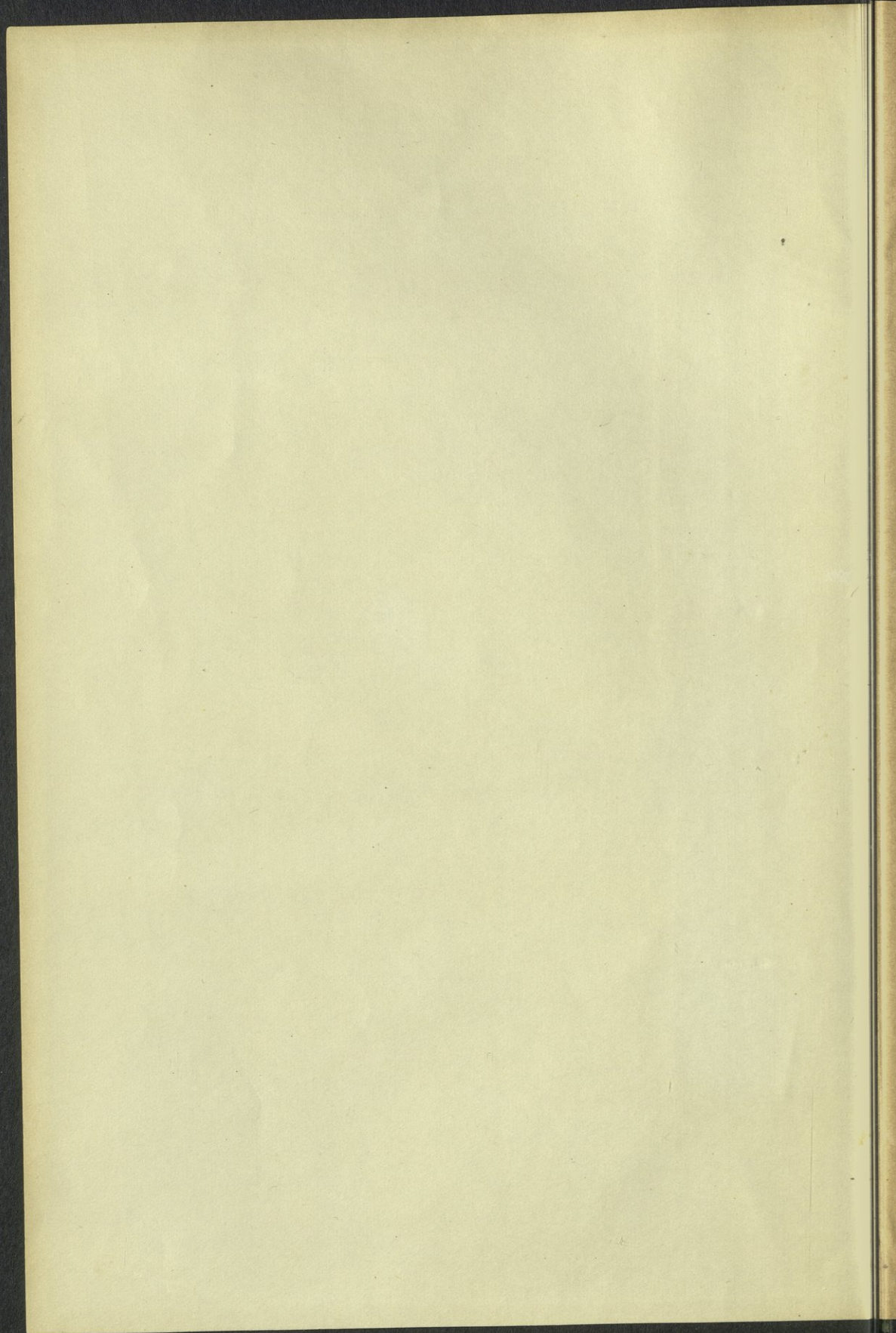
## تصويبات

| الصفحة | السطر | الخطأ     | الصواب     | الصفحة | السطر | الخطأ                     | الصواب    |
|--------|-------|-----------|------------|--------|-------|---------------------------|-----------|
| ٣      | ١٤    | الكتبة    | الكتابة    | ١٥٠    | ٨     |                           |           |
| ١٤     | ١٠    | نامة      | تامة       | ١٥٠    | ١٦    | نخج                       | نخ        |
| ١٩     | ٥     | لأول      | الأول      | ١٥١    | ٧     | لقوا                      | لقوا      |
| ١٩     | ٦     | اسريعا    | سريعا      | ١٥٤    | ١٥    | وحشة                      | وحشة      |
| ٢٢     | ٤     | يام       | أيام       | ١٥٨    | ١٠    | خرى                       | أخرى      |
| ٣١     | ٥     | البلاقون  | البالاقاني | ١٥٨    | ١٨    | يرتعن                     | يرتعن     |
| ٣٤     | ٤     | Sperlber  | Sperber    | ١٧٨    | ١     | الباب الثالث الفصل الثاني |           |
| ٤٣     | ١٠    | قرر       | يقرر       | ١٨٦    | ١٧    | الصيغة                    | الصيغة    |
| ٤٤     | ٩     | عبة       | عتبة       | ١٩٨    | ٥     | الحجاج                    | الحجاج    |
| ٤٩     | ٢١    | كر        | بكر        | ١٩٨    | ١٦    | فطلقوا                    | فطلقوا    |
| ٥٠     | ١١    | الجهشبارى | الجهشبارى  | ١٩٨    | ١٧    | تركوه                     | تركوه     |
| ٧٩     | ١٦    | ولينذهب   | ولينذهب    | ٢٠١    | ٢٠    | فأسلوهاها                 | فأسلوهاها |
| ٩٣     | ١٩    | الإطنات   | الأطناب    | ٢١٤    | ١١    | بمغازى                    | بمغازى    |
| ٩٤     | ٤     | دعائه     | دُعائه     | ٢١٤    | ١٥    | sachau chasau             | chasau    |
| ٩٤     | ٥     | صلاته     | صلاته      | ٢١٩    | ٧     | وسلام                     | وسلم      |
| ٩٨     | ٧     | لمرة      | الثمرة     | ٢١٩    | ١٤    | طائفان                    | طائفان    |
| ١٠٤    | ١     | هذه       | هذه        |        |       |                           |           |
| ١٠٦    | ٤     | صورة      | سورة       |        |       |                           |           |
| ١٠٧    | ٥     | رأس       | رأس        |        |       |                           |           |
| ١١٩    | ١     | عما       | عمر        |        |       |                           |           |
| ١٢١    | ١     | الإسكندر  | الإسكندر   |        |       |                           |           |
| ١٣٥    | ٢١    | غفتك      | غفتك       |        |       |                           |           |
| ١٤١    | ٩     | الطخة     | لطخة       |        |       |                           |           |

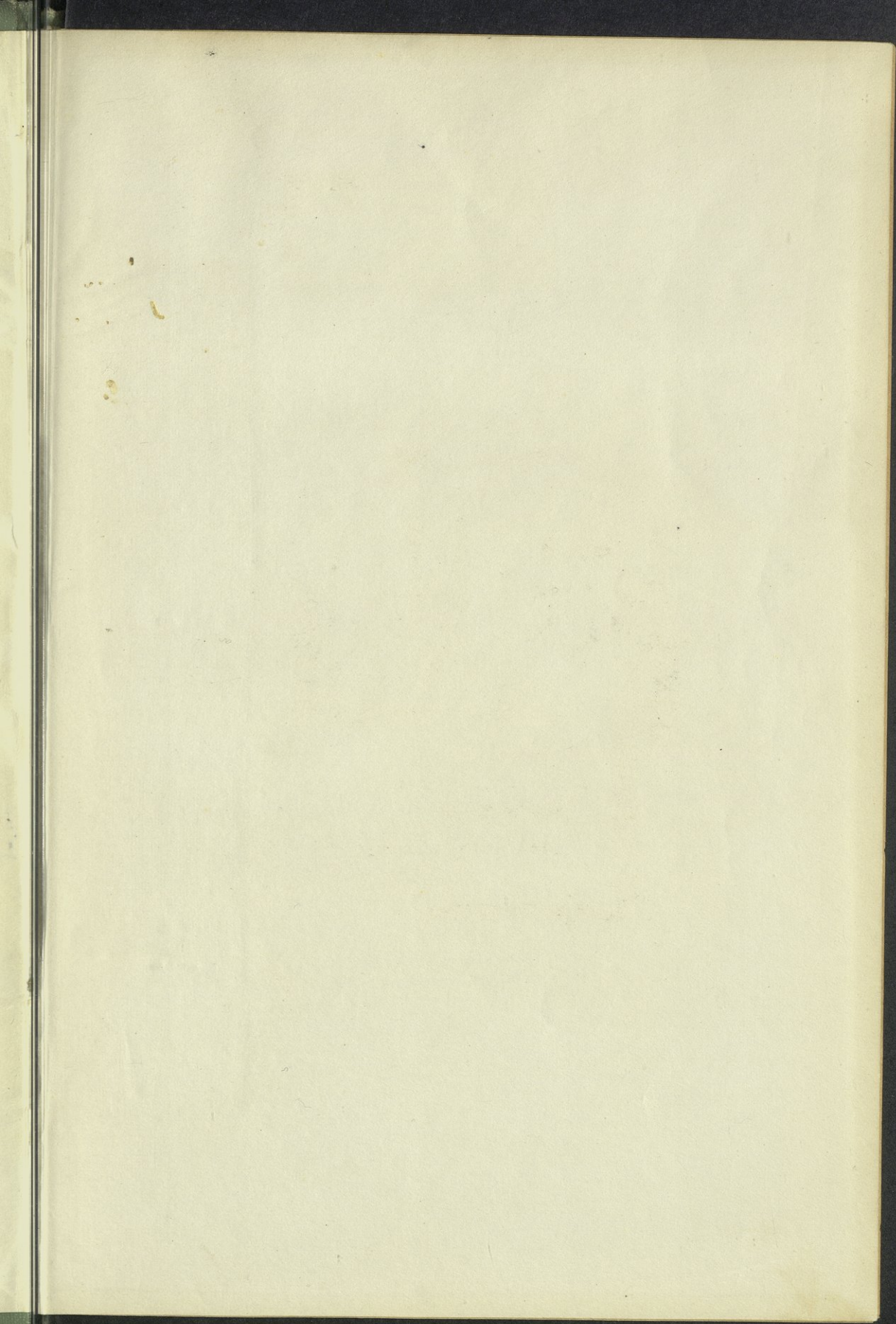














808:N

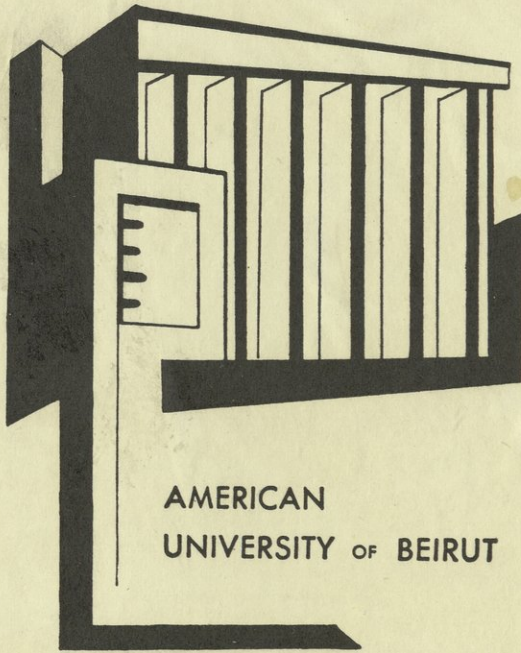
نصار، حسين

نشأة الكتابة الفنية في الأدب العربي

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01031082



AMERICAN  
UNIVERSITY OF BEIRUT



